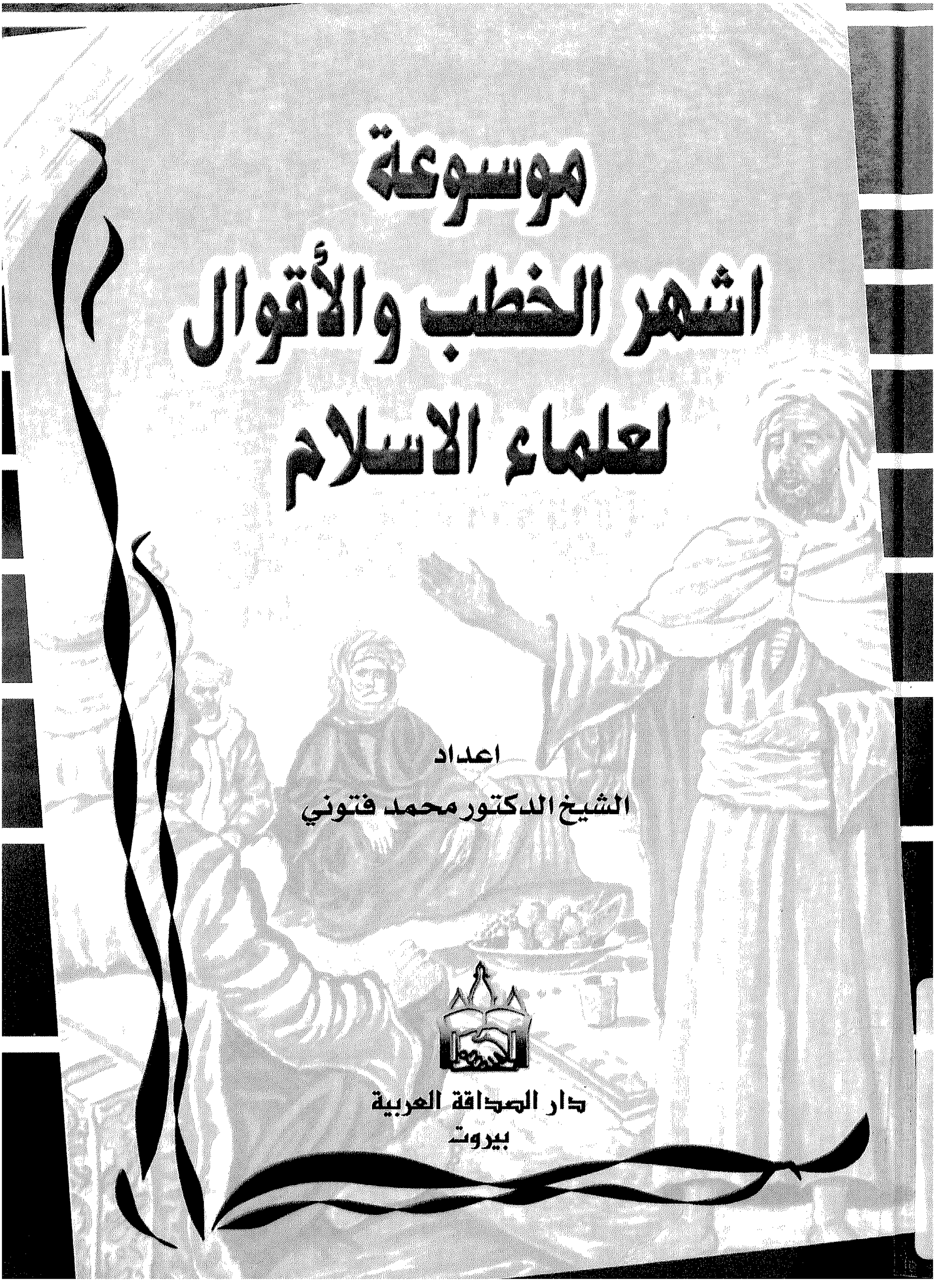
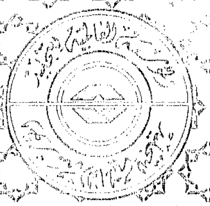


موسوعة اشهر الخطب والأقوال لعلماء الاسلام

اعداد
الشيخ الدكتور محمد فتوني

دار الصداقة العربية
بيروت



موسوعة أشهر الخطب

والأقوال لعلماء الإسلام

الطبعـــــة الأولى ٢٠٠١

دار الصداقة العربية بيروت لبنان

للطباعة والنشـر Printing - Publishing

هاتف ٠٣/٤٩٠٧٩٩ ٠١/٦٥٧٥٧٢ فاكس ٣٠٧٧٠٧ ص. ب ١٠٠/٤١٨

موسوعة
اشهر الخطب والأقوال
لعلماء الاسلام

اعداد
الشيخ الدكتور محمد فتوني

دار الصداقة العربية
بيروت

موسوعة أشهر الخطب والأقوال لعلماء الإسلام

وَمَواقِفهم المَجِيدةَ في حَمْلِ أمَانةَ العِلم وَادَاء وَاجبِه

وايثَار الحَقِ والانِتصَار له والتضحية في سَبِيلهِ

د. عفيف أسبر

مُقَدِّمَة

رأيت أن أجعل فاتحة كتابي زيادة في النفع، وذكرى لأولي الألباب، وإنما اخترت تلخيصه لما في اسمه من توافق وإلا فللإمام أبي عبد الله شمس الدين ابن قيّم الجوزيّة المتوفى سنة ٧٥١هـ كتاب حافل في جزئين كبيرين (ستمائة صفحة من القطع الكبير والحرف الصغير) اسمه: (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) وقد أوسع المجال وصال وطال في ميدان أبي بكر الآجري رحمهما الله وجزاهما عن العلم وأهله خير الجزاء.

وما في هذه الخلاصة من أحاديث وآثار أوردها الآجرّي من روايته ورأيت أكثرها منشوراً في كتاب ابن القيّم وفي بعضها اختلافاً يسيراً وقد أخرجها الشيخ وذكر طرقها ومنازلها.

والعنوان الآتي من كتاب «مفتاح دار السعادة»، أنعم الله علينا بها وعلى المؤمنين.

أهمية العلم

قال أبو بكر محمد بن الحسين رحمه الله بعد أن ذكر فضل العلماء وحاجة المجتمع إليهم:

«فهم ـ أي العلماء ـ سراج العباد، ومنار البلاذ، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء؛ يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم تحيروا، وإذا أسفر عنها الظلام أبصروا».

فإن قال قائل ما دلّ على ما قلت؟ قيل له الكتاب ثم السنّة. فإن قال فأذكر منه ما إذا سمعه المؤمن سارع في طلب العلم ورغب فيما رغبه الله عز وجل ورسوله ﷺ. قيل له أما دليل القرآن فإن الله عز وجل قال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ فوعد الله عزّ وجلّ المؤمنين أن يرفعهم ثم خص العلماء منهم بفضل الدرجات.

وقال عز وجل ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ فأعلم خلقه ما يخشاه العلماء به.

وقال عز وجل: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

وقال عز وجل: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

وقال عز وجل: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾. يقال فقهاؤهم وعلماؤهم.

وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وعن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ قال العلم والفقه، وفي قول الله: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ﴾ قال الفقه والعقل والعلم وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قال الفقه والعقل وإصابة القول في غير نبوة.

وفي قوله عز وجل: ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال الفقهاء والعلماء ذكر ما جاءت به السنن والآثار عن فضل العلماء في الدنيا والآخرة.

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: **«وَلَفَضْلُ الْعَالِمِ على الْعَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ إنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ إنَّ الأَنْبِياءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِيناراً وَلا دِرْهَماً إنَّما وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»**.

عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم الشهداء ثم العلماء»**.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«ما عُبد الله بشيء أفضل من فقه في دين، وفقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد وعماد الدين الفقه»**.

عن أبي حفص أنه سمع أنس بن مالك يقول قال النبي ﷺ: **«إنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ في الأَرْضِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ يُهتَدَى بِهَا في ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَإِذَا انطَمَسَتِ النُّجُومُ يُوشِكُ أَنْ تَضِلَّ الْهُدَاةُ»**.

عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما سلك عبد طريقاً يقتبس فيه علماً إلا سلك به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً عنه وإنه ليستغفر للعالم من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في جوف البحر»**.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع**».

عن صفوان بن عسال المرادي قال: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي جِئْتُ أَطلبُ الْعِلْمَ فَقَالَ مَرْحباً يَا طَالِبَ ا لعهلْم إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ المَلَائِكَةُ وَتُظِلُّهُ بِأَجنِحَتِها ثُمَّ يَرْكبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً حتَّى يَبْلُغُوا سَمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ».

ومن حديث أبي أمامة: «العالم والمتعلّم شريكان في الأجر».

عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الصَّدَقَةِ أَنْ تَتَعَلَّم ثُمَّ تُعَلِّمَهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**».

عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «**أَرْبَعَةٌ تَجْرِي عَلَيهِمْ أُجُورُهُمْ بَعْدَ المَوْتِ: المُرَابِطُ في سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ عَلَّمَ عِلماً أُجْرِيَ لَهُ مَا عُمِلَ بِهِ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَجْرُهُ يجْرِي ما جَرَتْ، وَرَجلٌ تعرَكَ أَوْلاداً صِغاراً فَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ**».

عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً إنما يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتّخذ الناس رؤساء جهّالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا**».

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينزع العلم من الناس بعد أن يؤتيهم إ ياه ولكنه يذهب بالعلماء فكلما ذهب بعالم ذهب بما معه من العلم حتى يبقى من لا يعلم فيضلّون**».

قال محمد بن الحسين: روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: تعلّموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة. ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الخلوة، والدليل على السرّاء والضرّاء، والزين عند الأخلّاء، و القرب عند الغرباء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخلق قادة يقتدى بهم، وأئمة في الخلق تقتصّ آثارهم، وينتهي

إلى رأيهم، وترغب الملائكة في حبّهم، بأجنحتها تمسحهم، حتى كل رطب ويابس لهم مستغفر، حتى حيتان البحر وهوامّه وسباع البرّ وأنعامه، والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأحرار ومجالسة الملوك، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، والفكر به يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الله عز وجل، وبه يُعبد، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، أمام العمل والعمل تابعه، يُلهمه السعداء، ويُحرمه الأشقياء.

عن موسى بن يسار قال: بلغنا أن سلمان الفارسي كتب إلى أبي الدرداء قال: أن العلم كالينابيع يغشى الناس فيختلجه هذا وهذا فينفع الله به غير واحد وأن حكمة لا يتكلم بها كجسد لا روح فيه، وإن علماً لا يخرج ككنز لا ينفق، وإنما مثل المعلّم كمثل رجل عمل سراجاً في طريق مظلم يستضيء من مر به، وكلّ يدعو إلى الخير.

قال كعب: عليكم بالعلم قبل أن يذهب فإن ذهاب العلم موت أهله. موت العالم نجم طمس، موت العالك كسر لا يجبر، وثلمة لا تسدّ العلماء، أبي وأمي، قال أحسبه، قال: قبلتي إذا لقيتهم، وضالّتي إذا لم ألقهم، لا خير في الناس إلا بهم.

وعن الحسن في قول الله عز وجل: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قال الحسنة في الدنيا العلم والعبادة، وهي الجنة في الآخرة.

قال محمد بن الحسين: العلماء في كل حال لهم فضل عظيم. في خروجهم لطلب العلم، وفي مجالستهم لهم فيه فضل، وفي مذاكرة بعضهم لبعض لهم فيه فضل، وفيمن تعلّموا منه العلم لهم فيه فضل، وفيمن علّموه العلم لهم فيه فضل. فقد جمع الله للعلماء الخير من جهات كثيرة، نفعنا الله وإياهم بالعلم.

أهل العلم وصفاتهم

فمن صفاتهم في طلب العلم، أن يعلم أن الله عز وجل فرض عليه عبادته؛ والعبادة لا تكون إلا بعلم. لأنه فريضة. وعلم أن المؤمن لا يحسن به الجهل، فطلب العلم لينفي عن نفسه الجهل، وليعبد الله عز وجل كما أمره ليس كما تهوى نفسه. فكان هذا مراده في السعي في طلب العلم. معتقداً للاخلاص في سعيه. لا يرى لنفسه الفضل في سعيه. بل يرى لله عز وجل الفضل عليه إذ وفّقه لطلب علم ما يعبده به من أداء فرائضه واجتناب محارمه.

يجب أن يتحلّى العلماء بصفات فاضلة، فإن مصاحبة الناس في الطريق يجب أن يصاحب من يعود عليه نفعاً، وقد أقام الأصحاب مقام ثلاثة: أما رجل يتعلم منه فخيراً إن كان أعلم منه. أو رجل هو مثله في العلم فيذاكره العلم لئلا ينسى ما لا ينبغي أن ينساه، أو رجل هو أعلم منه فيعلّمه، لا يملّ من أصحابه لكثرة صحبه بل يحبّ ذلك لما يعود عليه من بركته.

فإذا أحب مجالسة العلماء، جالسهم بأدب وتواضع في نفسه وخفض صوته، وسألهم بخضوع. ويكون أكثر سؤاله عن علم ما تعبّده الله به ويخبرهم أنه فقير إلى علم ما ويسأل عنه، فإذا أفاد منهم علماً أعلمهم بفائدته. وإن غضبوا عليه لم يغضب عليهم ونظر إلى السبب فرجع عنه واعتذر إليهم. لا يضجرهم في السؤال، رفيق في جميع أموره لا يناظرهم بكبرياء، وإنما همّته البحث لطلب الفائدة منهم مع حسن التلطف لهم، ولا يماري السفهاء متواضع أمام العلماء حتى يتعلم منهم ما يزداد به عند الله فهماً في دينه.

فإذا أعطاه الله، واحتاج الناس إلى ما عنده من العلم ألزم نفسه التواضع أمام الناس، فأما تواضعه لمن هو مثله في العلم فإنها محبّة تنبت له في قلوبهم وأحبّوا قربه، وإذا غاب عنهم حنت إليه قلوبهم. وأما تواضعه أمام العلماء

فواجب عليه وأما تواضعه لمن هو دونه في العلم فشرف له عند الله وعند أولي الألباب.

ومن صفته في علمه: صدقه وحسن إرادته، وهو لا يطلب بعلمه شرف منزلة عند الملوك، صائن للعلم إلا عن أهله، لا يأخذ ثمناً، ولا يستقضي به الحوائج، ولا يقرب أبناء الدنايا ويباعد الفقراء، وأن يتجافى عن أبناء الدنيا ويتواضع للفقراء والصالحين ليفيدهم علماً. وإن كان له مجلس قد عرف بالعلم ألزم نفسه حسن المداراة لمن جالسه. والرفق بمن ساء إليه. والتحلّي بالأخلاق الجميلة، والابتعاد عن الأخلاق الدنيئة.

المناظرة

لا يرى أبو بكر «المناظرة» إلا من جهة الإضطرار إليها، كما إذا احتاج في وقت من الأوقات إلى مناظرة أحد من أهل الزيغ ليدفع بحقه باطل من خالف الحق وخرج عن جماعة المسلمين فتكون غلبته لأهل الزيغ عائدة بالبركة على المسلمين.

أما ما يصنع العالم في علم قد أشكل عليه وأراد أن يستنبط الحق فيه فعليه أن يقصد عالماً راجعاً عقله وفهمه وعلمه ممن يعرف أنه يريد بعلمه الله فيذاكره مذاكرة من يطلب الفائدة ويخبره أنه يطلب الحق لا الغلب، وأن يظهر الحق وينكشف على لسان أحدهما حباً يستوي فيه أن يكون ظهوره على لسانه أو لسان مذاكره من غير أن يكون للشيطان فيما نحن فيه نصيب.

وما عدا هذا فمنعه الشيخ وحذّر من هوى النفس أن يدخل عليها بحجة طلب الحق فتقع في المراء المنهيّ عنه، وروَى عن النبي ﷺ قوله: «**من ترك المراء وهو صادق بنى الله له بيتاً في وسط الجنة**» وقوله عليه السلام «**ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**».

ومن أخلاق العالِم، أن يأمن شرَّ من خالطه، ويأمل خيره من صاحبه، لا يأخذ بالعثرات، ولا يشيع الذنوب عن غيره، ولا يقطع بالبلاغات، ولا يفشي

سرٌّ من عاداه، ولا ينتصر منه بغير حق، ويعفو ويصفح عنه، ذليل للحق، عزيز على الباطل، كاظم للغيظ عمن آذاه، شديد البغض لمن عصى مولاه، يجيب السفيه بالصمت عنه والعالم بالقبول منه، لا مداهن، ولا مشاحن، ولا مختال، ولا حسود، ولا حقود ولا سفيه، ولا جافّ، ولا فظّ، ولا غليظ، ولا طعّان، ولا لّعان، ولا مغتاب، ولا سبّاب، يخالط من الإخوان من عاونه على طاعة ربه ونهاه عما يكره مولاه، ويخالق بالجميل من لا يأمن من شرّه إبقاء على دينه، سليم القلب للعباد من الغلّ والحسد، يغلب على قلبه حسن الظنّ بالمؤمنين في كل ما أمكن فيه العذر، لا يحبّ زوال النعم عن أحد من العباد، يداوي جهل من عامله برفقه، إذا تعّجب من جهل غيره ذكر أن جهله أكثر فيما بينه وبين ربه عز وجل، لا يُتوقَّع له بائقة، ولا يخاف منه غائلة، الناس منه في راحة ونفسه منه في جهد.

قال محمد بن الحسين: إن ما تقدم ذكره وما ينبغي للعالم أن يتحلّى بالأخلاق الشريفة، كلها تجري له بتوفيق من مولاه الكريم، ومن جرى له التوفيق بما ذكرنا كانت أخلاقه الشريفة فيما بينه وبين ربه عزّ وجلّ أعظم شأناً مما ذكرت، لأن مولاه الكريم قد أوصلها إلى قلبه ليحضّ نفسه بما خصه من علمه، إذ جعله وارث علم الأنبياء وقرّة عين الأولياء وطبيباً لقلوب أهل الجفاء.

ومن صفاته أن يكون لله شاكراً، وله ذاكراً، بحلاوة وحبّ، منعّم القلب بمناجاة الرحمن، يعدّ نفسه مع شدّة اجتهاده خاطئاً مذنباً، ومع الدؤوب على حسن العمل مقصراً، لجأ إلى الله عز وجل فقوى ظهره، ووثق بالله فلم يخف غيره، مستغن بالله عن كل شيء، ومفتقر إلى الله في كل شيء، أنسه بالله وحده، ووحشته ممن يشغله عن ربّه، إن إزداد علماً خاف توكيد الحجة، مشفق على ما مضى من صالح عمله أن لا يُقبل منه، همّه في تلاوة كلام الله الفهمُ عن مولاه، وفي سنن الرسول ﷺ الفقهُ لئلا يضيع ما أمر به، متأدّب بالقرآن والسنّة، لا ينافس أهل الدنيا في عزّها، ولا يجزع من ذلّها، يمشي على الأرض هوناً بالسكينة والوقار، وقلبه مشتغل بالفهم والاعتبار، إن فرغ قلبه عن ذكر الله فمصيبة عظيمة، وإن أطاع الله عز وجل بغير حضور فهم فخسرانٌ مبين، يذكر

الله مع الذاكرين، ويعتبر بلسان الغافلين، عالم بداء نفسه ومتّهم لها في كل حال، اتّسع في العلوم فتراكمت على قلبه الفهوم فاستحى من الحي القيّوم، وشغله بالله في جميع سعيه متصل وعن غيره منفصل.

فإن قال قائل: فهل لهذا النعت الذي نعتّ به العلماء ووصفتهم به أصل في القرآن أو السنة أو أثر عمن تقدّم؟ قيل له نعم، وسنذكر منه ما يدلّ على ما قلنا إن شاء الله.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ أفلا ترى ـ رحمك الله ـ كيف وصف العلماء بالبكاء والخشية والطاعة والتذلل فيما بينه وبينهم.

عن مسعر قال: سمعت عبد الأعلى التيمي يقول: من أوتي من العلم ما لا يبكيه فخليق أن لا يؤتي علماً ينفعه لأن الله عز وجل نعت العلماء وقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

عن مطر الوراق في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ قال فيها: إن الحكمة خشية الله والعلم به.

وعن مسروق: «بحسب امرىء من العلم أن يخشى الله وبحسب امرىء من الجهل أن يعجب بعلمه».

وقال حماد بن زيد سمعت أيوب يقول: «ينبغي للعالم أن يضع الرماد على رأسه تواضعاً لله عز وجل».

وقال الفضيل: «العلماء كثير، والحكماء قليل، وإنما يراد من العلم الحكمة فمن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً».

وقال حبيب بن عبيد: «تعلّموا العلم واعقلوه وانتفعوا به، ولا تَعلّموه لتَجمّلوا به، إنه يوشك إذا طال بك العمر أن تتجمل بالعلم كما يتجمّل الرجل بثوبه».

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه

من لم يُقنّط الناس من رحمة الله، ولم يرخصّ لهم في معاصي الله، ولم يؤمّنهم مكر الله، ولم يترك القرآن إلى غيره، ولا خير في عبادة ليس فيها تفقّه ولا خير في تفقه ليس فيه تفهّم ولا خير في قراءة ليس فيها تدبّر».

عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تَزُولُ قدَما عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيامَةِ حَتّى يُسْأَلَ عنْ أَرْبعِ خصالٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ، وَعنْ مالِهِ منْ أَيْنَ اكْتَسَبهُ وفِيمَ أَنْفقَهُ، وَعنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فيهِ»**.

قال محمد بن الحسين: قد تقدّمت الأخبار عن النبي ﷺ وعن صحابته رضي الله عنه وعن أئمة المسلمين رحمهم الله بصفة علماءٍ في الظاهر لم ينفعهم الله بالعلم، ممن طلبه للفخر والرياء والجدال والمراء وتأكّل به الأغنياء، وجالس به الملوك وأبناء الملوك لينال به الدنيا فهو ينسب نفسه إلى العلماء، وأخلاقه أهل الجهل والجفاء، فتنة لكل مفتون، لسانه لسان العلماء، وعمله عمل السفهاء. فإن قال قائل: فأذكر الأخبار في ذلك لنحذر ما حذّرتنا، قيل نعم إن شاء الله.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ تَعلّم عِلماً لِغيرِ اللهِ أوْ أرادَ بهِ غيرَ اللهِ فعلْيَتبوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»**.

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«لاَ تَتَعَلَّمُوا العِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ وَلاَ لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ وَلا لِتَجْتَرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فالنَّارَ النَّارَ»**.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أشَدَّ الناسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِم لَمْ يَنفَعْهُ عِلْمُهُ»**.

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَكُون فِي آخِرِ الزَّمَانِ عُبّادٌ جُهّالٌ وَعُلَماءُ فُسّاق»**.

قال سفيان الثوري: تعوّذوا بالله من فتنة العابد الجاهل، وفتنة العالم الفاجر، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون».

عن عبد الله قال: سمعت وهب بن منبّه يقول: قال الله عز وجل فيما يعاتب به أحبار بني إسرائيل: «تَفقَهُونَ لِغَيْرِ الدِّينِ وَتَعْلَمُونَ لِغَيْرِ الْعَمَلِ وَتَبْتَاعُونَ

الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، تَلْبَسونَ جُلُودَ الضَّأْنِ وَتُخْفُونَ أَنْفُسَ الذِّئَابِ وَتَتَّقُونَ الْقَذَا مِنْ شَرَابِكُمْ وَتَبتَلِعُونَ أَمْثَالَ الجِبَالِ منَ الْحَرام، وتُثَقِّلُونَ الدِّينَ على النَّاسِ أمثالَ الجبال تُطِيلُونَ الصَّلاَةَ وَتَبيِّضُونَ الثِّيَابَ تَنْتَقِصونَ مَال الْيَتِيم وَالأرْمَلةِ، فَبعزَّتي حَلَفْتُ لأَضْرِبَنكمْ بِفِتْنَةٍ يَضِلُّ فِيهَا رَأْيُ ذِي الرَّأْي وَحِكْمَةُ الْحَكِيمِ».

أخبرنا الفضل بن زياد قال: سمعت الفضيل يقول: إنما هما عالمان عالم دنيا وعالم آخرة، فعالم الدنيا علمه منشور، وعالم الآخرة علمه مستور، فاتبعوا عالم الآخرة، واحذروا عالم الدنيا لا يصدنّكم بشكره ثم تلا هذه الآية: ﴿**إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله**﴾ الأحبار العلماء والرهبان العبّاد ثم قال: لكثير من علمائكم زيّه أشبه بزيّ كسرى وقيصر منه بمحمد ﷺ، أن النبي ﷺ لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمّر إليه.

قال عبد الله بن مسعود: لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله لصادوا به أهل زمانهم ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا من دنياهم، فهانوا على أهلها. سمعت نبيكم ﷺ يقول: «**مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا واحِداً هَمَّ آخرَتِهِ كفَاهُ الله همّ دُنيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ هُمُومُ أَحْوالِ الدُّنيَا لَمْ يُبَالِ الله في أيّ أودِيَتِهَا هَلَكَ**».

عن عيسى بن سنان قال: سمعت وهب بن منبه يقول لعطاء الخراساني كان العلماء قبلنا استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم فكانوا لا يلتفتون إلى دنياهم فكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم، فإياك وأبواب السلاطين فإن عند أبوابهم فتناً كمبارك الإبل، لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك مثله».

عن هشام صاحب الدستوائي قال: «قرأت في كتاب: بلغني أن من كلام عيسى ابن مريم عليه السلام: كيف يكون من أهل العلم من سخط رزقه واحتقر منزلته وقد علم أن ذلك من علم الله وقدرته، وكيف يكون من أهل العلم من

أتّهم الله فيما قضاه وليس يرضى شيئاً أصابه، كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه، وكيف يكون من أهل العلم مَن دنياه آثر عنده من آخرته وهو في دنياه أفضل رغبة، وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليحدّث به ولا يطلبه ليعمل به».

قال الفضيل بن عياض: إن الله عز وجل يحبّ العالم المتواضع ويبضغ العالم الجبّار، ومن تواضع لله ورّثه الله الحكمة.

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْماً رَجُلٌ سَأَلَ على أَمْرٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ**».

عن وارد مولى المغيرة بن شعبة عن مولاه قال: إن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال وكثرة السؤال.

عن رسول الله ﷺ قال: «**سَيَكُونُ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَتَغَلَّطُونَ فُهَاءَهُمْ بِفَضْلِ الْمَسَائِلِ، أُولَئِكَ شِرَارُ أُمَّتِي**».

عن معاوية بن أبي سفيان: أن النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات، قال عيسى والأغلوطات ما لا يُحتاج إليه من كيف وكيف.

وأما الحجة للعالم الذي يُسأل عن شيء لا يعلمه، فلا يستنكف أن يقول لا أعلم إذا كان لا يعلم، وهذا طريق أئمة المسلمين من الصحابة ومن بعدهم اتبعوا في ذلك نبيهم ﷺ، لأنه كان إذا سئل عن الشيء مما لم يتقدم له فيه علم الوحي من الله عز وجل يقول لا أدري، وهكذا يجب على كل من سئل عن شيء لم يتقدّمْ فيه علم أن يقول الله أعلم به ولا علم لي به، ولا يتكلّف ما لا يعلمه فهو أعذر له عند الله وعند ذوي الألباب.

عن ابن عمر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أي البقاع خير؟ قال: لا أدري وسكت، قال: فأي البقاع شرّ؟ قال: لا أدري وسكت، فأتاه جبريل عليه السلام فسأل فقال: لا أدري، فقال: سل ربك، قال ما أسأله عن شيء، وانتفض انتفاضة كاد يُصعق منها محمد ﷺ، قال فلما صعد

جبريل عليه السلام قال الله تعالى: سألك محمد عن أي البقاع خير قلت لا أدري، وسألك عن أي البقاع شر قلت لا أدري، قال: فخبّره أن خير البقاع المساجد وشرّ البقاع الأسواق.

عن زاذان أبي ميسرة قال: خرج علينا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوماً وهو يمسح بطنه ويقول: يا بردها على الكبد سئلت عما لا أعلم فقلت لا أعلم والله أعلم.

عن مسروق قال: قال عبد الله: أيها الناس من علم منكم علماً فليقل به، ومن لم يعلم فيقول لا أعلم والله أعلم، فإن من علم المرء أن يقول لما لا يعلم الله أعلم وقد قال الله تعالى: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴿٦٨﴾﴾.

* * *

أخبرنا أبو بكر عن الفريابي عن قتيبة بن سعيد عن الليث ابن سعد عن سعيد بن أبي سعيد عن أخيه عباد بن أبي سعيد سمع أبا هريرة يقول: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللّهمّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الأَرْبَعِ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ وَمِنْ دُعَاءٍ لا يُسْمَعُ**».

أخبرنا أبو بكر عن أبي بكر بن أبي داود، عن أحمد بن صالح المصري، عن عبد الله بن وهب، عن أسامة بن زيد أن محمد بن المنكدر حدّثه أنه سمع جابر بن عبد الله الأنصاري يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أسألك علماً نافعاً وأعوذ بك من علم لا ينفع**» قال جابر فأسرعت إلى أهلي فقلت لهم إني سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهؤلا الكلمات فادعوا بها.

من أخلاق العلماء

نبدأ الباب بصفحة من نور يمليها أدب علماء الصحابة فيما يتداولونه ويتبادلونه وهم في عزّة الحق والتروّي من نزول الوحي على منهل العلم الأكمل:

١ ـ كان عبد الله بن مسعود ـ وهو الذي شهد له النبي ﷺ بأنه «غلام معلّم» ـ يقول: لو سلك الناس وادياً وشِعباً، وسلك عمر وادياً وشعباً، لسلكت وادي عمر وشعبه.

٢ ـ وقال: لو أن عِلْمَ عمر وُضِعَ في كفّة الميزان، ووُضِعَ عِلْمُ أهل الأرض في كفة، لرجح علم عمر.

٣ ـ قال ابن سيرين: كان الصحابة يروْن أن أعلمهم بالمناسك عثمان ابن عفّان ثم عمر بعده.

٤ ـ قال سعيد بن المسيب: كان عمر يتعوّذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن (أي سيّدنا علي).

٥ ـ قال عقبة بن عمرو: ما أرى أحداً أعلم بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عبد الله بن مسعود، فقال أبو موسى الأشعري: إن تقل ذلك فإنّه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل(١).

٦ ـ قال أبو موسى الأشعري: لَمجلسٌ كنت أجالسه عبدَ الله (ابن مسعود) أوثق في نفسي من عمل سنة.

٧ ـ قال ابن حَوْشَب: كان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذا تحدّثوا وفيهم معاذ بن جبل نظروا إليه هيبةً.

٨ ـ قال ابن عباس وهو قائم على قبر زيد بن ثابت: هكذا يذهب العلم.

٩ ـ قال ابن مسعود: لو أن ابن عباس أدرك أسناننا ما عشَرَه منا رجل.

١٠ ـ كان عمر بن الخطاب يقول لابن عباس: قد طرأت علينا عُضَل أقضيةٍ أنت لها ولأمثالها.

١١ ـ قال الأعمش: كان ابن عباس إذا رأيته قلت أجمل الناس، فإذا تكلم قلت أفصح الناس، فإذا حدّث قلت أعلم الناس.

---

(١) ابن مسعود سادس ستة في الإسلام، كان يوصف في الصحابة «بصاحب السواد والسِواك» والسواد: المسارة والسواك: السير الضعيف، وذلك أن النبي ﷺ جعل أذنه عليه (أن يسمع سواده ويرفع الحجاب) فكان يلج عليه، ويلبسه نعليه، ويمشي معه وأمامه، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام. قال أبو موسى الأشعري: لقد قدمت أنا وأخي من اليمن وما نرى إلا أن عبد الله بن مسعد رجل من أهل بيت النبي ﷺ لما نرى من دخوله ودخول أمّه على النبي ﷺ (٣٥٧ ـ ٣٥٨ ج ٣ أسد الغابة).

١٢ ـ لما مات ابن عباس قال محمد بن الحنفية: مات ربّاني هذه الأمة.

١٣ ـ ومما حدث به علي عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: أبو موسى صبغ في العلم صبغة.

١٤ ـ وقال علي كرم الله وجهه: سلمان (الفارسي) علم العلم الأول والآخر، بحر لا ينزح، منّا أهل البيت.

١٥ ـ لما قدم العز بن عبد السلام إلى الديار المصرية بالغ الشيخ زكيّ الدين المنذري (محدّث مصر وصاحب «كتاب الترغيب والترهيب») في الأدب معه وامتنع من الافتاء لأجله وقال: كنا نفتي قبل حضوره وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه(١).

١٦ ـ يقول ابن خلكان(٢): إن سهل بن عبد الله التستري جاء لأبي داود المحدّث فقيل له يا أبا داود: هذا سهل بن عبد الله قد أتاك زائراً، فرحّب به وأجله، فقال سهل يا أبا داود، لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال حتى تقول قضيتها مع الإمكان، قال قد قضيتها مع الإمكان. قال: أخرج لسانك الذي حدّثت به عن رسول الله ﷺ حتى أقبّله. قال فأخرج لسانه فقبّله.

١٧ ـ وفي «ص ٣٤٦ منه» يقول أن سفيان الثوري بلغه مقدم الأوزاعي (عالم من أهل الشام) فخرج حتى لقيه بذي طوى (موضع قرب مكة) فحلّ سفيان رأس بعيره من القِطار ووضعه على رقبته، فكان إذ مرّ بجماعة قال: الطريقَ للشيخ.

١٨ ـ وطُلِبَ عبد الحميد بن يحيى الكاتب وكان صديقاً لابن المقفّع ففاجأهما الطلب وهما في بيت. فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما أنا خوفاً من أن ينال صاحبه مكروه وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال: ترفّقوا بنا فإنَّ كلّامنا له علامات فوكّلوا بنا بعضكم ويمضي البعض الآخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم، ففعلوا.

---

(١) حسن المحاضرة، ج ١ ص ١٢٧.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٦٨. سنرمز لهذا الكتاب بالحرف «ك».

وأُخذ عبد الحميد[١].

١٩ ـ عن أبي حمزة قال: قال لي إبراهيم، والله يا أبا حمزة لقد تكلمت، ولو أجد بدًا من ما تكلمت، وإن زماناً أكون فيه فقيه أهل الكوفة لزمان سوء[٢].

إن كلمة إبراهيم هذه يوضحها قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما مات العبادلة عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالى، فكان فقيه أهل مكة عطاء بن أبي رباح وفقيه أهل اليمن طاوس وفقيه أهل اليمامة يحيى بن أبي كثير وفقيه أهل الكوفة إبراهيم وفقيه أهل البصرة الحسن وفقيه أهل الشام مكحول وفقيه أهل خراسان عطاء الخراساني أمّا المدينة فإن الله خصّها بقرشيّ فكان فقيه أهل المدينة سعيد بن المسيّب، غير منازع. وقد ذكر ابن القيم أسماء عظيمة كان أصحابها يفتون بالكوفة قبل إبراهيم هذا[٣].

٢٠ ـ في سنة أربع وخمسمائة تولى أبو بكر الشاشي فخر الإسلام رئيس الشافعية في زمن المستظهر بالله التدريس بالمدرسة النظامية في بغداد، وكان قد وليها قبله أبو إسحاق الشيرازي، وأبو نصر ابن الصباغ صاحب الشامل، وأبو سعيد المتولي صاحب تتمّة الإبانة، وأبو حامد الغزالي، فلما انقرضوا تولّاها هو. فحكى أنه يوم ذكر الدرس وضع منديله على عينيه وبكى كثيراً وهو جالس على السدّة التي جرت عادة المدرسين بالجلوس عليها وأنشد:

خلت الديار فسدتُ غير مسوَّد ... ومن البلاء تفرّدي بالسؤدد

وجعل يردّد هذا البيت ويبكي. وهذا إنصاف منه واعتراف لمن تقدّمه بالفضل والرجحان عليه[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٧.
(٢) من كتاب الآجري، ص ٧٥.
(٣) أعلام الموقعين، ج ١، ص ٢٤، ٢٨.
(٤) وفيات الأعيان، ص ٥٨٨.

٢١ ـ دخل الفرّاء على سعيد بن سالم فقال سعيد لآله: قد جاءكم سيّد أهل اللغة وسيّد أهل العربية، فقال الفراء: أما ما دام الأخفش (اللغوي) يعيش فلا[١].

٢٢ ـ وسئل الحسن البصري عن عمرو بن عبيد، فقال للسائل: لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربّته، إن قام بإمر قعد به وإن قعد بأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ولا باطناً أشبه بظاهر منه.

٢٣ ـ قال أبو زيد الأنصاري: وقد ذكر عنده شعبة (الأزدي محدّث البصرة) وهل العلماء إلا شعبة كما جاء في تذكرة الحفاظ للذهبي.

٢٤ ـ وقال أبو جعفر: سمعت الشيخ أبا إسحاق الشيرازي يقول لإمام الحرمين: يا مفيد أهل المشرق والمغرب أنت اليوم إمام الأئمة.

٢٥ ـ وتوجّه أبو إسحاق إلى خرسان في رسالة الخليفة فلم يدخل بلدة ولا قرية إلا وجد خطيبها وقاضيها تلميذه ومن جملة أصحابه، وكان بها إذ ذاك إمام الحرمين، فلما همّ الشيخ يعود، كان من تكارمهم أن أمسك الإمام له بركاب الدّابة.

٢٦ ـ وتغير خاطر السيوطي على القسطلاني وقال، إنه ينقل عن كتبه ولا ينسب إليها، فمشى القسطلاني من القاهرة إلى الروضة وكان السيوطي بها منعزلًا عن الناس. فطرق عليه الباب وقال من أنت؟ قال: أنا القسطلاني جئت إليك حافياً مكشوف الرأس ليطيب خاطرك عليَّ، قال قد طاب خاطري عليك[٢].

٢٧ ـ عن سعيد بن المسيب قال: مررت بعبد الله بن عمر فسلّمت عليه ومضيت، فالتفت إلى أصحابه فقال: لو رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا لسّره.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٦١.
(٢) النور الساخر، ص ١١٥.

٢٨ ـ وكان سعيد هذا صهر أبي هريرة، وكان إذا رآه قال: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة. ولهذا أكثر من الرواية عنه[١].

٢٩ ـ وقيل للحسن البصري: إن الحجاج قد قتل سعيد بن جبير، فقال: اللهم ائت على فاسق ثقيف، والله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا في قتله لكبّهم الله عز وجل في النار.

٣٠ ـ قال الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة».

٣١ ـ قال عبد الله بن سنان: قدم ابن المبارك مكة وأنا بها، فلما خرج شيّعه سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض وودّعاه، فقال أحدهما هذا فقيه أهل المشرق فقال الآخر وفقيه أهل المغرب[٢].

٣٢ ـ قال يحيى الأندلسي: كنا في مجلس مالك فاستؤذن لابن المبارك، فأذن له. فرأينا مالكاً تزحزح له في مجلسه ثم أقعده إلى جانبه، ولم أره يتزحزح لأحد في مجلسه غيره[٣].

٣٣ ـ كان أحمد بن حنبل من أصحاب الإمام الشافعي وخواصّه، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر وقال في حقه (خرجت من بغداد وما خلّفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل)[٤].

٣٤ ـ قال أحمد بن حنبل: ما بتُّ منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له.

٣٥ ـ قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي أي رجل كان الشافعي؟ فإني سمعتك تكثر من الدعاء له، فقال يا بني: كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن، هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض؟

---

(١) أعلام الموقعين، ج ١، ص ٢٥.
(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٦.
(٣) الفوائد البهية، ص ١٠٤.
(٤) وفيات الأعيان، ص ٢٠.

٣٦ ـ كان سفيان بن عيينة إذا جاء شيء من التفسير أو الفتيا، التفت إلى الشافعي فقال: سلوا هذا الغلام.

٣٧ ـ قال أبو حسان الزيادي: ما رأيت محمد بن الحسن (صاحب أبي حنيفة) يعظم أحداً من أهل العلم تعظيمه للشافعي، ولقد جاءه يوماً وقد ركب محمد بن الحسن فرجع محمد إلى منزله وخلا به يومه إلى الليل، ولم يأذن لأحد عليه.

٣٨ ـ قال الشافعي (وكان قد دخل بغداد ومحمد بن الحسن بها وجرت بينهما مجالس ومسائل بحضرة هارون الرشيد): ما رأيت أحداً يسأل عن مسألة فيها نظر إلا تبيّنت الكراهة في وجهه إلا محمد بن الحسن، وقال: حملت من علم محمد بن الحسن وقر بعير.

٣٩ ـ قال ابن كرامة: كنّا عند وكيع (الفقيه) يوماً فقال رجل: أخطأ أبو حنيفة، فقال وكيع كيف يقدر أبو حنيفة يخطىء ومعه مثل أبي يوسف وزفر في قياسهما، ومثل يحيى بن أبي زائدة وحفص بن غياث وحبّان ومندل في حفظهم الحديث، والقاسم بن معن في معرفته باللغة والعربية. وداود الطائي وفضيل بن عياض في زهدهما وورعهما؟ من كان هؤلاء جلساؤهم لم يكد يخطىء لأنّه إن أخطأ ردوه[١].

٤٠ ـ عن محمد بن الحسن يقول: مرض أبو يوسف (صاحب أبي حنيفة الأول) في زمن أبي حنيفة مرضاً خيف عليه منه، قال: فعاده أبو حنيفة ونحن معه فلما خرج من عنده وضع يديه على عتبة بابه وقال: إن يمت هذا الفتى فإنه أعلم من عليها، وأومأ إلى الأرض[٢].

٤١ ـ قال عمر بن حمّاد سمعت أبا يوسف يقول: ما كان في الدنيا أحبّ إليّ من مجلس أجلسه مع أبي حنيفة وابن أبي ليلى فإني ما رأيت فقيهاً أفقه من أبي حنيفة ولا قاضياً خيراً من ابن أبي ليلى[٣].

---

(١) أبو بكر، تاريخ بغداد، ج ١٤، ص ٢٤٧.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٤٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٥.

٤٢ ـ قال جعفر بن يس: كنت عند المزني (الشافعي) فوقف عليه رجل فسأله عن أهل العراق فقال له: ما تقول في أبي حنيفة؟ فقال: سيدهم قال: فأبو يوسف؟ قال: أتبعهم للحديث قال: فمحمد بن الحسن؟ قال: أكثرهم تفريعاً قال: فَزُفَر؟ قال: أحدّهم قياساً(١).

٤٣ ـ ومما نذكره في باب تلاقي العلماء بالإكرام أن العالم الشهير شيخ الشافعية أحمد بن حجر الهيثمي المكي المتوفَّى سنة ٩٧٣هـ أَلَّف كتاباً خاصاً في مناقب أبي حنيفة سمّاه (الخيْرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان) انتدب نفسه لتأليفه رداً على جاهل ينتسب للشافعية كان قد طعن في الإمام أبي حنيفة.

٤٤ ـ فمنه: وقال أبو حنيفة: ما صلّيت صلاة منذ مات حمّاد (بن مسلم، وهو شيخه) إلا استغفرت له مع والدي، ما مددت رجلي نحو داره وإنّ بيني وبينه سبع سكك، وإني لأستغفر لمن تعلّمت منه أو علّمني «ص ٥٩».

٤٥ ـ وقال ابن المبارك: دخل أبو حنيفة على مالك فرفعه، ثم قال بعد خروجه: أتدرون من هذا؟ قالوا لا، قال: هذا النعمان، لو قال هذه الإسطوانة من ذهب لخرجت كما قال: «ص ٣١».

٤٦ ـ وقال النضر بن شميل: كان الناس نياماً عن الفقه حتى أيقظهم أبو حنيفة بما فتقه وبيّنه ولخّصه «ص ٢٣».

٤٧ ـ وقال ابن المبارك: رأيت الحسن بن عمارة آخذاً بركاب أبي حنيفة قائلًا: والله ما رأيت أحداً يتكلم في الفقه أبلغ ولا أصبر ولا أحضر جواباً منك وإنّك لسيّد من تكلم في الفقه في وقتك غير مدافع وما يتكلّمون فيك إلا حسداً «ص ٣٤».

٤٨ ـ وقال شريك القاضي: كان أبو حنيفة طويل الصمت كثير التفكّر دقيق النظر في الفقه لطيف الاستخراج في العلم والعمل والبحث إن كان الطالب

(١) المرجع نفسه، ص ٢٤٦.

فقيراً أعناه، فإذا تعلّم قال له: وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام «ص ٣٥».

٤٩ ـ وقال حمّاد بن يزيد: كنا نأتي عمرو بن دينار فإذا جاء أبو حنيفة أقبل عليه وتركنا نسأل أبا حنيفة: فنسأله فيحدّثنا «ص ٣٥».

٥٠ ـ قال مسعر: كان أبو حنيفة لا يشتري لنفسه وعياله كسوة أو فاكهة أو غيرهما إلا اشترى قبل ذلك لشيوخ العلماء مثل ذلك «ص ٤١».

٥١ ـ وترجم القاضي ابن خلّكان وهو شافعي لحمّاد عجرد، فلما وصل إلى ذكر أبيات ماجنة قالها هذا الشاعر في أحد الأئمة (ذكر اسمه صاحب الأغاني) لم يرض ابن خلكان أن يصرّح باسم الإمام. وهذا من سموّ الأدب في التأليف ورعاية حرمة العالم للعالم بمنار ينبغي أن يسترشد بنوره.

٥٢ ـ وقد سبق ابن حجر العسقلاني الشافعي المتوفي سنة ٨٥٢هـ فألّف رسالة سمّاها: «الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية» في مناقب الإمام الليث بن سعد وهو الإمام الذي لم يدوّن أصحابه عنه فدثر مذهبه على حين أنه كان رافعاً منار مصرفي عهده، يقارع مالكاً بالمدينة في علمه ويقابل أبا حنيفة في العراق بثرائه واستخدامه غناه للعلم وأهله.

٥٣ ـ فمنها: قال عمرو بن خالد: قلت لليث بلغني أنّك أخذت بركاب ابن شهاب الزهري. قال: نعم، للعلم، فأما لغير ذلك فلا، والله ما فعلته بأحد قط.

٥٤ ـ قال أبو صالح كاتب الليث: كنّا على باب مالك بن أنس وجرى ذكر صاحبنا، فسمع مالك كلامنا، فأمر بإدخالنا وقال من صاحبكم؟ قلنا الليث بن سعد، قال تشبّهونني برجل كتبت إليه في قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ إلينا ما صبغنا به ثياب صبياننا وثياب جيراننا وبعنا الفضل بألف[1].

٥٥ ـ لمّا احترقت دار ابن لهيعة وصله الليث بألف دينار (ابن لهيعة المحدّث ولى القضاء بمصر وحجّ مع الليث).

---

(١) المرجع نفسه، ص ٥٩.

٥٦ ـ قال سعيد بن أبي مريم: ما رأيت أحداً من خلق الله أفضل من الليث، وما كانت خصلة يتقرّب بها إلى الله إلّا كانت تلك الخصلة في الليث.

٥٧ ـ وبعد أن ذكر ابن خلّكان ما قيل في إيراد الإمام الليث ابن سعد وأنّه يصرفه في الصلاة قال: كان يتّخذ لأصحابه الفالوذج ويعمل فيه الدنانير ليحصل لمن يأكل كثيراً أكثر من صاحبه.

٥٨ ـ قال منصور بن عمّار: أتيت الليث فأعطاني ألف دينار وقال: صن بها الحكمة التي آتاك الله(١).

٥٩ ـ ويروى أنّ الشافعي رضي الله عنه وقف على قبر الليث وقال: لله درك يا إمام، لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم، العلم والعمل والزهد والورع(٢).

٦٠ ـ كانت أم علي «تقية» العالمة المصرية الفاضلة أبوها الثقة أبو الفرج غيث بن علي، وولدها النحويّ القارىء أبو الحسن علي بن فضل، قد صحبت الحافظ المحدّث أبا طاهر السلفي بثغر الإسكندرية زماناً فذكرها في بعض تعاليقه وأثنى عليها، وعثر هو يوماً في منزله فانجرح أخمسه، فشقّت وليدةٌ في الدار خرقة من خمارها وعصبّته، فأنشدت تقية المذكورة في الحال لنفسها تقول:

لو وجدت السبيل جدت بخدّي ... عوضاً عن خمار تلك الوليدة
كيف لي أن أقبّل اليوم رِجْلاً ... سلكت دهرها الطريق الحميده

وقد كتب الشيخ السلفي هذه الواقعة بخّطه.

ومما يذكر لهذه الفاضلة أنها مدحت الملك المظفر بقصيدة خمرية ووصفت فيها مجلس الشراب وما يتعلق به، فلما قرأها الملك قال للشيخة تعرف هذه الأحوال من زمن صباها؟ فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى حربية ووصفت فيها الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف ثم سيّرتها إليه وهي تقول: علمي بهذا كعلمي بهذا، تقصد براءة ساحتها مما نسبه إليها.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣١.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣.

٦١ ـ حكى من رأى الأصمعي وقد جاء إلى حلقة أبي زيد الأنصاري فقبل رأسه بين يديه، وقال: أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة.

٦٢ ـ وحدثني من رأى الشيخ عبد الرحمن الشربيني الذي ولي مشيخة الأزهر وقد جاء إلى الشيخ الأشمني وهو العالم المشهور فرآه مضطجعاً على جنبه فوضع الشيخ الشربيني حذاءه بعيداً ثم أقبل متخضّعاً حتى جثا ولثم يد الشيخ الأشموني. قال محدّثي: وكان الأشموني ربّما قال له المرّة بعد المرّة (ازيّك يا عبد الرحمن) فيكون الشيخ كأنما حيّته الملائكة.

٦٣ ـ وسمعنا شيوخنا في الأزهر يتداولون هذه القصّة ويلقونها على طلبتهم في الدروس: أن ابن مالك رحمه الله صاحب الألفية في النحو لما وصل إلى قوله في وصفها (فائقة ألفية ابن معطي) نام فرأى ابن معطي، وهو صاحب ألفية أخرى سبق بها ابن مالك، يقول له في المنام تكملة لشطرته: (والحيّ قد يفضل ألف ميْت) قالوا فلما صحا ابن مالك أخذ يثني على ابن معطي ويدعو له. وكمل قوله بما ختم به مقدمة الألفية.

وهو بسبق حائز تفضيلا ... مستوجب ثنائيَ الجميلا
والله يقضي بهبات وافره ... لي وله في درجات الآخره

٦٤ ـ وحدّثني كثير من الفضلاء: أن المرحوم الشيخ حسونة النواوي كان يدرس الفقه بمدرسة الحقوق فاحتدّ يوماً على طالب وقذفه بشيء من أشيائه نفذ من الشباك إلى الفناء، وكان ناظر المدرسة إذ ذاك من أجلاء العلماء الفرنسيين، فحمل المقذوف بيده وصعد فوضعه تحت قدم الشيخ.

٦٥ ـ وحدثني أستاذنا الشيخ عبد المجيد اللبّان؛ أن الشيخ الباجوري شيخ الجامع الأزهر كان يجلس بعد المغرب في صحن المسجد فيقبل الطلبة والعلماء عليه يقبّلون يديه، وكان الشيخ مصطفى المبلّط وهو أكبر منه ناظره في طلب المشيخة ولم ينلها فكان إذا رآهم اندسَّ بينهم وقبّل يد الشيخ، فانتبه الشيخ الباجوري مرّة فعرفه، فأمسك بيده، وبكى، وقال له: حتى أنت يا شيخ مصطفى؟ لا، لا، فقال الشيخ مصطفى نعم، وأنا، لقد خصّك الله بفضل وجب أن نقرّه، وصرت شيخنا فعلينا أن وقّرك.

٦٦ ـ وحدثني: أن الشيخ الأمير والشيخ القويسني كانت بينهما جفوة بلغت الحاكم، وكان الشيخ الأمير عنده يوماً فسأله الحاكم عنها وأخبره أن الشيخ القويسني أنبأه بها، وكان يقصد الوقوف على الحقيقة ليوفّق بينهما، فقال الشيخ الأمير ليس بيننا إلا الخير، وما أظن الشيخ القويسني حدّثك بشيء من هذا، وأثنى على القويسني ومدح، ونزل من عنده فمّر بدار الشيخ القويسني على ما كان بينهما وأنبهى بما دار، فقال الشيخ القويسني، صدقت في ظنك، ما قلت للحاكم شيئاً، فقال الشيخ الأمير هكذا أهل العلم، يسوّون ما بينهم في خاصّتهم، وأما مظهرهم فيجب أن يكون قدوة في التآلف والخير، إمساكاً على عروة الإسلام وحفظاً لكرامة العلم، وزال بهذا ما بينهما.

* * *

٦٧ ـ ونختم الباب درّة التاج في تكارم العلماء. حكي الشعبي قال ركب زيد بن ثابت، فدنا منه عبد الله بن عباس فأخذ بركابه، فقال لا تفعل يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، فقال زيد أرني يدك، فأخذها وقبّلها وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا(١).

أقول: إن العلماء الذين استحقّوا هذا الوصف قد استنّوا بسنّة الصحابة رضوان الله عليهم حتى قال قائلهم: العلم رحم، فوصلوا رحمهم، وتواصوا بها، وجعلوا العلم دم قرابتهم وطنب نسبتهم فصار الإكرام سجيتهم، والدفاع غريزتهم، والتوقير شنشنتهم، وسترى في هذا الكتاب أيّ فضل تقاسمه العلماء من ميراث النبوّة فأوتوا به حظاً عظيماً.

١ ـ في صحيح البخاري من كتاب العلم «باب الاغتباط في العلم والحكمة» وقال عمر: تفقّهوا قبل أن تسودوا. وقد تعلّم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنّهم.

٢ ـ في ترجمة يحيى النحوي بكتاب إخبار العلماء ص ٢٣٤: أنه كان

(١) المرجع نفسه، ص ٣٤.

ملّاحا ينقل الناس في سفينته. وكان يحبّ العلم كثيراً، فإذا عبر معه قوم من دار العلم والدرس التي كانت بجزيرة الإسكندرية يتحاورون فيما مضى من النظر ويتفاوضونه، يسمعه فتهشّ نفسه للعلم، فلما قوي رأيه في طلب العلم فكّر في نفسه وقال قد بلغت نيفاً وأربعين سنة وما ارتضت بشيء ولا عرفت غير صناعة الملاحة فكيف يمكنني أن أتعرض لشيء من العلوم؟ وفيما هو يفكّر إذ رأى نملة قد حملت نواة تمرة وهي دائبة تصعد بها، فوقعت منها فعادت وأخذتها. ولم تزل تجاهد مراراً حتى بلغت بالمجاهدة والمناصبة فبالحرى أن أبلغ غرضي بالمجاهدة فخرج من وقته وباع سفينته ولزم دار العلم وبدأ يتعلم النحو واللغة والمنطق، فبرع في هذه الأمور لأنه أول ما ابتدى بها، فنسب إليها واشتهر بها، ووضع كتباً كثيرة ويحيى هذا لقى عمرو بن العاص وأعجب عمرو به.

٣ ـ ورد في تذكرة الحفّاظ: كان الشافعي من أحذق قريش بالرمي، كان يصيب بشكل دقيق، وكان بارعاً في الشعر واللغة وأيام العرب (يقول ابن خلّكان إن الأصمعي مع جلالة قدره في هذا الشأن قرأ عليه أشعار الهذليين) ثم أقبل على الفقه والحديث وجوّد القرآن على إسماعيل بن قسطنطين مقرىء مكة وكان يختم في رمضان ستين مرة، ثم حفظ الموطأ وعرضه على مالك. ويقول ابن خلّكان عن الحميدي، سمعت الزنجي بن خالد يقول للشافعي: أفت يا أبا عبد الله فقد رن لك أن تفتي، وهو ابن خمس عشرة سنة.

٤ ـ قال شعبة المحدّث: من طلب الحديث أفلس، بعتُ طست أمي بستة دنانير[١].

٥ ـ كان الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام ـ الذي ملأ الأرض علماً وعظمة نفس ـ في أوّل أمره فقيراً جداً ولم يشتغل إلّا على كبر[٢].

٦ ـ كان ابتداء اشتغال القفّال المروزي بالعلم على كبر السن بعدما أفنى

(١) المرجع نفسه، ص ٣٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٥.

صباه في عمل الأقفال. ولذلك قيل له القفال، لأنه كان ماهراً في عملها، ويقال إنّه لما شرع في التفقه كان عمره ثلاثين سنة(١).

وفي كتاب شذرات الذهب: أبو بكر القفّال المروزي عبد الله بن أحمد شيخ الشافعية بخراسان صار إمام الخراسانيين كما كان القفّال الكبير الشاشي شيخ طريقة العراقيين لكن المروزي أكثر ذكراً في كتب الفقه ويذكر مطلقاً وإذا ذكر الكبير قيد بالشاشي، وإنما قيل له القفّال لأنه كان يعمل الأقفال في ابتداء أمره وبرع في صناعتها حتى صنع قفلًا بآلاته ومفتاحه وزن أربع حبات، فلما كان ابن ثلاثين سنة أحسّ من نفسه ذكاء فأقبل على الفقه واشتغل حتى صار إماماً يقتدى به وتفقّه، عليه خلق من أهل خراسان، وسمع الحديث، وحدّث وأملى. قال الفقيه ناصر العمري: لم يكن في زمان أبي بكر القفّال أفقه منه ولا يكون بعده مثله، وله في المذهب آثار ليس لغيره من أهل عصره، وطريقته المهذّبة في مذهب الشافعي التي حملها أصحابه أحسن طريقة وأكثر تحقيقاً. رحل إليه الفقهاء من البلاد وتخرّج به أئمة. توفي في سنة ٤١٧هـ(٢).

٧ ـ وأبو بكر الرازي رئيس الأطباء في أيام المكتفي، كان في أول أمره يضرب على العود ويُغنّي، فلما التحى وجهه قال: كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف، ورغب في الطبّ وقد جاوز الأربعين فمهر فيه وبرع حتى صار رئيس أهل الشأن في ذلك.

٨ ـ قال الإمام أسعد المهيني سمعت الغزالي يقول: قطعت علينا الطريق وأخذ العيّارون جميع ما معي ومضوا فتبعتهم فالتفت إليّ مقدمّهم وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت، فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلام منه أن ترد عليّ تعليقتي فقط فما هي بشيء تنتفعون به، فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت:

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤١.

(٢) كان الليث واسع الغنى، كانت له قرة الفرما وإقطاع الجيزة، وإيراده يصل أربعين ألف جنيه في العام، قال قتيبة بن سعيد: قفلنا مع الليث من الاسكندرية ومعه ثلاث سفائن، سفينة فيها مطبخه وسفينة فيها عياله وسفينة فيها أضيافه ا هـ. من ترجمته ومن الخطط التوفيقية.

كتبٌ في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها، فضحك وقال: كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجرّدت من معرفتها وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه فسلّم إليّ المخلاة قال الغزالي: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع عليّ الطريق لم أتجرّد من علمي[1].

٩ ـ وروى: أنه اجتمع في الديار المصرية محمد بن نصر، ومحمد بن جرير، ومحمد بن المنذر، فجلسوا في بيت يكتبون الحديث ولم يكن عندهم في ذلك اليوم شيء يقتاتونه، فاقترعوا فيما بينهم من يسعى لهم في شيء يأكلونه ليدفعوا عنهم ضرورتهم. فجاءت القرعة على أحدهم فنهض إلى الصلاة، وجعل يصلّي ويدعو الله، وذلك وقت القيلولة، فرأى نائب مصر وهو نائم وقت القيلولة رسول الله ﷺ يقول له: أنت نائم ههنا والمحمّدون ليس عندهم شيء يقتاتونه! فانتبه الأمير من منامه، فسأل من ههنا من المحمّدين؟ فذكر له هؤلاء الثلاثة، فأرسل إليهم في الساعة بألف دينار.

١٠ ـ ويشبه هذا ما حكاه ابن كثير أيضاً في ترجمة الحسن بن سفيان محدّث خراسان قال: من غريب ما تفّق له أنه كان هو وجماعة من أصحابه بمصر في رحلتهم للحديث، منهم محمد بن خزيمة، ومحمد بن جرير، ومحمد بن هارون الروياني فضاق عليهم الحال حتى مكثوا ثلاثة أيام لا يأكلون شيئاً، واضطرهم الحال إلى السؤال، فأنفقت نفوسهم من ذلك، ثم ألجأتهم الضرورة إلى تعاطيه، فاقترعوا فيما بينهم فوقعت القرعة على الحسن بن سفيان، فقام مختلياً في زاوية المسجد وصلّى ركعتين أطال فيهما واستغاث بالله فوقعت لهم قصّة شبيهة بسابقتها مع أحمد بن طولون، حتى بعث لهم بالنفقة في الحال، وجاء لزيارتهم، واشترى ما حول مسجدهم ووقفه على الواردين. كما ورد في كتاب «حسن المحاضرة» للسيوطي.

---

(١) وفيات الأعيان، ص ٥٥٤.

١١ ـ وقد عقد السيوطي في كتابه: «حسن المحاضرة» فصلًا للحديث الذي رحل فيه جابر بنت عبد الله إلى مصر[١] فذكر عنه: أنه بلغه عن عبد الله بن أنيس الجهني الأنصاري المصري أن عنده حديثاً في القصاص عن رسول الله ﷺ، قال جابر: فخرجت إلى السوق فاشتريت بعيراً، ثم شددت عليه رحلًا، ثم سرت إليه «من المدينة» شهراً، فلمّا قدمت مصر، سألت عنه، حتى وقفت على يابه. فسلّمت، فخرج عليّ غلام أسود، فقال: من أنت؟ قلت: جابر بن عبد الله، فدخل عليه فذكر ذلك، فقال قل له: أصاحب رسول الله ﷺ؟ فخرج الغلام فقال ذلك، فقلت: نعم، فخرج إليّ والتزمني والتزمته، فقال ما جاء بك يا أخي؟ قلت: حديث تحدّث به عن رسول الله غيرك، أردت أن أسمعه منك، قبل أن تموت أو أموت إلخ. ويطول بنا الحديث لو ذكرنا ما تحمّله علماء السلف من المشاقّ في طلب العلم، وتطويفهم في الآفاق لبلغته، حتى ذكروا عن السمعاني مثلًا أن عدّة شيوخه تزيد عن أربعة آلاف شيخ، وقبله ذكروا مثل هذا العدد لشيوخ أبي حنيفة، ولشيوخ ابن المبارك، وغيرهم كثيراً جداً خصوصاً المحدّثين منهم، فقد أفنوا الأعمار في الأسفار وطلب الرواية، ويندر أن تخلو ترجمة محدّث عن الرسل والنقل وما تكبدوه ولاقوه من جمع الحديث ونقد وتتبّع رجاله واستيعاب أسانيده. رحم الله الجميع.

١٢ ـ قيل إن واضع جدول اللوغاريثم مكث ثلاث سنين يشتغل فيه. فلمّا أتمه بيّضه ومزّق مسوداته، وخرج بعد الفراغ، يستنشق الهواء فرحاً مسروراً، وعاد بعد فسحته فرأى كلبه قد قفز على المكتب فكبّ الحبر من الدواة على المبيّضة فذهب بها والكلب واقف يلهو ويلعب، فلم يسع المؤلّف إلا أن نظر إليه طويلًا وقال: آه لو تعلم ما صنعت! وعاد فبدأ العمل من جديد.

١٣ ـ حدثني أبي رحمه الله قال: أدركت الأزهر وهو يُوقد بالسرج لا يضيء إلا ليرى الشخصُ الشخصَ، فكان المجاورون يشترك الجمع منهم في فتيلة يطالعون عليها فتراهم وضعوها على الأرض وتراصّوا حولها وقد تمدّدوا

---

(١) الخطط التوفيقية، ج ١٤، ص ١٠٩.

على جنوبهم فلا يحيط بها إلا رؤوسهم، وكثيراً ما حدّثني رحمه الله عن أهوال ومشاق كان يلقاها طلبة العلم في تلك الأزمان.

١٤ ـ وحدثني صديقنا الشيخ محمود زناتي وهو من تلاميذ المرحوم سيد بن علي المرصفي العالم اللغوي المشهور قال: كان الشيخ دائم الدأب والصبر على العلم، دخلنا عليه يوماً، وقد سكن داراً بالية في حيّ قديم فرأيناه قد جلس في غرفةٍ، فرش حصيراً وسطها وقعد يكتب ويطالع، ومن حوله خيط من عسل القصب مرشوش على البلاط يحيط به، فسألناه عنه، فقال هذا خندقي من هجوم البق.

شغفهم بالعلم وأداء الواجب

١ ـ عقد البخاري في صحيحه من كتاب العلم «باب التناوب في العلم» عن عمر قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أميّة بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك.

٢ ـ ومنه «باب حفظ العلم» عن أبي هريرة قال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثّت حديثاً، ثم يتلو «إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينّات والهدى ـ إلى قوله: الرحيم» إنّ إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وأن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ يشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون.

٣ ـ ومنه: عن أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله، إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه قال: ابسط رداءك، فبسطته، فغرف بيديه، ثم قال ضمّه، فضممته، فما نسيت شيئاً بعده.

٤ ـ ومنه: «باب الحرص على الحديث» عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: لقد

ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أوّل منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه.

٥ ـ ومنه: عن أبي سعيد الخدري قال: قالت النساء للنبيّ ﷺ: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهنّ يوما لقيهنّ فيه فوعظهنّ، وأمرهنّ، وفي رواية لابن عباس: أنه ﷺ خرج ومعه بلال، فظنّ أنه لم يسمع النساء، فوعظهنّ وأمرهنّ بالصدقة. فكانت المرأة تلقى القرط والخاتم، وبلال يأخذ في طرف ثوبه.

٦ ـ ومنه: عن عائشة رضي الله عنها: نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يمنعهنّ الحياء أن يتفقّهن في الدين[1].

٧ ـ قال زيد بن عمير: لما حضر معاذَ بن جبل الموت، قيل يا أبا عبد الرحمن أوصنا، قال: أجلسوني، إن العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما، يقول ذلك ثلاث مرات التمس العلم عند أربعة، عند عويمر أبي الدرداء، وعند سلمان الفارسي، وعند عبد الله بن مسعود، وعند عبد الله بن سلّام.

٨ ـ وقال مالك بن يخامر: لما حضرت معاذَ الوفاة بكيت، فقال: ما يبكيك؟ قلت: والله ما أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك، فقال: إن العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما، اطلب العلم عند أربعة، ثم ذكر هؤلاء[2].

٩ ـ وعن عمرو بن ميمون الأودي أنه لقي معاذ بن جبل وصحبه وأخذ عنه فلما حضر الموت معاذاً أوصى عمراً أن يلحق ابن مسعود فيصحبه ويطلب العلم عنده ففعل ـ فشغف معاذ بالعلم لزمه حتى الموت، ولم يذكر في حشرجته إلا العلم لمّا طلبوا إليه أن يوصي، ولم ينس تلميذه أن يلحقه بمن يراه

(١) غرر الخصائص الواضحة، ص ٣٧.
(٢) تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ١٨٢.

أهلًا للعلم حتى لا يضيع، وكفكف رخر عن البكاء يطمئنه على أن العلم والإيمان مكانهما إن هو ابتغاهما وجدهما لا يفقدان بموته وإنما يذهبان بذهاب الرغبة والطلب، وهذا مثال في حبّ العلم كريم يليق بسيّدنا معاذ «رديف» رسول الله ﷺ.

١٠ ـ قال المزني: قيل للشافعي كيف شهوتك للعلم؟ قال: أسمع بالحرف ما لم أسمعه فتودّ أعضائي أنّ لها أسماعاً تتنعّم به مثل ما تنعّمت به الآذان، فقيل له: فكيف حرصك عليه؟ قال حرص الجموع المنوع في بلوغ لذّته للمال، قيل له: فكيف طلبك له؟ قال طلب المرأة المضلّة ولدها ليس لها غيره.

١١ ـ قال الربيع: سمعت الشافعي وهو مريض وذكر ما جمع من الكتب فقال: وددت لو أنّ الخلق تعلّموه ولا ينسب إليّ منه شيء.

١٢ ـ وقال حرملة: سمعت الشافعي يقول: وددت أنّ كلّ علم أعلمه يعلمه الناس، أؤجر عليه ولا يحمدونني.

١٣ ـ قال الربيع: لما قدم الشافعي مصر كان يجالسه أرباب الحلق عبد الله بن الحكم ونظراؤه، وكان حسن الوجه والخلق فحبّب إلى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان، وكان يجلس في حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن فيسألونه، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره، فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة، فإذا ارتفع النهار تفرّقوا وجاء أهل العربيّة والعروض والشعر والنحو حتى يقرب انتصاف النهار ثم ينصرف إلى منزله[١].

١٤ ـ قال علي بن الحسن بن شقيق: قمت مع ابن المبارك ليلة باردة ليخرج من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث، وذاكرته، فما ذال يذاكرني حتى جاء المؤذّن فأذّن للفجر[٢].

(١) طبقات الشافعية، ج ٥، ص ٨٢.
(٢) وفيات الأعيان، ص ٣١٦.

١٥ ـ وبقي ابن جرير الطبري أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة، ووزّعوا ما كتبه على أيام عمره منذ احتلم إلى أن مات فخصّ اليوم أربع عشرة ورقة.

١٦ ـ قال ابن جرير لأصحابه: هل تنشطون إلى أخبار العالَم؟ قالوا: كم يجيء؟ قال ثلاثين ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فقال: إنّا لله ماتت الهمم؟ فأملاه ثلاثة آلاف ورقة، وكذلك قالوا وقال لهم في كتابة تفسيره للقرآن. وهما كتاباه في التاريخ والتفسير اللذان يكرّ الملوان ولا يبليان جدّة وغزارة في العلم والفائدة والدلالة على مبلغ خدمة هذا العالِم للعلم وما أنتج شغفه به لأبنائه على مَرّ الزمان[1].

١٧ ـ وممن شغف بالعلم حباً وتيّمه جمع الكتب والتأليف جمال الدين بن القفطيّ صاحب كتاب «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» الذي جمع فيه (٤١٤) ترجمة لعلماء اليونان والعرب، وقد خصص السنيور (كرلونلينو) الأستاذ بجامعتي مصر وبلرم محاضرتين له من محاضراته في علم الفلك التي ألقاها بالجامعة المصرية سنة ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ وجمعت في كتاب طبع بروما سنة ١٩١١ قال فيها بعد أن ذكر أصله وتاريخه، إنّه استوطن حلب مدّة اجتمع فيها بالعلماء الواردين والمقيمين وأفاد بمحاضرتهم إلى أن ألزمه صاحبها الخدمة في الديوان فتولاه كارهاً لما فيها من المقاساة وشغله عن مطالعة الكتب والتأليف، ولذلك استعفى منها لما مات الملك الظاهر غياث الذي ولّاه، ولكن خلفه عاد فأعاده إليها بعد ثلاث سنين. فمكث ١٢ سنة في الديوان، قال أخوه محيي الدين «ثمّ انقطع في داره مستريحاً من معاناة الديوان، مجتمع الخاطر على شأنه من المطالعة والفكر وتأليف الكتب، منقبضاً عن الناس، محباً للتفرّد والخلوة، لا يكاد يظهر لمخلوق حتى قلّده الملك العزيز وزارته سنة ٦٣٣هـ.

قال السنيور كرلونلينو: كان جمال الدين بن القفطيّ من أشد الناس شغفاً بالكتب، وجمع ما لا يحصر منها من كل النواحي والآفاق حتى صارت قيمتها

---

(١) شذرات الذهب، ج ٣، ص ٢٠٧.

خمسين ألف دينار، (أي نحو حمسة وعشرين ألف جنيه مصرية)، وكان لا يحبّ من الدنيا سواها، ولم يكن له دار ملكه ولا زوجة، ولما مات أوصى بكتبه للملك الناصر صاحب حلب، وممّا يحكى في غرامه بالكتب أنّه قد اقتنى نسخة جميلة من كتاب الأنساب للسمعاني (المتوفي سنة ٥٦٢هـ ـ ١١٦٧م) حررّت بيد المؤلف، إلا أنّ فيها نقصاً، وبعد الاطّلاع المديد والافتقاد الطويل حصل على الناقص إلّا على أوراق بلغه أن قلانسيا قد استعملها في شغله وجعلها قوالب للقلانس فضاعت، فتأسف غاية التأسُّف على هذا الضياع حتى كاد يمرض، وامتنع أيّاماً عن خدمة الأمير في قصره فصارت عدّة من الأفاضل والأعيان يزورونه تعزية له كأنه قد مات أحد أقاربه المحبوبين، وممّا يدل على اهتمامه بلّم الأخبار المفيدة من أيِّ جهة كانت وعلى وفرة ما اطّلع عليه من الكتب أنّه صنّف كتاباً سمّاه «نهزة الخاطر ونزهة الناظر في أحاسن ما نقل من ظهور الكتب (والدفاتر) فلا ريب أنّ فحواه كانت على منوال هذه الفائدة الواردة في كتابه المشهور تاريخ الحكماء وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب (الإمتاع والمؤانسة تأليف أبي حيّان) بخط أهل جزيرة صقلية وهو «ابتدأ أبو حيّان كتابه صوفيًا وتوسطه محدّثاً وختمه سائلًا ملحفاً».

ولجمال الدين مصنّفات متعدّدة نعرف أسماء عشرين منها.

١٨ ـ وفي ص ٨٤ من كتاب أخبار العلماء لابن القفطي أن ثابت ابن قُرة اجتاز يوماً ماضياً إلى دار الخليفة فسمع صياحاً وعويلًا فقال: مات القصّاب الذي كان في هذا الدُكان؟ فقالوا: إي والله يا سيدنا البارحة فجأة فقال: ما مات خذوا بنا إليه. فعدل الناس وحملوه إلى دار القصّاب. فتقدّم إلى النساء بالإمساك عن اللطم والصياح وأمرهَنّ بأن يعملن مزورة وأومأ إلى بعض غلمانه بأن يضرب القصّاب على كعبه بالعصا وجعل يده في محسّه، وما زال ذلك يضرب كعبه إلى أن قال حسبك، واستدعى قدحاً وأخرج من شكة في كمه دواء فدلفه في القدح بقليل من ماء وفتح فم القصّاب وسقاه إيّاه فأساغه، ووقعت الصيحة والزعقة في الدار والشارع بأنّ الطبيب قد أحيى الميت فتقدّم ثابت بغلق الباب وفتح القصاب عينه وأطعمه مزورة وأجلسه وقعد عنده ساعة فإذا بأصحاب

الخليفة قد جاءوه يدعونه فخرج معهم والدنيا قد انقلبت والعامّة حوله يتعادون إلى أن دخل دار الخلافة، ولما مثل بين يدي الخليفة قال له: يا ثابت ما هذه المسيحية التي بلغتنا عنك؟ قال: يا مولاي كنت أجتاز على هذا القصّاب وألحظه يشرح الكبد ويطرح عليها الملح ويأكلها فكنت أستقذر فعله أولًا ثم قدّرت أن سكتة ستلحقه فصرت أراعيه، وإذ علمت عاقبته انصرفت وركبت للسّكتة دواء أستصحبه معي في كل يوم، فلما اجتزت وسمعت الصياح قلت مات القصّاب؟ قالوا نعم مات فجأة البارحة. فعلمت أن السكتة قد لحقته، فدخلت إليه ولم أجد له نبضاً، فضربت كعبه إلى أن عادت حركة نبضه وسقيته الدواء ففتح عينيه وأطعمته مزورة والليلة يأكل رغيفاً بدراج وفي غد يخرج من بيته. وهذا منتهى ما يصل إليه الغرام بالعلم والتلذُّذ بأداء واجبه لأنّه واجب تلبس نفس هذا الطبيب الحكيم الذي نضربه مثلًا لحقيقة العالم، العالِم على الحقيقة، وفيها لا ينظر إلّا لوجهها العفّ الكريم.

١٩ ـ وأبناء هذا العصر يذكرون المرحوم علي مبارك باشا وشغفه بالعلم وحبه لأهله واشتغاله بالتأليف والترجمة وطبع الكتب ويعدّونه بذلك في السابقين، وحدثني غير واحد ممّن شهده أنه كان يجلس في داره للعلم والعلماء والمتعلمين جلسة أشبه بجلسة المعلم في مدرسته. الحضور صفوف وهو على منّصته يتداولون المسائل وكل حرّ فيما يقول، قالوا ولم ينقطع عن هذه العادة سواء أيام عطله ووزارته وبابه يكون من غير بّواب.

٢٠ ـ وأدركت المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ورأيناه في خدمة العلم وأهله والعمل على نفع الأزهر ورجاله وفتح المدارس ونشرها، وكان شغوفاً بالعم متيّما بحبه مقرباً لذوي الفطنة معظماً لمبرّزين من العلماء مقدّراً لحقوقهم. قيل لي إنّ الشيخ الشنقيطي العالم اللغوي المشهور كان لا يباليه في خطابه والشيخ يلين له ويخضع، ولمّا ألّف الشيخ رسالته في التوحيد عرضها على الشنقيطي وامتثل لتصحيحه.

٢١ ـ والشيخ الشنقيطي هذا جبل من العلم في اللغة والحديث وأظهر الأمثال في العصر الأخير على عزّة العلم و عظمة العلماء. رحل من المغرب

إلى اسطمنبول وأوفده السلطان عبد الحميد إلى استكلهم ولقي الملك أوسكار. وكان معه طاهٍ مسلم ومؤذن يقيم الصلاة ثم وفد إلى مصر فاحتل منها الذروة والسنام ووطّأ له علمه وعزّة نفسه أعلى مقام بين العلماء الأعلام.

٢٢ ـ وكان المرحوم أحمد زكي باشا العالم المشهور من الصبر على طلب العلم والدأب فيه في المنزلة التي لا تدرك، عرفته في مشيبه وداره بالجيزة قريباً منّي فرأيته يقوم ويقعد بالعلم، ويروح ويغدو في البحث والتنقيب. وما رأيته حتى ظننته تلميذ مدرسة في جدّة واشتغاله، وكان رحمه الله أكرم من عرفت من العلماء بعلمه وبزاده، ترده أسئلة من الأقطار عن وقائع التاريخ وحوادث وأدب وأسماء البلاد، فيعكف على الدرس والبحث وربما سافر وانتقل لمشاهدة ما يُسأل عنه وبحثه حتى يجيب سائله. مررت به يوماً وكنت أحتاج صورة أضعها في كتابي (رسائل سائر) فقام من المائدة وقال عندي طلبك ولكن تدفع الثمن، قلت: وجب فما هو؟ قال: تتغذّى معي، قلت: إذن يا أكثر ما نشتري منك وندفع هذا الثمن، وقد ترك مكتبة نادرة وقفها على الطلبة، وتسلّمتها وزارة الأوقاف وهي التي تسمى «بالخزانة الزكية».

٢٣ ـ والمرحوم أحمد تيمور باشا كان مثلًا في طلب العلم وجمع الكتب والعكوف على الدرس وبحث ما غمض في التاريخ والكشف عنه وله مكتبة لا نظير لها حملها أولاده بعد موته إلى دار كتب الحكومة فأفردت لها جناحاً مستقلًا. وقد ترجم له أخونا الثبت الأستاذ محبُّ الدين أفندي الخطيب ترجمة حافلة تبين عن علمه وعن شغفه بالعلم وخدمته إياه نشرتها مجلته الزهراء في شهر وفاته.

٢٤ ـ كانت أروقة الأزهر مكسوّة الجدران بخزائن الخشب وعل جدر صحنه كذلك، فكان للمجاور أو للمجاورين والثلاثة خزانة يضع فيها أشياءه، ورأينا كثيراً من الطلّاب يعكفون في الجامع مستغنين بخزائنهم، وقد حوت كتبهم وثيابهم، وفرغوا للعلم وأداء المكتوبة فلا يخرجون منه إلّا يوم الخميس ظهراً يقصدون النهر والرياض، فمنهم من يغسل ثيابه بيده، ومنهم من ينزه في

الرّوض نظره، حتى إذا غربت الشمس عادوا وقد ملئوا نشاطاً ونظافة. فيعكفون في الأزهر إلى نهاية الأسبوع.

وكنت ورفاقي وجمهرة الطلبة في ذلك الوقت لا نفتر عن الاشتغال بالعلم من مطلع الفجر إلى الهزيع الأول من الليل، بعد الفجر درس، وبعد الشمس درس، وبعد الظهر درس، وبعد العصر درس، وبعد المغرب درس، وربما بعد العشاء درس، وفيما بين هذه الأوقات لا عمل لنا إلا المطالعة والتهيؤ للدرس.

ومن يدخل الأزهر بعد صلاة العشاء يرى جموعه حاشدة كأنما زرع طلبة متلاصقين، فمنهم المذاكر وحده والمشارك غيره، والعجب ألّا يحسّ أحدهم صوت جاره لاشتغال كلّ بنفسه، وكثيراً ما تأملت في هذا العجيج الصاعد من أصوات هذه الجموع وأنا أسبّح الله القادر على أن يميّز سمعه كلّ صوت.

وكان باعة الشراب يمرّون علينا وقد نشفت حلوقنا وعلى ظهورهم القرب مليئة بشراب العرقسوس أو الخرنوب فتروج سوقهم، ومنهم بائع كان قد حضر في صغره فهو يملأ كوبه للطالب ويحدّثه على الشرب بقول ينسبه للإمام الشّافعي: «عجبت من بلدة بها داء وفيها العرقسوس». إنّي لا أزال أذكره، وكان المجاورون يساكنون طلبة المدارس في ذلك الزمن، فكان الفريقان فرسان رهان في شغفهم بالعلم واجتهادهم في التحصيل.

وتخرج الجيل في تلك المعاهد بخير النتيجة، ملك العلم عليهم ألبابهم فبقيت دور ومنازل وأحياء بالقاهرة لا أعرفها إلى اليوم ولم تطأها قدمي، وصرف أمثالي هممهم للطلب فعنوا بالمطلوب فاستغرق قواهم واستولى على تفكيرهم فحظُهم كان من المطعم والمسكن والكسوة حظّ الحاجة والكفاف مع القصد والنظافة، وانصرفوا عن القشور قانعين باللبّ لا يعرفون أبواب الترف والتبذّل، وسبيلهم إلى العلم لا سبيل لهم غيره فجهلوا في أيّامنا تصفيف الشعر وحكّ الوجه وحبك الثوب وغشيان السينما والمقهى والملهى وما هو لغير طلبة العلم وأبناء الدرس مما لو عرفه الطالب لعاقه عن المطلوب، ويكاد يكون اليوم أقوى سبب من أسباب الرّسوب، وقد حدّثني أخونا الفاضل الشيخ محمد

الجدّاوي نائب محكمة المنصورة الشرعيّة قال: مررتُ على الحلّاق وأنا مجاور فأدار الموس على جوانب شعري ممّا يلي الوجه وتلك عملية كانت تعرف «بالعباسيّة» لا أعرفها وإنما صنعها الحلّاق من تلقاء نفسه فضلًا في عمله، فلمّا جلست في الحلقة سألت الشيخ فالتفت مجيباً فرأى هذه الحلاقة، فما كان منه إلّا أن ألقى الكرّاسة من يده وترك جوابي واحتدّ وأخذ يقول لي: أترانا يا ولدي نفلح؟ لقد حلقنا عباسية؟ لقد التفتنا إلى الهلس وتعلقنا بأسباب الخيبة قال: فدهشت وقلت يا سيدي الشيخ ماذا جرى؟ فكأنني زدته غضباً إلى أن فسرّ لي السبب فرجعت إلى الحلاق وأفرغتُ له ما سمعته، ولم أعد إلى الدرس ثانية إلا بعد أن أدار الموسى على شعري خطأً واحداً، قال الشيخ الجدّاوي: ومن ذلك الدرس لم أعرف حلاقة «العباسيّة» إلى اليوم ومثل هذا التأثر بالشيخ واستماع نصحه والنزول على رأيه كان يملأ قلوب طلبة العلم فالمعلّم عندهم ملء السمع والبصر، الظنّ فيه خير، والرأي فيه حسن، وإكرامه وإكباره مستبَق الطلّاب وحيلة أولى الألباب، كنّا إذا انقضى الدرس تكوّف الطلبة على الشيخ وانكبّوا على يده يقبلونها فرداً فرداً لا ينصرف أحدهم حتى يؤدّي هذا الواجب كأنه ناسك لا يتمُّ التعلّم إلا به، فإن نزلت بطالب مساءة من معلّم تحمّلها صابراً، وشكر له عنايته به وعرف أنه إنما يصنع الجميل له، وسلواه مَثَل التربية الحكيم الناطق على ألسنة أهل (عصا الفقيه من الجنّة). فبقيت روح العلم بهذا الأدب وهذا الشعف في حبّها تغذّي الحياة بين المعلّم والمتعلّم وتمدّها بأسباب العناية في ا لمعلّم وأسباب الاستزادة في المتعلّم، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب محبّي النفع والراغبين في إصلاح النشء والتسامي بمستوى الاجتماع.

وقد أوجد شغف العلماء بالعلم طبقة منهم، لذّتها العلم وفناؤه في العلم واعجابها بالعلم، والعلم عندهم ما تعلّموه، فكانوا في القبلة القديمة بالأزهر كسدّنة المعبد، حظّهم رعاية ما علموا، وأن يعمل الناس به وينزلوا عليه. فكانت الأمّة كلمّا انزلقت إلى جديد وأخذت في بدع سمعت من هؤلاء العلماء أصوات الإنكار وأحكام التكفير، ودوّى صوتهم في أرجاء القطر يهزّه ويكاد

يعصف بالجديد ابقاء على القديم واعتصاماً بعروته والتمسك به، وكان هؤلاء العلماء فيما يسميّه المتطرّفون «بالجمود» أشبه برمّانة الميزان، توازن على صغر حجمها ما يحمل عليه من القناطير، والناس في تفلّتهم من القيود وانحدارهم إلى مهاوي الإباحة أحوج في صلاحهم ونفع المجتمع بهم إلى هؤلاء الذين يسمّونهم ظلماً بالجامدين وهم في شرعة الانصاف وحكم العدل الحافظون الممسكون بالمجتمع أن يميد، وإنّه لخير للمجتمع أن يكون به علماء يقال فيهم «جامدون» من أن يفقد العلماء قاطبة أو يصاب بالفجرة منهم، خلّ إنكارهم المدوّي واعتراضهم العجّاج يصل إلى آذان المغترّين المفتونين لوماً أو عتاباً، فإنه واقٍ أو واعظ أو لافت أو منبّه إلى انحدارهم وتهاونهم، فهم أن أشاحوا عنه ففي أنفسهم قارع به ومذكّر ربما عاد بها وعصم، فأمّا إذا عدم إلا (النذير العريان) وجذب الهوى وأغرى التقليد الأعمى، فإنّ التردّي كثير والمتردين هووا حيث لا مقيل لعثارهم ولا وازع لهم، ويوشك المجتمع أن يهوى وهو على شفا جرف منهار والأمر لله الواحد القهّار.

تضحية العلماء في سبيل العلم:

١ ـ كان ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات (صاحب جامع الأصول والنهاية في غريب الحديث) من أكابر الرؤساء محظيّا عند الملوك وتولّى المناصب الجليلة، فعرض له مرض كفّ يديه ورجليه فانقطع في منزله وترك المناصب والاختلاط بالناس، وكان الرؤساء يغشونه في منزله، فحضر إليه بعض الأطبّاء لعلاجه، فلما طبّبه وقارب البرء وأشرف على الشفاء، دفع للطبيب شيئاً من الذهب وقال: امض لسبيلك، فلامه أصحابه على ذلك وقالوا: هلّا أبقيته إلى حصول الشفاء؟ فقال لهم: إنّني متى عوفيت طلبت للمناصب ودخلت فيها وكلّفت قبولها أما ما دمت على هذه الحالة فإنّي لا أصلح لذلك فأصرف أوقاتي في تكميل نفسي ومطالعة كتب العلم، ولا أدخل معهم فيما يغضب الله ويرضيهم، والرزق لا بدّ منه، فاختار رحمه الله تعالى، إعاقة جسده على العطلة

عن المناصب، وفي تلك المدة ألّف كتاب جامع الأصول والنهاية وغيرهما من الكتب المفيدة والله أعلم[١].

٢ ـ وقد ترك السيوطيّ جميع مناصبه، وكانت له مشيخة مواضع متعدّدة بالقاهرة، وانقطع في داره بالروضة إلى العلم يكتب ويؤلّف (ورأيت في كتابه حسن المحاضرة أنه يسمّيها دار الأملاء) وكان السيوطيّ يلّقب (ابن الكتب) طلب أبوه إلى أمه أن تأتيه بكتاب من المكتبة فأجاها المخاض فيها فولدته بين الكتب فلذلك لقب ولقد صدق عليه ذلك اللقب حتى صار أبا الكتب، فقد وصلت مصنفاته نحو ستمائة غير ما رجع عنه ومحاه.

٣ ـ وقد ألّف ابن الدهان النحوي البغدادي كتباً جمّة في اللغة والنحو منها الشرح الإيضاح والتكملة ٤٣ مجلداً وغيره كثير ـ لما انتقل ابن الدهان إلى الموصل ترك كتبه ببغداد، فاستولى الغرق تلك السنة على البلد، فسيّر الشيخ من يحضرها إليه إن كانت سالمة فوجدها قد غرقت، وكان خلف داره مدبغة فغرقت أيضاً وفاض الماء منها إلى داره فأتلفت الكتب، وكان قد أفنى في تحصيلها عمره، فلما حملت إليه على تلك الصورة أشاروا عليه أن يطيّبها بالبخور ويصلح منها ما يمكن، فبخّرها باللّاذن، ولازم ذلك إلى أن بخّرها بأكثر من ثلاثين رطلّا لاذناً، فطلع ذلك إلى رأسه وعينه فأحدث له العمى وكفّ بصره. واشتغل أهل تلك الديار بهذه الكتب[٢].

٤ ـ قال في تذكرة الحفّاظ: كان الشافعي مع فرط ذكائه وسيلان ذهنه يستعمل اللبان ليقوى حفظه فأعقبه رمى الدم سنة[٣].

٥ ـ قال الربيع: أقام الشافعي ههنا (مصر) أربع سنين فأملى ألفاً وخمسين

---

(١) طبقات الشافعية، ج ٣، ص ١٠٢.

(٢) ورد في صحيح البخاري من كتاب العلم «باب الخروج في طلب العلم»: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد. ا هـ.

(٣) وبهذه المناسبة نذكر أن مسلماً الفراهيدي المحدث كتب عن سبعين امرأة ـ خلاصة تذهيب الكمال.

ورقة»، وخرّج كتاب الأم ألفي ورقة، وكتاب السنن وغيرها في مدة أربع سنين، وكان عليلًا شديد العلّة وربّما خرج الدم وهو راكب حتى يملأ سراويله وخفه، يعني من البواسير ـ وقد استفحل مع المرض حتى مات رحمه الله.

٦ ـ وفي ترجمة الجاحظ أنه أصيب بالفالج وظلّ به ثماني سنين لم ينقطع فيها عن العلم والتأليف حتى سقطت عليه كتبه فقضت عليه.

صراحة العلماء:

١ ـ خطب عمر بالناس بالجابية فقال: من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل. ومن أراد المال فليأتني.

٢ ـ قيل لمسروق: كانت عائشة تحسن الفرائض. قال والله لقد رأيت الأحبار من أصحاب محمد ﷺ يسألونها عن الفرائض.

٣ ـ قال أبو موسى: ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً.

٤ ـ قال عروة بن الزبير: ما جالست أحداً قطّ كان أعلم بقضاء ولا بحديث بالجاهليّة ولا أروى للشعر ولا أعرف بفريضة ولا طبّ من عائشة.

٥ ـ قيل لطاوس: أدركتَ أصحاب محمد ﷺ ثم انقطعت إلى ابن عباس. فقال: أدركت سبعين من أصحاب محمد ﷺ إذا تدارءوا في شيء انتهوا إلى قول ابن عباس.

٦ ـ عن الأعمش عن إبراهيم قال: أنه كان لا يعدل بقول عمر وعبد الله إذا اجتمعا، فإذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب إليه لأنّه كان ألطف.

٧ ـ كان ميمون بن مهران يقول: إذا ذكر ابن عباس وابن عمر عنده يقول: ابن عمر أورعهما، وابن عباس أعلمهما، وقال أيضاً: ما رأيت أفقه من ابن عمر ولا أعلم من ابن عباس.

٨ ـ وفي الصحيحين من حديث عروة بن الزبير. قال: قالت عائشة يا ابن أختي بلغني أن عبد الله بن عمرو مارٌّ بنا إلى الحج فالقه فاسأله فإنه قد حمل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علماً كثيراً، قال فلقيته فسألته عن أشياء يذكرها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال عروة فكان فيما ذكر أن النبي ﷺ قال: «**إنّ الله لا ينزع العلم انتزاعاً، ولكن يقبض العلماء فيرفع العلم معهم، ويبقى في الناس رؤوس جهّال يفتونهم بغير علم فيضلّون ويُضلّون**»، قال عروة: فلمّا حدّثت عائشة بذلك أعظمت ذلك وأنكرته، قالت أحدّثك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول هذا؟ قال عروة نعم، حتى إذا كان عام قابل، قالت لي: إن ابن عمرو قد قدم فالقه، ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذي ذكره لك في العلم، قال فلقيته، فذكره لي نحو ما حدّثني به في المرة الأولى، قال عروة فلمّا أخبرتها بذلك، قالت ما أحسبه إلا قد صدق، أراه لم يزد فيه شيئاً ولم ينقص، وقال البخاري في بعض طرقه: فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون، وقال فقالت عائشة: والله لقد حفظ عبد الله[1].

٩ ـ عن مجاهد قال: كنّا نحن أصحابَ ابن عبّاس حلقة في المسجد، طاوس وسعيد بن جبير وعكرمة، وابن عباس قائم يصلي، إذ وقف علينا رجل فقال هل من مفتٍ؟ فقلنا سلْ، فقال: إني كلما بلْتِ تبعة الماء الدافق، قلنا الذي يكون منه الولد؟ قال نعم قلنا عليك الغسل. قال فولّى الرجل وهو يرجّع، قال: وعجّل ابن عباس في صلاته ثم قال لعكرمة عليّ بالرجل، وأقبل علينا فقال أرأيتم ما أفتيتم به هذا الرجل عن كتاب الله؟ قلنا لا: قال فعن رسول الله ﷺ؟ قلنا لا، قال فعن أصحاب رسول الله ﷺ؟ قلنا لا، قال فعمه؟ قلنا عن رأينا، قال فلذلك قال رسول الله ﷺ: «**فَقِيه وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيطان مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ**» قال وجاء الرجل فأقبل عليه ابن عباس فقال، أرأيت إذا كان ذلك منك أتجد شهوة في قبلك؟ قال لا، قال فهل تجد خدراً في جسدك؟ قال لا، قال إنما هذه إبْرِدَة يجزيك منها الوضوء قال محمد بن الحسين: كيف لا يكون

(١) أعلام الموقعين، ج ١، ص ١٦.

العلماء كذلك وقد قال النبي ﷺ: «من يُردِ الله بهِ خَيراً يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ»[(١)].

١٠ ـ قال أبو حنيفة: أخطأت في خمسة أبواب من المناسك بمكّة فعلصمنيها حجّام، وذلك أني أردت أن أحلق رأسي فقال لي: أعربي أنت؟ قلت نعم، وكنت قد قلت له بكم تحلق رأسي؟ فقال النسك لا يشارط فيه إجلس. فجلست منحرفاً عن القبلة، فأومأ إليّ باستقبال القبلة، وأردت أن أحلق رأسي من الجانب الأيسر، فقال أدر شقَّك الأيمن من رأسك. فأدرته، وجعل يحلق رأسي وأنا ساكت فقال لي كبِّر فجعلت أكبر، حتى قمت لأذهب، فقال أين تريد؟ قلت رحلي، فقال صلّ ركعتين ثم امض، فقلت ما ينبغي أن يكون هذا من مثل هذا الحجّام إلا ومعه علم، فقلت له: من أين لك ما رأيْتُك أمرتني به؟ فقال رأيت عطاء بن أبي رباح يفعل هذا[(٢)].

١١ ـ قال حماد بن زيد: إذا خالفني شعبة تبعته، لأنه كان لا يرضى أن يسمع الحديث عشرين مرّة، وأنا أرضى أن أسمعه مرّة[(٣)].

١٢ ـ وقال الزهري: أدركت أربعة بحور، فذكر فيهم عبيد الله (أحد الفقهاء السبعة) وقال سمعت من العلم شيئاً كثيراً فظننت أنّي قد اكتفيت حتى لقيت عبيد الله فإذا كأنّي ليس في يدي شيء.

١٣ ـ وقال الزهريّ: كنت أطلب العلم من ثلاثة: سعيد بن المسيّب وكان أفقه الناس، وعروة بن الزبير وكان بحراً لا تكدّره الدلاء، وكنت لا تشاء أن تجد عند عبيد الله طريقة من علم لا تجدها عند غيره إلا وجدت[(٤)].

١٤ ـ قال الحراني: سمعت عيسى بن يونس المحدّث يقول لم يكن في أسناني أبصر بالنحو منّي، فدخلني منه نخوة فتركته[(٥)].

---

(١) العسقلاني، توالي التأسيس، ص ٦٢.
(٢) السيوطي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٥.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٢.
(٤) الكشكول، ص ١٦.
(٥) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٦٢.

١٥ ـ قال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة: أقمت بباب مالك ثلاث سنين وسمعت نيفاً وسبعمائة حديث لفظاً[١].

١٦ ـ قال أحمد بن حنبل: ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعي.

١٧ ـ قال يحيى بن معين: كان أحمد بن حنبل ينهاني عن الشافعي ثم استقبلته يوماً والشافعي راكب بغلته وهو يمشي خلفه، فقلت: يا أبا عبد الله تنهاني عنه وتمشي خلفه؟ قال اسكت لو لزمت البغلة لانتفعت.

١٨ ـ قال العباس بن محمد: سمعت أحمد بن حنبل يقول، أوّل ما طلبت الحديث ذهبت إلى أبي يوسف القاضي ثمّ طلبنا بعد فكتبنا عن الناس[٢].

١٩ ـ قال يحيى بن معين: كان أبو يوسف القاضي يحبّ أصحاب الحديث ويميل إليهم وقد كتبت عنه أحاديث ـ أقول وهذه الشهادة من يحيى بن معين أفضل شهادة لأبي يوسف فإن يحيى هذا علم الإسلام في السنّة وما كان أصرح منه في المشايخ.

٢٠ ـ قال القاسم بن محمد البجلي: سمعت إسماعيل بن حمّاد بن أبي حنيفة يقول، قال أبو حنيفة يوماً: أصحابنا هؤلاء ستة وثلاثون رجلًا، منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء، ومنهم ستة يصلحون للفتوى، ومنهم اثنان يصلحان يؤدّبان القضاة وأصحاب الفتوى وأشار إلى أبي يوسف وزفَر[٣].

٢١ ـ حدّثنا اليزيدي قال: حدّثني عمّي عبد الله قال، حدّثني أخي أحمد قال: سمعت جدّي أبا محمد يقول، كنت ألقى الخليل بن أحمد فيقول لي، أحبّ أن يجمع بيني وبين عبد الله بن المقفّع، وألقى ابن المقفّع فيقول، أحبّ أن يجمع بيني وبين الخليل بن أحمد، فجمعت بينهما، فمرّ لنا أحسن مجلس

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٢٩.
(٢) الزركلي، الأعلام، ج ١، ص ٥٩.
(٣) الآجري، ص ١٣.

وأكثره علماً، ثم افترقنا، فلقيت الخليل فقلت له يا أبا عبد الرحمن كيف رأيت صاحبك؟ قال ما شئت من علم وأدب إلا أني رأيت كلامه أكثر من علمه، ثم لقيت ابن المقفع فقلت كيف رأيت صاحبك؟ فقال ما شئت من علم وأدب إلا أن عقله أكثر من علمه(١).

٢٢ ـ جاء أصحاب الحديث إلى الأعمش يوماً ليسمعوا عليه، فخرج إليهم وقال، لولا أنَّ في منزلي مَن هو أبغض إليّ منكم ما خرجت إليكم.

٢٣ ـ خرج سفيان بن عيينة المحدّث الورع يوماً إلى من جاءه يسمع منه، وهو ضجر، فقال: أليس من الشقاء أن أكون جالست ضمرة بن سعيد، وجالس هو أبا سعيد الخُدري، وجالستُ عمرو بن دينار وجالس هو ابن عمر رضي الله عنهما، وجالست الزهري وجالس هو أنس بن مالك، حتى عدّ جماعة ثم أنا أجالسكم؟ فقال له حَدَث في المجلس أتنصف يا أبا محمد؟ قال إن شاء الله تعالى، فقال، والله لشقاء أصحاب أصحاب رسول الله ﷺ بك أشدُّ من شقائك بنا، فأطرق وأنشد قول أبي نواس:

خلّ جنبيك لرامِ وامضِ عنه بسلامِ
متّ بداء الصمت خيراً لك من داء الكلامِ
إنّما السالم من ألـ ـجم فاه بلجامِ

فتفرّق الناس وهم يتحدّثون برجاحة الحدث، وكان ذلك الحدث يحيى ابن أكثم التميمي، فقال سفيان، هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء يعني السلاطين(٢).

وقد صدقت فراسته، فتولى يحيى قضاء البصرة وهو ابن عشرين سنة ثم ترقى حتى ولّاه المأمون قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته.

٢٤ ـ حدثني الدكتور عبد الفتاح سلامة أنه كان يطلب العلم بجامعة جنيف، وكان بالمستشفى مريض بصدره مدّة رأى الطبيب الباطني أن تعمل له

(١) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٤٠١.
(٢) أعلام الموقعين، ج ١، ص ١٤.

عملية وحوّله على الجرّاح فلم يعملها خوفاً عليه من الموت، فقام طبيب الباطن باجرائها فمات الرجل بعد أربع وعشرين ساعة، قال محدّثي إن أستاذنا الطبيب الأول وكان قد أعلمنا بسير المرض وبرأيه أخبرنا في صراحة تامة أنه مخطىء وأن الرأي كان مع الطبيب الجراح.

٢٥ ـ ولد أبو حنيفة بالكوفة ونشى بها، ولم يجد في حال ترعرعه من يرشده إلى الأخذ عمن أدركه من الحصابة فاشتغل بالبيع والشراء، إلى أن قيّض الله له الإمام الشعبي فأيقظه إلى النظر في العلم ومجالسة العلماء لما رأى فيه من اليقظة والنجابة، فوقع في قلبه قوله فترك السوق وأخذ في العلم، فنظر في علم الكلام وبلغ فيه مبلغاً يشار إليه فيه بالأصابع، وأعطى فيه جدلًا فمضى عليه زمن به يخاصم وعنه يناضل. حتى دخل البصرة لأن أكثر الفرق كان بها «نيفاً وعشرين فرقة» يقيم في بعض المرّات سنة أو أكثر ينازع أولئك الفرق، لأنه كان يعدّ الكلام أرفع العلوم وأفضلها لكونه في أصول الدين، ثم ألهم أن الصحابة والتابعين لم يكونوا كذلك مع أنهم عليه أقدر وبه أعرف، بل نهوا عنه أشدّ النهي ولم يخوضوا إلا في الشرائع وأبواب الفقه وتعليم الناس، فكره طرائق الجدل وأكّد ذلك عنده أنه كان يجلس بالقرب من حلقة حمّاد فجاءته امرأة فسألته عن رجل يريد أن يطلق امرأته للسنّة كيف يقول؟ فلم يجد جواباً، فأمرها أن تسأل حمّاداً ثم تعلمه بجوابه، ففعلت فترك الكلام وجلس في حلقة حمّاد، فكان يحفظ جميع ما يقوله ويخطّىء فيه أصحابه، فأجلسه بحذائه في صدر الحلقة عشر سنين، فنازعته نفسه أن ينفرد عنه ويشتغل بحلقة لنفسه، فليلةَ عزمه على فعل ذلك جاء لحمّاد نعي قريب له ولا وارث له غيره، فاحتاج للسفر لأخذ ماله، فاستخلفه في حلقته، وغاب شهرين ثم قدم وقد سُئل أبو حنيفة عن ستين مسألة لم يكن سمعها منه فأجاب فيها ثم عرضها عليه فوافقه في أربعين وخالفه في عشرين فآلى أبو حنيفة على نفسه ألا يفارقه حتى يموت[١].

٢٦ ـ علي بن حرملة التيمي عن أبي يوسف، كنت أطلب الحديث والفقه

(١) السيوطي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٣٥٧.

وأنا مقلٌ رثّ الحال، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه، فقال: يا بنيّ، لا تمدّن رجلك مع أبي حنيفة فإنّ أبا حنيفة خبزه مشويّ، وأنت تحتاج إلى المعاش، فقصّرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني. فجعلت أتعاهد مجلسه فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرّي عنه، قال لي، ما شغلك عنا؟ قلت، الشغل بالمعاش وطاعة والدي فجلست فلما انصرف الناس دفع إليّ صرّة وقال استمتع بهذه فنظرت فإذا فيها مائة درهم فقال لي الزم الحلقة وإذا نفدت هذه فأعلمني، فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إليّ مائة أخرى، ثم كان يتعاهدني، وما أعلمته بخلّة قط ولا أخبرته بنفاد شيء ما وكان كأنّه يخبر بنفادها حتى استغنيت وتموّلت(١).

٢٧ ـ نظر أبو حنيفة لابن المبارك وسأله أن يحدثه عن بدء أموره فقال: كنت جالساً مع إخواني في البستان فأكلنا وشربنا إلى الليل، وكنت مولّعاً بضرب العود والطنبور، ونمت سحراً فرأيت في منامي طائراً فوق رأسي على شجرة يقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ قلت بلى، فانتبهت وكسرت عودي وحرقت ما كان عندي فكان هذا أول زهدي ـ وهذا هو عبد الله بن المبارك الذي روى أنه اجتمع جماعة من أصحابه وأخذوا يعدّدون خصاله فقالوا، جمع العلم والفقه والأدب واللغة والشعر والنحو والزهد والفصاحة والورع وقيام الليل والعبادة والسداد في الرواية وقلة الكلام فيما لا يعنيه وقلة الخلاف على أصحابه، وروى له الجماعة، وكان ثقة حجّة(٢).

أمانة العلماء:

٢٨ ـ كان ابن عباس يقول: إذا أخطأ العالِمَ أن يقول لا أدري فقد أصيبت مقاتله.

٢٩ ـ عن يحيى بن سعيد قال: سئل ابن لعبد الله بن عبد الله بن عمر

---

(١) الفوائد البهية، ص ١٦٣.
(٢) تاريخ بغداد، ج ١٤، ص ٢٥٥.

عن شيء فلم يكن عنده جواب، فقلت إنّي لأعظم أن يكون مثلك ابن إمام هدى يسأل عن شيء لا يكون عندك منه علم، فقال أعظم والله من ذلك عند الله وعند من عقل عن الله عز وجلّ أن أقول بغير علم، أو أحدّث عن غير ثقة.

٣٠ ـ جاء رجل إلى مالك بن أنس يسأله عن شيء، فقال مالك لا أدري، قال الرجل فأذكر عنك أنك لا تدري؟ قال نعم احك عنّي أنّي لا أدري[١].

٣١ ـ سأل سائل أبا العباس ثعلب فقال لا أدري، فقال له أتقول لا أدري وإليك تضرب أكباد الأبل، وإليك الرحلة من كل بلد؟ فقال له أبو العباس، لو كان لأمّك بعدَد ما لا أدري بَعْدَ لاستغنيت[٢].

٣٢ ـ كان ابن حنبل يُسأَل عن كثير من المسائل فيقول لا أدري قال ابنه: وكان يقف إذا كانت مسألة فيها اختلاف العلماء ويقول سلْ غيري، فإن قيل له مَن نسأل؟ قال سلوا العلماء، ولا يكاد يسمّي رجلًا بعينه.

٣٣ ـ قال أبو داود: ما أحصي ما سمعت أحمد بن حنبل، سئلَ عن كثير مما فيه الاختلاف في العلم فيقول لا أدري، وسمعته يقول: ما رأيت مثل ابن عيينة في الفتوى أحسن فتيا منه كان أهون عليه أن يقول لا أدري[٣].

٣٤ ـ وحكى أبو الحسن الدارقطني أنّه حضر في مجلس إملاء أبي بكر الأنباري يوم جمعة فصحّف الانباريُّ اسماً أورده في إسناد حديث، إمّا كان حيان فقال حبان، أو حبّان فقال حيّان، قال الدارقطني، فأعظمت أن يحمل عن مثله في فضله وجلالته وهم، وهبت أن أوقفه على ذلك، فلمّا انقضى الإملاء تقدّمت إلى المستملى فذكرت له وهمه وعرّفته صواب القول فيه وانصرفت، ثم حضرتُ الجمعة الثانية مجلسه، فقال أبو بكر عرف جماعةُ الحاضرين أنّا صحّفنا الاسم الفلاني لمّا أملينا حديث كذا في الجمعة الماضية، ونبّهنا ذلك الشابّ

---

(١) تاريخ بغداد، ج ١٤، ص ٢٤٧.
(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج ١٨، ص ٧٦.
(٣) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٦٤.

على الصواب وهو كذا وعرف ذلك الشابّ أنّا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال(١).

٣٥ ـ عن ابن عساكر يقول: سمعت سعيد بن المبارك بن الدهان يقول رأيت في النوم شخصاً أعرفه وهو ينشد شخصاً آخر كأنه حبيب له:

أيــهــا الــمــاطــل ديــنــي أمــلــيءُ وتُــمــاطــل؟
عــلّــل الــقــلــب فــإنّــي قــانــع مــنــك بــبــاطــل

قال السمعاني، فرأيت ابن الدهان وعرضت عليه الحكاية فقال ما أعرفها فلعل ابن الدهان (يعني نفسه) نسي فإن ابن عساكر من أوثق الرواة ثم استملى ابن الدهان من السمعاني هذه الحكاية وقال: أخبرني السمعاني عن ابن عساكر عنّي، فروى عن شخصين عن نفسه ـ ونغمّا هذه أمانة العلم.

٣٦ ـ منع والي الكوفة أبا حنيفة أن يفتي، إذ رفع إليه قاضيها أنه انتقد حكماً له، ويظهر من سياق القصة أن هذا وقع في سبيبة الإمام، فيقال إنه كان في بيته يوماً وعنده زوجته وابنه حمّاد وابنته، فقالت له ابنته: إنّي صائمة وقد خرج من بين أسناني دم وبصقته حتى عاد الريق أبيض لا يظهر عليه أثر الدم، فهل أفطر إذا بلعت الآن الريق؟ فقال لها أبو حنيفة: سلي أخاك حمّاد فإنّ الأمير منعني من الفتيا اهـ.

١٤٨ ـ «في ص ١٢١ من أخبار العلماء بأخبار الحكماء» أنّ حنين ابن اسحق الطبيب الشهير اتّصل خبره بالخليفة فأمر باحضاره وأقطعه إقطاعاً سنيًا وقرّر له جارٍ جيّد، وكان الخليفة يسمع علمه ولا يأخذ بقوله دواءً يصفه حتى يشاور غيره، وأحبّ امتحانه ليزيل ما في نفسه عليه إذ ظن أن ملك الروم ربّما كان قد عمل شيئاً من الحيلة، فاستدعاه وأمر بأن يخلع عليه وأخرج توقيعاً له فيه إقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم فشكر حنين هذا الفعل ثم قال له بعد أشياء جرت، أريد أن تصف لي دواء يقتل عدوًا نريد قتله وليس يمكن إشهار هذا ونريده سراً فقال حنين ما تعلمت غير الأدوية النافعة ولا علمت أن أمير

(١) الخيرات الحسان، ص ٢٦، ٢٧.

المؤمنين يطلب مني غيرها، فإن أحبّ أن أمضي وأتعلّم فعلت، فقال هذا شيء يطول ورغّبه وهدّده وهو لا يزيد على ما قال، إلى أن أمر بحبسه في بعض القلاع ووكل به من يرفع خبره إليه وقتاً بوقت، فحبس سنة، وكان في حبسه ينقل ويفسّر ويصنّف وهو غير مكترث بما هو فيه، فلما كان بعد سنة أمر الخليفة بإحضاره وإحضار أموال يرغّبه فيها وإحضار سيف ونطع وسائر آلات العقوبة، ولما حضر قال هذا شيء قال قد قال ولا بدّ لي مما قلتُه لك، فإن أنعمت فزت بهذا المال وكان لك عندي أضعافه وأن امتنعت عاقبتك وقتلتك، فقال حنين قد قلتُ لأمير المؤمنين إنني ما أحسن غير الشيء النافع ولا تعلّمت غيره، قال الخليفة فإنني أقتلك، فقال حنين إلى ربّ يأخذ بحقي غداً في الموقف الأعظم فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه؟ فتبسّم الخليفة وقال له يا حنين طب نفساً وثق بنا، فهذا الفعل منّا كان لامتحانك لأننا حذرنا من كيد الملوك، فأردنا الطمأنينة إليك والثقة بك لننتفع بعلمك، فقبّل حنين الأرض وشكر له، فقال الخليفة له ما الذي منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق الأمر منّا في الحالين؟ قال حنين شيئان يا أميرنا باستعمال الخير والجميل مع أعدائنا فكيف ظنّك بالأصدقاء؟ والصناعة تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس لأنّها موضوعة لنفعهم ومقصورة على معالجتهم، ومع هذا فقد جعل في رقاب الأطبّاء عهد مؤكد بالأيمان مغلّظة ألّا يعطوا دواءً قتّالاً فلم أر أن أخالف هذين الأمرين الشريفين ووطّنت نفسي على القتل فإن الله تعالى ما كان يضيع لي بذل نفسي في طاعته، فقال الخليفة إنّهما شرعان جليلان، وأمر بالخلع فأفيضت عليه وحمل المال معه فخرج وهو أحسن الناس حالاً وجاها. قال ابن القفطي عقب هذه القصة، فانظر إلى ثمرة الدين والعلم ما أحلاهما وأحسن منظرهما وفخرهما، جعلنا الله وإياك من الشاكرين بهما والمثابين عليهما.

وحنين وهذا من فرقة العباد المقيمين بظاهر الحيرة، كان تلميذاً ليوحنا بن ماسويه فحرد عليه يوماً وأخرجه من داره وقال له: ما لأهل الحيرة والطبّ؟ عليك ببيع الفلوس في الطريق، فخرج حنين وقال لبعض من لقيه: أنا بريء من دين النصرانية إن رضيت أن أتعلّم الطبّ حتى أحكم اللسان اليوناني ودخل بلاد

اليونان وكان قد أحكم العربية على الخليل بن أحمد وهو يجيد السريانية فلما رجع وظهر فضله اختاره المتوكّل للترجمة وعيّن له الكتّاب المهرة تحت أمره وخدمه بطبّه بعد أن وثق به. فلعلّ ما كان في نفس الخليفة أتى من جهة تغيّبه المدّة الطويلة في بلاد الروم ومجيئه منها بهذه البراعة التي تستدعي أن يكون قد توغّل في الخلطة وتمكّن من الأسباب، وهذا حذر لا يلام المتوكل عليه بيّن فضل الأمانة في هذا العالم يتخذ مثلًا يروي ويتداول.

٣٨ ـ وأفتى الشيخ العزّ بن عبد السلام مرّة بشيء ثم ظهر له أنه أخطأ، فنادى في مصر والقاهرة على نفسه: من أفتى له ابن عبد السلام بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ. وهذا الشيخ عزُّ الدين صاحب الكرامة المشهورة في الحرب الدمياطية لما هجمت الأفرنج عليها فهرب من كان بها واستحوذوا عليها وللملك الصالح أيّوب مقيم بالمنصورة ومات، وأخفت جاريته شجرة الدرّ موته حتى قدم ابنه طوران شاه فملّكوه وقاتل الأفرنج وكسرهم وقتل منهم ثلاثين ألفاً، وكان في العسكر الشيخ العزّ وكانت النصرة أولا للأفرنج وقويت الريح على المسلمين وقال الشيخ عز الدين بأعلى صوته مشيراً بيده إلى الريح: يا ريح خذيهم عدّة مرار، فعادت الريح على مراكب الأفرنج فكسرتها وكان الفتح، وغرق أكثر الأفرنج، وصرخ من المسلمين صارخ، الحمد لله الذي أرانا في أمّة محمد رجلًا سخّر له الريح.

١ ـ عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، ما منهم رجل يَسأل عن شيء إلا ودّ أن أخاه كفاه ولا يحدّث حديثاً إلا وّد أن أخاه كفاه.

٢ ـ وعن معاوية بن أبي عياش أنّه كان جالساً عند عبد الله بن الزبير وعاصم بن عمر فجاءهما محمد بن إياس بن البكير فقال: إنّ رجلًا من أهل البادية طلّق امرأته ثلاثاً فماذا تريان؟ فقال عبد الله بن الزبير، أن هذا الأمر ما لنا فيه قول، فأذهب إلى عبد الله بن عباس وأبي هريرة فإنّي تركتهما عند عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم ائتنا فأخبرنا، فذهبت فسألتهما، فقال ابن عباس لأبي هريرة أفته يا أبا هريرة فقد جاءتك معضلة فقال أبو هريرة:

الواحدة تبينها والثلاث تحرمها حتى تنكح زوجاً غيره[١].

٣ ـ وعن سفيان قال: أدركت الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا، ولا يفتون حتى لا يجدوا بدًّا من أن يفتوا. وقال المعافي: سألت سفيان فقال، أدركت الناس ممّن أدركت من العلماء والفقهاء وهم يترادّون المسائل يكرهون أن يجيبوا فيها، فإذا أعفوا منها كان ذلك أحبّ إليهم.

٤ ـ عن عمير بن سعيد قال: سألت علقمة عن مسألة، فقال: ائت عبيدة فاسأله، فأتيت عبيدة فقال: أئت علقمة، فقلت: علقمة أرسلني إليك، فقال: ائت مسروقاً فاسأله، فأتيت مسروقاً فسألته، فقال: ائت علقمة فاسأله، فقلت: علقمة أرسلني إلى عبيدة وعبيدة أرسلني إليك؟ فقال: ائت عبد الرحمن بن أبي ليلى، فأتيت عبد الرحمن ابن أبي ليلى فسألته فكرهه، ثم رجعت إلى علقمة فأخبرته، قال: كان يقال أجرأ القوم على الفتيا أدناهم علماً.

٥ ـ قال سفيان: من أحبّ أن يُسأل فليس بأهل أن يُسأل.

٦ ـ عن خارجة بن زيد بن ثابت قال كان زيد إذا سئل عن شيء قال، هل وقع؟ فإن قالوا له لم يقع، لم يخبرهم، وإن قالوا قد وقع أخبرهم.

٧ ـ عن مسروق قال: كنت أمشي مع أبيّ بن كعب فقال له رجل يا عمّاه كذا وكذا، فقال يا ابن أخي أكان هذا؟ قال لا، قال فاعفنا حتى يكون[٢].

٨ ـ قال ابن قيّم الجوزيّة: كان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرّع في الفتوى، ويودّ كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره، فإذا رأى أنّها قد تعينت عليه، بذل اجتهاده في معرفة حكمها من الكتاب والسنّة أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى[٣].

٩ ـ عن ابن سيرين قال: لم يكن أحد أهيب بما لا يعلم من أبي بكر رضى الله عنه، ولم يكن أحد بعد أبي بكر أهيب بما لا يعلم من عمر، وأن أبا بكر

---

(١) تاريخ بغداد، ج ١٤، ص ٢٤٤.
(٢) الفوائد البهية، ص ١٠٣.
(٣) الآجري، ص ٨٥.

نزلت به قضيّة فلم يجد في كتاب الله منها أصلا ولا في السنة أثراً فاجتهد برأيه ثم قال، هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمنّي واستغفر الله[١].

١٠ ـ قال سحنون بن سعيد: أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظنّ أنّ الحق كلّه فيه!!

وقال سحنون إني لأحفظ مسائل منها ما فيه ثمانية أقوال من ثمانية أئمة من العلماء، فكيف ينبغي أن أعجل بالجواب قبل الخبر؟ فلم ألام على حبس الجواب؟[٢].

١١ ـ وقال إسماعيل بن عبد الملك: كان سعيد جبير يؤمّنا في شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد ابن ثابت، وليلة بقراءة غيره، هكذا أبدا، وسأله رجل أن يكتب له تفسير القرآن، فغضب، وقال: لأن يسقط شقّي أحبّ إليّ من ذلك.

١٢ ـ قال شعبة بن الحجاج: لأن أقع من السماء فأتقطع، أحب إليّ من أن أدلّس.

وقال: وددت أنّي وقّاد حمّام ولم أُعرَف بالحديث.

وقال: ما شيء أخوف عندي أن يُدخلني النار من الحديث.

١٣ ـ وحكى بعضهم أنه كان في حلقة شعبة فضجر من إملاء الحديث، فرمى بطرفه فرأى أبا زيد الأنصاري اللغوي في أخريات الناس فقال يا أبا زيد.

استعجمت دار ميّ ما تكلّمنا ... والدار لو كلّمتنا ذات أخبار

إليّ يا أبا زيد، فجاءه، فجعلا يتحدّثان ويتناشدان الأشعار، فقال له بعض أصحاب الحديث، يا أبا بسطام، نقطع إليك ظهور الإبل لنسمع منك حديث النبي ﷺ فتدعنا وتقبل على الأشعار؟ فغضب شعبة غضباً شديداً، ثم قال يا هؤلاء أسلم منّي في ذاك.

---

(١) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٦.
(٢) أعلام الموقعين، ج ١، ص ٢٦.

١٤ ـ حدّث القعنبي قال دخلت على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه، فسلّمت عليه ثم جلست، فرأيته يبكي، فقلت يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك فقال لي، يا ابن قعنب وما لي لا أبكي؟ ومَن أحقّ بالبكاء منّي والله لوددت أنّي ضُربت بكل مسئلة أفتيت فيها برأيي بسوطٍ سوطٍ، وقد كانت لي السعة فيما قد سبُقت إليه، وليتني لم أفت بالرأي، أو كما قال(١).

١٥ ـ قال يحيى بن يحيى: سمعت أبا يوسف القاضي عند وفاته يقول: كل ما أفتيت به فقد رجعت عنه إلّا ما وافق كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ.

١٦ ـ قال أحمد بن عطيّة: سمعت محمد بن سماعة يقول: سمعت أبا يوسف في اليوم الذي مات فيه يقول اللهم إنّك تعلم أني لم أُجر في حكم حكمت به بين عبادك متعمّداً، ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنّة نبيّم، وكل ما أشكل عليّ جعلت أبا حنيفة بيني وبينك، وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحقّ وهو يعلمه(٢).

صدق العلماء:

١ ـ دخل هشام بن عروة على المنصور فقال له المنصور يا أبا المنذر أتذكر حيث دخلتُ عليك أنا وأخي مع أبي الخلائف، وأنت تشرب سويقاً بقصبة يراع، فلما خرجنا من عندك قال أبي استوصوا بالشيخ خيراً واعرفوا حقّه فلا يزال في قومكم بقيّة ما بقي؟ قال، ما أثبت ذاك يا أمير المؤمنين، فلامه بعض أهله، وقالوا يذكّرك أمير المؤمنين ما يمتّ به إليك وتقول له لا أذكره؟ فقال، لم أذكره، ولم يعوّدني الله في الصدق إلا خيراً(٣).

٢ ـ قال أبو يوسف: كان أبو حنيفة يحمل والدته على حماره إلى مجلس عمر بن ذرّ كراهية أن يردَّ قولها، وقال أبو حنيفة ربّما ذهبت بها إلى مجلسه

---

(١) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٦٣٧.
(٢) أعلام الموقعين، ج ١، ص ٣٠.
(٣) الآجري، ص ٧٦.

وربّما أمرتني أن أذهب إليه وأسأله عن مسألة فآتيه وأذكرها له، وأقول له إن أمّي أمرتني أن أسألك عنها، فيقول وأنت تسألني عن هذا؟ فأقول هي أمرتني؟ فيقول، قل لي كيف هو حتى أخبرك فأخبره بالجواب ثم يخبرني به فآتيها وأخبرها عنه بما قال، ونظير ذلك أنها استفت عن شيء فأفتيتها فلم تقبله وقالت لا أقبل إلا قول زرعة القاصّ (أي الواعظ) فجاء بها إليه وقال له: إن أمّي تستفتيك في كذا فقال أنت أعلم وأفقه فأفتها قال أفتيتها بكذا فقال زرعة القول ما قال أبو حنيفة فرضيت وانصرفت(١).

٣ ـ قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف يقول: سألني الأعمش عن مسألة فأجبته فيها، فقال لي من أين قلت هذا؟ فقلت لحديثك الذي حدّثتناه أنت. ثم ذكرت له الحديث، فقال لي يا يعقوب، إني لأحفظ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك فما عرفت تأويله حتى الآن(٢).

٤ ـ وفي تكملة ابن عابدين: أن الفضل بن الربيع وزير الخليفة الرشيد شهد عند أبي يوسف فردَّ شهادته فعاتبه الخليفة وقال لم رددت شهادته؟ قال لأني سمعته يوماً يقول للخليفة أنا عبدك، فإن كان صادقاً فلا شهادة للعبد، وأن كان كاذباً فكذلك، لأنه إذا لم يبال في مجلسك بالكذب فلا يبالي في مجلسي، فعذره الخليفة. وإنّما ردَّه القاضي أبو يوسف لما في كلام هذا الوزير من إذلال نفسه وطاعته لأجل الدنيا(٣).

٥ ـ وفي ترجمة العالم أبي غالب أن الأمير أبا الجيش وجّه إليه أيام غلبته على مرسينه وأبو غالب بها وقد ألف كتاباً في اللغة لم يؤلف مثله اختصاراً وإكثاراً فوجه إليه ألف دينار على أن يزيد في ترجمة هذا الكتاب «مما ألّفه أبو غالب لأبي الجيش مجاهد» فردَّ الدنانير وقال والله لو بذلت لي الدنيا على ذلك لم أفعله ولا استجزت الكذب، فإني لم أؤلفه لك خاصة

---

(١) أعلام الموقعين، ج ١، ص ٣٧.
(٢) المرجع نفسه، ص ٦١.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٨.

ولكن للناس عامة. فأعجب بهمّة هذا الرئيس وعلوّها وأعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها.

٦ ـ كان أستاذنا العالم المرحوم محمد عاطف بركات بك ناظر مدرسة القضاء الشرعي يحافظ على الصدق ويبالغ في التمسك به، خلت درجة في المدرسة رأى أن يطلب معها درجة أخرى ليعطى كل واحدة منهما لأستاذ من المشايخ وأستاذ من الأفندية، حتى يجبر خاطر الجميع. فسعى أحد الأستاذين لنيل الدرجة التي خلت قبل أن تجيء الأخرى، وساعده في سعيه رئيس الحكومة وقتذاك فأقرّ مجلس إدارة المدرسة إعطاءها له على الرغم من البك، فلما صدر القرار جاء الأستاذ يشكر عاطف بك عليها، فقال له عاطف بك: كلّا يا أستاذ لا تشكرني لأنه لا يد لي في ذلك، ولو كان الأمر في يدي ما أخذت. قال لي المرحوم الشيخ إسماعيل خليل: كنت حاضر هذه الواقعة وعجبت من صراحة عاطف بك وتمسكه بأهداب الصدق لهذا الحد فالتفتّ إلى الأستاذ وقلت له إذن فاشكر الله يا فلان.

تحرّزهم مِنَ الشبهة

١ ـ قال وهب بن منبّه: إن ملكاً كان يحمل الناس على أكل لحم الخنزير فأتي بأفضل أهل زمانه ليأكله، ورقّ له صاحب الطعام فوضع له جدياً مكانه فأبى العالم أن يأكله مع هذا. ولما أمر الملك بقتله قال له الشرطي ما منعك أن تأكل منه وهو لحم جدي؟ قال خفت أن يفتن الناس بي فإن أكرهوا على أكل الخنزير قالوا قد أكله فلان فيستنّون بي وأكون فتنة لهم فقتل رحمه الله.

٢ ـ لما حضرت الوفاة عبد الله بن عمر قال انظروا فلاناً، لرجل من قريش، فإني كنت قلتُ له في ابنتي قولًا كشبه العدة، وما أحبّ أن ألقى الله بثلث النفاق وأشهدكم أنّي قد زوّجته[1].

(١) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٥٥٦.

٣ ـ جاء في كتاب قضاة مصر للكندي، أن الوليد بن رفاعة أرسل إلى توبة بن نمر ليوليه القضاء، فدخل عليه هو وامرأته عفيرة الأشجعية، وكانت امرأة برّزة، فولّاه القضاء، فقالت له عفيرة: أما والله يا توبة ما حباك ابن رفاعة بهذه الولاية، ولو أنه وجد في قيس كلها من يسدّ مسدّك أو يتضلّع بهذا الأمر لأمّره عليك وقدّمه وأخّرك، فلما ولي القضاء دعا امرأته عفيرة فقال: يا أم محمد أيّ صاحب كنت لك؟ قالت خير صاحب وأكرمه، قال فاسمعي، لا تعرضنّ لي في شيء من القضاء، ولا تذكرنّي بخصم، ولا تسألنّي عن حكومة، فإن فعلت شيئاً من هذا فأنت طالق، فإما أن تقيمي مكرّمة وإما أن تذهبي ذميمة، فانتقلت عنه فلم تكن تأتيه إلا في الشهر والشهرين، وفي رواية أنه قال لها كيف علمت محبّتي لك؟ قالت جزاك الله من عشير خيراً، قال قد علمت ما قد بلينا من أمر الناس كلّهم، فأنت الطلاق «فصاحت» فقال: إن كلّمتني في خصم، أو ذكّرتني به، قال فإن كانت لترى دواته قد احتاجت إلى الماء فلا تأمر بها أن تُمدّ خوفاً من أن يدخل عليه في يمينه شيء(١).

٤ ـ نقل، أن عافية بن يزيد القاضي كان يلي القضاء ببغداد للمهديّ فجاء في بعض الأيام وقت الظهر إلى المهديّ وهو خالٍ، فاستأذن عليه، فلما دخل استأذنه فيمن يسلّم إليه القمطر الذي فيه قضايا مجلس الحكم، واستعفاه من القضاء، وطلب منه أن يقيله من ولايته، فظنّ المهديّ أن بعض الأولياء قد عارضه في حكمه فقال له في ذلك إنه إن كان عارضك أحد لننكرن عليه، فقال القاضي: لم يكن شيء من ذلك، قال: فما سبب استعفائك من القضاء؟ قال يا أمير المؤمنين كان تقدّم إليّ خصمان منذ شهر في قضيّة مشكلة وكلٌ يدّعى بيّنة وشهوداً ويدلى بحجج تحتاج إلى تأمل وتثبّت. فرددت الخصوم رجاء أن يصطلحوا وأن يظهر الفصل بينهما، فسمع أحدهما إني أحبّ الرطب، فعمد في وقتنا هذا وهو أول أوقات الرطب فجمع رطباً لا يتهيّأ في وقتنا جمع مثله لأمير المؤمنين، وما رأيت أحسن منه، ورشا بوابي بدارهم على أن يدخل الطبق عليّ

---

(١) تاريخ بغداد، ج ١٤، ص ٢٥٤.

ولا يبالي أن يُردَّ عليه، فلما أدخله عليّ أنكرت ذلك وطردت بوابي وأمرت برد الطبق فردّ عليه، فلما كان اليوم تقدّم الخصمان إليّ فما تساويا في عيني ولا قلبي، فهذا يا أمير المؤمنين ولم أقبل فكيف يكون حالي لو قبلت؟ ولا آمن أن تقع عليَّ حيلة في ديني فأهلك وقد فسد الناس، فأقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله واعفني عفا الله عنك. فأقاله(١).

٤ ـ قال الحسن بن زياد: ما قبل أبو حنيفة لأحد منهم أي الأمراء ونحوهم هديّة ولا جائزة، وأرسل لشريكه متاعا فيه ثوب مَعيب يبيعه ويبين ما فيه من العيب، فباعه ولم يبيّن نسياناً، وجُهل المشتري، فلمّا علم أبو حنيفة تصدّق بثمن المتاع، وكان ثلاثين ألف درهم وفاصل شريكه(٢).

قناعتهم واستهانتهم في الدنيا

١ ـ مرض عبد الله بن مسعود فعاده عثمان بن عفّان فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك، قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إنّي أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً ـ وتوفي عبد الله وأوصى إلى الزبير بن العوّام فدفع عثمان عطاء سنتين بعده كان قد تركه عبد الله استغناء عنه، وأرسله إلى الزبير، فدفعه إلى ورثته(٣).

٢ ـ أرسل سليمان بن حبيب والي فارس والأهواز إلى الخليل ابن أحمد يستدعي حضوره وكان له راتب عليه، فكتب الخليل إليه.

أبلغ سليمان أنّي عنه في سعة　　　وفي غنى غير أنّي لستُ ذا مال

(١) البيهقي، المحاسن والمساوىء، ج ٢، ص ٦٤.
(٢) الخيرات الحسان، ص ٥٩.
(٣) تاريخ بغداد، ج ١٤، ص ٣٤٦.

شحًا بنفسي إنّي لا أرى أحداً ... يموت هزلاً ولا يبقى على حال
الرزق عند قدر لا الضعف ينقصه ... ولا يزيدك فيه خول محتال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه ... ومثل ذاك الغنى، في النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب فقال الخليل:

إنّ الذي شقّ فمي ضامن ... لي الرزق حتى يتوفّاني
حرمتني مالاً قليلاً فما ... زادك في مالك حرماني

فبلغت سليمان فأقامته وأقعدته واعتذر إلى الخليل وأضعف راتبه.

٣ ـ وقال تلميذ الخليل النضر بن شميل: أقام الخليل في خصّ من أخصاص البصرة لا يقدر على فلّسين وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال، ولقد سمعته يوماً يقول: إنّي لأغلق عليّ بابي فما يجاوزني همّي.

٤ ـ وكان أبو نصر الفارابي أزهد الناس في الدنيا، لا يحتفل بأمر مكسب ولا مسكن، وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم من بيت المال أربعة دراهم، وهو الذي اقتصر عليها لقناعته، ولم يزل على ذلك إلى أن توفّي.

٥ ـ وروى المسعودي في كتاب مروج الذهب أن الواقدي قال: كان لي صديقان أحدهما هاشميّ، وكنّا كنفسٍ واحدة، فنالتني ضائقة شديدة، وحضر العيد، فقالت امرأتي، أمّا نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدّة، وأمّا صبياننا هؤلاء فقد قطّعوا قلبي رحمة لهم، لأنهم يرون صبيان الجيران قد تزيّنوا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم وهم على هذه الحال من الثياب الرثّة، فلو احتلت في شيء فصرفته في كسوتهم؟ قال فكتبت إلى صديقي الهاشميّ أسأله التوسعة عليّ بما حضر، فوجه إليّ كيساً مختوماً ذكر أنّ فيه ألف درهم، فما استقرّ قراري حتّى كتب إليّ الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي الهاشميّ، فوجهّت إليه الكيس بختمه، وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلتي مستحيياً من امرأتي، فلما دخلت عليها استحسنت ما كان منّي ولم تعنفني عليه، فبينا أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشميّ ومعه الكيس كهيأته، فقال لي أصدقني مّا فعلته فيما وجهتُ به إليك؟ فعرّفته الخبر على وجهه، فقال لي إنّك وّجهت إليّ وما أملك على الأرض إلا ما بعثت به إليك، وكتبت إلى صديقنا أسأله

المواساة فوّجه الكيس بخاتمي، قال الواقدي فتواسينا الألف درهم فيما بيننا، ثم إنّا أخرجنا للمرأة مائة درهم قبل ذلك، ونما الخبر إلى المأمون، فدعاني وسألني، فشرحت له الخبر، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار، لكلّ واحد منا ألفا دينار، وللمرأة ألف دينار(١).

٦ ـ وكان عروة بن أذينة كثير القناعة، وله في ذلك أشعار سائرة، وكان قد وفد من الحجاز على هشام بن عبد الملك بالشام في جماعة من الشعراء، فلمّا دخلوا عليه، عرف عروة، فقال له ألست القائل:

لقد علمت وما الإسراف من خلقي ... أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيعييني تطلّبه ... ولو قعدت أتاني لا يعنّيني

وما أراك فعلت كما قلت، فإنّك أتيت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق؟ فقال: لقد وعظت يا أمير المؤمنين فبالغت في الوغظ وأذكرت ما أنسانيه الدهر، وخرج من فوره إلى راحلته فركبها، وتوجّه راجعاً إلى الحجاز، فمكث هشام يومه غافلًا عنه، فلمّا كان في الليل استيقظ من منامه وذكره، وقال: هذا رجل من قريش قال: في الليل استيقظ من منامه وذكره، وقال: هذا رجل من قريش قال: حكمة ووفد إليّ فجبهته ورددته عن حاجته، وهو مع هذا شاعر لا رمن لسانه، فلما أصبح سأل عنه، فأخبر بانصرافه، فقال: لا جرم ليعلمنّ أنّ الرزق سيأتيه، ثم دعا بمولى له وأعطاه ألفي دينار وقال: الحق بهذا عروة بن أذينة فأعطه إيّاها، قال: فلم أدركه إلا وقد دخل بيته، فقرعت عليه الباب فخرج، فأعطيته المال، فقال: أبلغ أمير المؤمنين السلام، وقل له: كيف رأيت قولي؟ سعيتُ فأكديت، ورجعت إلى بيتي فأتاني فيه الرزق.

٧ ـ وذكر السمعاني في الذيل في ترجمة أبي إسحاق علي بن أحمد ابن الحسين بن أحمد بن الحسين بن محمويه البزي، أنه كان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه، إذا خرج ذاك قعد هذا في البيت، وإذا خرج هذا احتاج ذاك أن يقعد، قال السمعاني: وسمعته يقول يوماً وقد دخلت عليه مع علي بن الحسين

(١) وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٩.

الغزنوي الواعظ مسلّماً داره فوجدناه عريان متأزّراً بمئزر، فاعتذر من العرى وقال: نحن إذا غسلنا ثيابنا نكون كما قال القاضي أبو الطيّب الطبري:

قوم إذا غسلوا ثياب جمالهم لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل

٨ ـ كان ابن بابشاذ النحوي في ديوان الإنشاء بمصر، لا يخرج منه كتاب إلّا عرض عليه ينظره في نحوه ولغته، وله راتب من الخزانة يتناوله كل شهر وأقام على ذلك زمانا. ويحكى أنّه كان يوماً في سطح جامع مصر وهو يأكل شيئاً وعنده ناس، فحضرهم قطّ فقدّموا له لقمة فأخذها في فيه وغاب عنهم ثم عاد إليهم، فرموا له شيئاً آخر ففعل كذلك وتردّد مراراً كثيرة وهم يرمون له وهو يأخذه ويغيب ثم يعود من فوره حتى عجبوا منه وعلموا أن مثل هذا الطعام لا يأكله وحده لكثرته، فلمّا استرابوا حاله تبعوه، فوجدوه يرقى إلى حائط في سطح الجامع ثم ينزل إلى موضع خال صوب بيت خراب وفيه قطّ آخر أعمى وكل ما يأخذه من الطعام يحمله إلى ذلك القّط ويضعه بين يديه وهو يأكله، فعجبوا من تلك الحال، فقال ابن بابشاذ: إذا كان هذا حيواناً أخرس قد سخرّ الله له هذا القطّ وهو يقوم بكفايته ولم يحرمه الرزق، فكيف يضيع مثلي؟ ثم قطع الشيخ علائقه واستعفى من الخدمة، ونزل عن راتبه ولازم بيته واشتغاله، متوكلًا على الله تعالى.

* * *

٩ ـ وكان سعيد بن المسيّب يقول: ما أعزّت العباد نفسها بمثل طاعة الله، ولا أهانت نفسها بمثل معصية الله، ودعى إلى نيّف وثلاثين ألفاً ليأخذها فقال لا حاجة لي فيها ولا في بني مروان حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم(١).

١٠ ـ كان أبو حنيفة يجمع ربح تجارته فيشتري به لشيوخ المحدّثين ثم يدفع الباقي إليهم، ويقول أنفقوا ولا تحمدوا إلّا الله فإنّي ما أعطيتكم من مالي شيئاً ولكن من فضل الله يجريه على يدي.

١١ ـ وقال أبو يوسف: كان أبو حنيفة كثير الصدقة، وكان كل ما يستفيده

(١) تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٧.

لا يدع منه شيئاً إلا أخرجه، ولقد وجّه إليّ هدايا استوحشت من كثرتها، فشكوت ذلك لبعض أصحابه فقال لو رأيت هدايا بعث بها إلى سعيد بن أبي عروبة؟ وما كان يدع أحداً من المحدّثين إلّا برة برًا واسعاً[١].

١٢ ـ كان دخل الليث في كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله عليه درهماً قطّ بزكاة (لأنه كان يفرقها)[٢].

١٣ ـ قال يحيى القّطان: كان شعبة (ابن الحجّاج المحدّث) رقيقاً، يعطى السائل ما أمكنه وقال أبو قطن: كانت ثيابه لونها كالتراب.

١٤ ـ وهب المهدي له ثلاثين ألف درهم فقسمها، وأقطعه ألف جريب بالبصرة، فقدمها فلم يجد شيئاً يطيب له فتركها.

١٥ ـ وجاءه سليمان بن المغيرة يبكي وقال مات حماري وذهبت منّي الجمعة وذهبت حوائجي، قال بكم أخذته؟ قال بثلاثة دنانير، قال: عندي ثلاثة دنانير ما أملك غيرها، ثم قام ودفعها إليه.

١٦ ـ قال أحمد بن حنبل: كنّا نُخبر أن عيسى بن يونس سنةً في الغزو وسنة في الحج، فقدم بغداد في شيء من أمر الحصون، فأمر له بمال فأبى أن يقبل.

١٧ ـ قال ابن معين: رأيت على عيسى قباء محشوًا، وخفّين أحمرين، كان يلبس ذلك للغزو[٣].

١٨ ـ قال عبد الله بن الحكم (من أصحاب الدروس) للشافعي لما قدم مصر: إذا أردت أن تسكن البلد (يعني مصر) فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تتعزّز به، فقال له الشافعي: يا أبا محمد من لم تعزّه التقوى فلا عزّ له، ولقد ولدت بغزّة وربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياعاً قطّ[٤].

---

(١) ولاة قضاة مصر، ص ٣٤٣.
(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد للملك السعيد، ص ١٧.
(٣) الخيرات الحسان، ص ٤٣.
(٤) أسد الغابة، ج ١، ص ٣٦.

١٩ ـ وقال: أفلست ثلاث مرّات فكنت أبيع قليلي وكثيري حتى حلي ابنتي وزوجتي، ولم أستدن قط.

٢٠ ـ وكثيراً ما روى عن الشافعي أنّه فرّق هبات ضخمة في مجالس ورودها، ومدّ يده يميناً وشمالاً بما يرده من العطاء لا يبالي الدنيا بالةً.

٢١ ـ في ترجمة أبي عبد الله القرطبي صاحب التفسير المشهور أنّه كان مطّرحاً للتكلّف، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية.

٢٢ ـ ومحمد بن عبد الواحد المطرّز المعروف (بغلام ثعلب) كان اشتغاله بالعلوم واكتسابها، قد منعه من اكتساب الرزق والتحيّل له فلم يزل مضيّقاً عليه ـ وكانت صناعته التطريز ونسب إليها.

٢٣ ـ حدّثني أبي قال: ظللت منتسباً في الأزهر سنين كثيرة وأنا مجاور، ثم كان أوّل ما رتب لي من الجراية نصف رغيف في اليوم، فكنت أتناول منها رغيفاً كاملاً يوماً بعد يوم، ولما أجزت بالتدريس بقيت كذلك سنين أعلّم بالمجان حتّى انحلّ راتب عن عالم كبير فناله الذي يليه إلى أن وصل الدور إليّ فأخذت أربعين قرشاً صاغاً في الشهر كان يتناولها الذي أمامي ورفع إلى ما فوقها، وبقيت هكذا وأنا أحسب ما أتناوله بركة تدرّ الخير والغنى حتى وصلت إلى ثلاثة جنيهات في الشهر، وهي آخر مربوط كان يتناوله العالم بعد أن يال كسوة الشرف وهم علماء معدودون، إنّ راتب علماء الأزهر إلى زمن قريب كان ١٥٠ قرشاً في الشهر للعالم من الدرجة الأولى و١٠٠ قرش للدرجة الثانية و٧٥ قرشاً للثالثة، وهم غير علماء الشرف السابق ذكرهم فأولئك كانوا يبلغون الجنيهات الثلاثة بعد إفناء العمر وبعد الذكر.

٢٤ ـ وأقول: وأوّل ما نلت من الأزهر وأنا مجاور بعد سنين من انتسابي كان خمسة وعشرين مليماً في كل عام، وأوّل سنة قبضت هذه الملاليم في ختامها خيّل إليّ أنّ كنوز كسرى فتحت عليّ، فما إن تناولتها وأنا لا أصدّق أن أراها حتى طرت بها فرحاً إلى أبي والدنيا لا تسعني، فلمّا دخلت عليه ويدي ممسكة بها صحت به أبتِ أبتِ هذه ماهيتي، وبسطت كفّي بقروشي، فقال

رحمه الله: اليوم أسعد أيّامي، أخوك جاءني من قبلك وقد رقّي اليوم في كسوة الضابط، قم فاشتر لنا من راتبك وأكّلنا منه قبل أخيك، فطرت إلى السوق وأنا أتصوَّر أنَّ السوق كلّها صارت لي بملاليمي، وهكذا كانت سعادة العلم، يقنع العلماء به فيستغنون عن هذه الدنيا التي أبرقت وبرقها كلّه خلّب.

المحافظة الصادقة على الوظيفة:

٢٥ ـ في كتاب الشقائق النعمانية لعلماء الدولة العثمانية، أنَّ السلطان سليم خان أمر بقتل مائة وخمسين رجلًا من حفاظ الخزائن، فتنبّه لذلك المولى علاء الدين عليّ بن أحمد بن محمد الجمالي المفتي، فذهب إلى الديوان العالي، ولم يكن من عاداتهم أن يذهب المفتي إلى الديوان العالي إلا لحادث عظيم، فتحيّر أهل الديوان، ولما دخل الديوان سلّم على الوزراء فاستقبلوه وأجلسوه في صدر المجلس ثم قالوا له: أي شيء دعا المولى إلى المجيء إلى الديوان العالي؟ قال: أريد أن أدخل على السلطان، ولي معه كلام، فعرضوه على السلطان سليم خان فأذن له وحده، فدخل وسلّم عليه وجلس ثم قال: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وقد سمعت أنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلًا لا يجوز قتلهم شرعاً، فعليك بالعفو عنهم، فغضب السلطان، وكان صاحب حدّة، وقال: إنّك تتعرّض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك، قال: لا، بل أتعرَّض لأمر آخرتك وإنّه من وظيفتي، فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فعليك عقاب عظيم، فانكسرت عند ذلك ثورة غضبه، وعفا عن الكلّ، ثم تحدّث معه ساعة، ولمّا أراد أن يقوم، قال له: تكلّمت في أمر آخرتك، وبقي لي كلام متعلق بالمروءة، قال: السلطان وما هو؟ قال إنّ هؤلاء من عبيد السلطان، فهل يليق بعرض السلطنة أن يتكفّفوا الناس؟ قال: لا، قال: فقرّرهم في مناصبهم، فقبله السلطان وقال: إلّا أنّي أعذّبهم لتقصيرهم في خدمتهم، قال المولى هذا جائز، لأن التعزير مفوّض إلى رأى السلطان، ثم سلّم عليه وانصرف وهو مشكور.

٢٦ ـ ولهذا المولى حكاية أخرى مع السلطان سليم نفسه أنقذ فيها أربعمائة رجل من القتل بإيثاره الحق وتهالكه على نصرته أداءً لواجب وظيفته في محافظته على آخرة السلطان ابتغاء وجه الله ومصلحة الناس لا لعرض من الدنيا.

٢٧ ـ قال يزيد بن هارون: ما رأيت أورع من أبي حنيفة، رأيته جالساً يوماً في الشمس عند باب إنسان، فقلت له يا أبا حنيفة لو تحوّلت إلى الظلّ؟ فقال: لي على صاحب هذه الدار دراهم، ولا أحبّ أن أجلس في ظلّ فناء داره، قال يزيد: فأيّ ورع أكثر من هذا؟ وفي رواية أنه سئل لِمَ امتنع من الظلّ؟ فقال: لي على صاحب هذه الدراشيء فكرهت أن أستظلّ بظلّ حائطه فيكون ذلك جرّ منفعة، وما أرى ذلك على الناس واجباً، ولكن العالِم يحتاج أن يأخذ لنفسه من عمله بأكثر ممّا يدعو الخلق إليه[1].

٢٨ ـ مما يروى عن هبة الله بن صاعد الطبيب النصراني المعروف بامين الدولة ابن التلميذ أنَّ السلطان محمد بن محمد خوارزمشاه كان قد حصر بغداد فمرض وهو بعسكره ظاهر البلد، ومرض الخليفة المقتفى أبو عبد الله محمد بن المستظهر ببغداد، فأنفذ السلطان يلتمس الرئيس أمين الدولة ابن التلميذ، فأخرج إلى ظاهر المدينة فكان يداويه بظاهر بغداد ويداوي الخليفة ببغداد، فقال له وزير السلطان أيها الرئيس إنّي قد كنت عند السلطان، وذكرت له من فضلك وأدبك ورئاستك، وقد أمر لك بعشرة آلاف دينار فقال له: يا مولانا قد أُمر لي من بغداد باثني عشر ألف دينار، أفيأذن لي في قبولها السلطان؟ يا مولانا أنا رجل طبيب لا أتجاوز وظائف الأطبّاء وما يلزمهم ولا أعرف إلا ماء الشعير والنقوع وشراب البنفسج والنيلوفر (وهو ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة) ومتى أخرجت عن هذا لا أعرف شيئاً. وكان الوزير قد عرّض له في حديثه بما معناه أن يدبّر في اتلاف الخليفة، وقدّر سبحانه برء الخليفة والسلطان ووقع الصلح بينهما على ما اقترحه الخليفة، وهذا كان من عقل الرئيس أمين الدولة

(١) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٦٤١.

ودينه وأمانته فإنه كان يقول لا ينبغي للطبيب أن يداخل الملوك في أسرارهم، ولا يتجاوز ماء الشعير والنقوع والشراب فمتى جاوز هذا تلف وكان سبب هلاكه. وكان ينشد:

لكلّ امرىء من الناس حدّ　　وهلاك الفتى جواز الحدّ(١)

٢٩ ـ لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه طاوس التابعي إن أردت أن يكون عملك خيراً كلّه، فاستعمل أهل الخير، فقال عمر: كفى بها موعظة.

٣٠ ـ دخل عمرو بن عبيد على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ الله عزّ وجلّ يقفك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشرّ، وإن الأمّة خصماؤك يوم القيامة، وإنّ الله عزّ وجلّ لا يرضى منك إلّا بأن تعدل على الرعيّة. يا أمير المؤمنين، إنّ وراء بابك نيراناً تتأجّج من الجْور، والله ما يحكم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنّة نبيّه ﷺ، قال فبكى المنصور، فقال سليمان ابن مجلد وهو واقف على رأس المنصور: يا عمرو، قد شققت على أمير المؤمنين، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين من هذا؟ قال أخوك سليمان بن مجلد، قال عمرو: ويلك يا سليمان، إن أمير المؤمنين يموت، وإنّ كلّ ما تراه يفقد، وإنّك جيفة غداً بالفناء، لا ينفعك إلّا عمل صالح قدّمته، ولقرب هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قربك إذا كنت تطوى عنه النصيحة وتنهي من ينصحه، يا أمير المؤمنين إنّ هؤلاء اتخذوك سلّماً إلى شهواتهم، قال المنصور: فأصنع ماذا؟ أدع لي أصحابك أولّهم، قال أدعهم أنت بعمل صالح تحدثه، ومرْ بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس، واستعمل في اليوم الواحد عمالًا كلّما رابك منهم ريب أو أنكرت على رجل عزلته ووليّت غيره، فوالله لئن لم تقبل منهم إلّا العدل ليتقرّبنّ به إليك من لا نيّة له فيه(٢).

٣١ ـ قال الرشيد لليث لما قدم عليه: ما صلاح بلدكم؟ قال يا أمير

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٢٥٨.
(٢) الخيرات الحسان، ص ٤١.

المؤمنين، صلاح بلدنا إجراء النيل وصلاح أمره، ومن رأس العين يأتي الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت العين، قال صدقت يا أبا الحرث[1].

إيثارهم الحق

١ ـ قال عمر بن حبيب القاضي: حضرت مجلس الرشيد يوماً فجرت مسألة فتنازعها الخصوم وعلت الأصوات فيها، فاحتجّ بعضم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ، فدفع بعضهم الحديث، وزادت المدافعة والخصام، حتّى قال قائلون منهم، أبو هريرة متّهم فيما يرويه، وصرّحوا بتكذيبه، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم، فقلت أنا: الحديث صحيح عن رسول الله ﷺ، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن رسول الله ﷺ، فنظر إليّ الرشيد نظر مغضب، وانصرفت إلى منزلي فلم ألبث أن جاءني غلام فقال: أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنّط وتكفّن، فقلت اللّهم أنّك تعلم أنّي دفعت عن صاحب نبيك، وأجللت نبيّك أن يطعن على أصحابه فسلّمني منه، وأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسيّ، حاسر عن ذراعيه، بيده السيف، وبين يديه النطع، فلما بصر بي قال: يا عمر بن حبيب ما تلقّاني أحد من الدفع والردّ لقولي بمثل ما تلقّيتني به وتجرّأت عليّ، فقلت يا أمير المؤمنين إنّ الذي قلته ووافقت عليه وملت إليه وجادلت عنه إزراء على رسول الله ﷺ وعلى ما جاء به فإنه إذا كان أصحابه وَرُواة حديثه كذّابين، فالشريعة باطلة والفرائض والأحكام في الصلاة والصيام والنكاح والطلاق والحدود مردودة غير مقبولة فالله الله يا أمير المؤمنين أن تظن ذلك أو تصغي إليه وأنت أولى أن تغار لرسول الله ﷺ من الناس كلّهم، فلما سمع كلامي رجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله، أحييتني أحياك الله، أحييتني أحياك الله، وأمر له بعشرة آلاف درهم[2].

٢ ـ وحدّث الجاحظ: أن المعتصم غضب على رجل من أهل الجزيرة

(١) الرحمة الغيثية، ص ١٦٠.
(٢) تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٨.

الفراتية، وأحضر السيف والنطع، وقال له المعتصم صنعت كيت وكيت، وأمر بضرب عنقه، فقال له أحمد بن أبي دؤاد الإيادي القاضي: يا أمير المؤمنين، سبق السيف العذل، فتأنّ في أمره فإنّه مظلوم، قال فسكن قليلًا، قال ابن أبي دؤاد وغمرني البول فلم أقدر على حبسه، وعلمت أنّي لو قمت قتل الرجل، فجعلت ثيابي تحتى وبلت فيها حتى خلّصت الرجل، قال فلما قمت نظر المعتصم إلى ثيابي تحتي وبلت فيها حتى خلّصت الرجل، قال: فلما قمت نظر المعتصم إلى ثيابي رطبةً فقال: يا أبا عبد الله كان تحتك ماء؟؟ فقلت لا يا أمير المؤمنين، ولكنّه كان كذا وكذا، فضحك المعتصم ودعا لي، وقال: أحسنت بارك الله عليك، وخلع عليه وأمر له بمائة ألف درهم. وابن أبي دؤاد هذا هو الذي يقول فيه الكلبي: ابن أبي دؤاد روح كله من قرنه إلى قدمه.

٣ ـ وقد وردني كتاب «حسن المحاضرة»(١): أن الملك الكامل شهد عند القاضي ابن عين الدولة وهو في دست ملكه، فقال ابن عين: السلطان أنه لا تُقبل شهادته قال: أنا أشهد تقبلني أم لا؟ فقال القاضي لا، ما أقبلك، وكيف أقبلك و«عجيبة» تطلع إليك بجنكها كل ليلة وتنزل ثاني يوم بكرة وهي تتمايل على أيدي الجواري وابن الشيخ من عندك؟ أيحسن ما نزلت؟ وكانت عجيبة هذه مغنية أولع بها الملك، فكانت تحضر إليه ليلًا وتغنّيه بالجنك على الدفاف في مجلس يحضره ابن شيخ الشيوخ، فقال له السلطان يا كيواج، اشهدوا عليّ أني قد عزلت نفسي، ونهض فقام ابن الشيخ إلى الملك الكامل وقال: المصلحة أعادته لئلا يقال لأي شيء عزل القاضي نفسه؟ وتطير الأخبار إلى بغداد ويشيع أمر عجيبة. ونهض إلى القاضي وترضّاه وعاد إلى القضاء.

٤ ـ وكان استدّارّ السلطان الصالح فخر الدين عثمان ابن شيخ الشيوخ (المذكور في القصة السالفة) وإليه أمر المملكة، فبنى على ظهر مسجد «طبلخانة» وبقيت تضرب هناك، فلما ثبت هذا عند القاضي عز الدين بن عبد السلام، حكم بهدمها، وأسقط فخر الدين من منصبه، وعزل نفسه من

(١) توالي التأسيس، ص ٦٧.

القضاء، وقد ظن فخر الدين أن هذا الحكم لا يؤثر فيه، ولكن الخليفة أمضاه كما سيجيء.

ولعزّ الدين هذا جرأة في الحق تكاد تكون ثورة على السلطة، فإنّه هو الذي قام القومة الكبرى على أمراء المملكة بالديار المصرية وهم الذين يسمّون بالممالك وصمّم على أن يبيعهم ويصرف ثمنهم في مصالح المسلمين بحجّة أن الملك الصالح الأيّوبي اشتراهم من بيت المال، وشايعه الحقّ فنفذت كلمته وهزّ بجرأته هذه تاريخ مصر هزّة الحق وسترد هذه القصة.

٥ ـ وقد ورد في كتاب «الخطط» للمقريزي[١]: أن الدار المعروفة (بالسبع قاعات) في مصر وقفها الوزير علم الدين بن زنبور، فلمّا قبض عليه الأمير صار غمتش، حلّ أوقافه ووعد بها (فطلونيك) أم السلطان صالح بن محمد قلاوون، وأراد قاضي القضاة عزّ الدين بن بدر الدين ابن جماعة على حلّها بحجة أنّها ملك السلطان كما جرى في وقفية كريم الدين، فأبى عليه القاضي، بحجّة أنّ ابن زنبور كان يتصرّف في ماله الذي اكتسبه من المتجر، فما وقفه وحكم قضاة الإسلام بصحتّه لا سبيل إلى حلّه وساعده القاضي الحنبلي، فاحتجّ عليهما الأمير بما لقّنه به الشريفان عدوّا ابن زنبور، فقال له القاضي: إن كنت تبحث معنا في هذه المسألة بحثنا معك، وإن كان قد ذكرها لك أحد فليحضر حتى نباحثه فيها، فإن ما ذكره لك يقصد به مصادرة الناس وأخذ أموالهم، ووافقه على ذلك القضاة الثلاثة، فشقّ هذا الأمر على الأمير وبعثت أم السلطان تعرّف القاضي أنها وُعدت بها. وتؤكّد عليه ألّا يعارضها في حل أوقاف ابن زنبور، فقبح لها هذا وخوّفها حتى كفّت عنه، ولحق الأمير مرض حتى خيف عليه، وبقيت (السبع قاعات) وقفاً لذرية ابن زنبور.

٦ ـ ومثل هذا ما رواه صاحب سراج الملوك على مقدمة ابن خلدون قال: أن المنصور بن أبي عامر ملك الأندلس احتاج أن يأخذ أرضاً محبّسة ويعاوض عنها خيراً منها، فاستحضر الفقهاء في مصره واستفتاهم فأفتوا بأنه لا

(١) الخيرات الحسان، ص ٤٤.

يجوز، فغضب السلطان عليهم وأرسل لهم وزيراً مشهوراً بالحدّة يوبّخهم، فردوا عليه بما ردّه وانصرفوا، فما بلغوا باب القصر حتى نادتهم الرسل وتلقّتهم الوزراء بالإعظام، ورفعوا منازلهم، واعتذروا إليهم عن أمير المؤمنين أنّه يستجير بالله ويندم على ما كان منه، وهو مستبصر في تعظيمهم وقضاء حقوقهم.

٧ ـ وأراد (قطز) أن يأخذ من الناس شيئاً ليستعين به على قتال التتر، فجمع العلماء، وحضر الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام فقال: لا يجوز أن يؤخذ من الرعيّة شيء حتى لا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعون مالكم من الحوائص في الآلات، ويتقصر كل منكم على فرسه وسلاحه، ويتساوون في ذلك هم والعامّة، وأما أخذ أموال العامة على بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة، فلا.

وقطز هذا هو الملقب بالملك المظفّر الثالث في دولة المماليك وكانت بغداد سقطت في مدة سلفه على أيدي التتار وزحفوا منها إلى بلاد الإسلام فلقيهم بالجيوش المصرية في «عين جالوت» فانتصرت عليهم وهزم التتر شرّ هزيمة.

٨ ـ لمّا كان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز أميراً على العراق، أرسل إلى عامله بالبصرة أن يوفد إليه وفداً، فأرسل إلى جماعة يأمرهم بذلك، وأرسل إلى عمرو بن عبيد فامتنع، فأعاد سؤاله، فقال: إن أول ما يسألني عنه سيرتك، فما تراني قائلاً؟ فكفّ عنه.

٩ ـ عن المزّني سمعت الشافعي يقول الناس عيال على أبي حنيفة في القياس، ولدقة قياسات مذهبه كان المزني يكثر من النظر في كلامه، حتى حمل ذلك ابن أخته الإمام الطحاوي على القول بأنّه انتقل من مذهب الشافعي إلى مذهب أبي حنيفة ـ ويظهر أن الشافعي لاحظ هذا في المُزَني فقد تنبّأ له بأن سيكون أقيس أهل زمانه.

١٠ ـ حدّثني صديقي الكريم محمد فهمي الناضوري باشا عن أحمد أفندي بدوي عن أبيه عن جدّه وكان من الشيوخ بالأزهر في زمني الخديوي إسماعيل قال: لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة وتوالت الهزائم على مصر لوقوع الخلاف بين قوّاد جيوشها، ضاق صدر الخديوي لذلك، فركب يوماً مع

شريف باشا وهو مُحرج فأراد أن يفرج عن نفسه فقال لشريف باشا ماذا تصنع حينما تلمّ بك ملمّة تريد أن تدفعها؟ فقال يا أفندينا إنّ الله عوّدني إذا حاق بي شيء من هذا أن ألجأ إلى صحيح البخاري يقرأه لي علماء أطهار الأنفاس فيفرج الله عني، قال: فكلّم شيخ الجامع الأزهر وكان الشيخ العروسي فجمع له من صلحاء العلماء جمعاً أخذوا يتلون في البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر، قال ومع ذلك ظلّت أخبار الهزائم تتوالى، فذهب الخديوي ومعه شريف باشا إلى العلماء وقال لهم محنقاً: إمّا أنّ هذا الذي تقرأونه ليس صحيح البخاري، أو أنّكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح؟ فإن الله لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئاً، فوجم العلماء لذلك، وابتدره شيخ من آخر الصفّ يقول له (منك يا إسماعيل، فإنا روينا عن النبي ﷺ أنه قال (لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) أو كما قال[1] فزاد وجوم المشايخ وانصرف الخديو ومعه شريف باشا ولم ينبسا بكلمة، وأخذ العلماء يلومون القائل ويؤنّبونه، فبينماهم كذلك إذا بشريف باشا قد عاد يسأل أين الشيخ القائل للخديو ما قال؟ فقال أنا، فأخذه وقام، وانقلب العلماء بعد أن كانوا يلومون الشيخ يودّعونه وداع من لا يأملون أن يرجع وسار شريف باشا بالشيخ إلى أن دخلا على الخديو في قصره، فإذا به قاعد في البهو، وأمامه كرسيّ أجلسَ عليه الشيخ، وقال له أعد يا أستاذ ما قلته لي في الأزهر، فأعاد الشيخ كلمته وردّد الحديث وشرحه، فقال له الخديو وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء؟ قال له يا أفندينا: أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يبيح الربا؟ أليس الزنا برخصة؟ أليس الخمر مباحاً؟ أليس أليس وعدّد له منكرات تجرى بلا إنكار، وقال فكيف تنتظر النصر من السماء؟ قال إذن فما ذنب البخاري وما حيلة العلماء؟ ففكّر الخديو مليّا وأطرق طويلًا ثم قال له صدقت صدقت، وأمر فرتّبت له في (الرزنامجة) ثلاثون جنيهاً، وعاد الشيخ بعد هذا إلى الأزهر وإخوانه قد يئسوا منه، فكأنما قد ولد جديداً.

---

(١) طبيب مصري، جريدة المقطّم تاريخ ٥/ ٢/ ١٩٣٥.

ويقول سيّدنا عمر في تفسير قول الشيخ للخديوي ما مفاده:

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقّاص قائده الذي وجهه لفتح فارس قال:

«أما بعد فإني آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال، فإنّ تقوى الله أفضل العدّة على العدوّ وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوّكم، فإنّ ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوّهم، وإنّما ينصر المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولاعدّتنا كعدّتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوّة، وإلّا تنتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوّتنا، فاعلموا أنّ عليكم في سيركم حفَظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله»... - فمن هذا الكتاب يظهر السرّ واضحاً في سقوط المسلمين وتهاوى نجومهم، لا هم يعملون بعمل أهل الدنيا فيعدّوا ما استطاعوا من قوصة ويزاحموا أبناءها بالعلم والعمل والكشف عن أبواب العزّة والسطوة والأخذ باسبابها وتولّى هذه الأسباب ولاء من يراها تنتج له العزّة والبسطة فهو يمعن فيها ويجدّ للمزيد منها ومسابقة من يسبقه إليها ولا هم يرجعوا إلى عزّ التقوى واستنزلوا النصر من السماء بأعمال الصالحين وإخلاص المؤمنين، والله قد وعد أن ينصرهم وكان وعده مفعولًا، فترانا اليوم في الدنيا ونحن منها على هون بعد أن كان آباؤنا السادة والذادة ترانا كما قال الحق تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾.

تشدّدهم فيما يرون حقاً

١ - قال أبو ذرّ: لو وضعتم الصمصامة على هذه، وأشار إلى قفاه ثم ظننتُ أني أنفذ كلمة سمعتها عن النبي ﷺ قبل أن تجيزوا عليّ لأنفذتها كما أورد البخاري.

٢ ـ وكان لسعيد بن المسيّب التابعي العظيم رأى في البيعة لولي العهد، لا يراها في وجود الوالي الحديث فهمه على وجه صحّ عنده، واعتقد أنّه مقصود الحديث، وقد آذاه الولاة في سبيل هذا، وثبت على رأيه إلى أيام عبد الملك بن مروان، أراد أن يبايع لابنه الوليد وكتب لولاة الأمصار بأخذ البيعة له، قال يحيى بن سعيد: كتب هشام بن إسماعيل وإلى المدينة إلى عبد الملك بن مروان إنّ أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلّا سعيد بن المسيّب، فكتب أنْ أعرضه على السيف، فإن مضى، فاجلده خمسين جلدة وطف به أسواق المدينة، فلمّا قدم الكتاب على الوالي، دخل سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله على سعيد بن المسيّب وقالوا: جئناك في أمر، قد قدم كتاب عبد الملك إن لم تبايع ضربتْ عنقك، ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثاً فأعطنا إحداهن فإنّ الوالي قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب فلا تقل، لا، ولا نعم، قال، يقول الناس بايع سعيد بن المسيّب، ما أنا بفاعلٌ وكان إذا قال لا، لم يستطيعوا أن يقولوا نعم، قالوا، فتجلس في بيتك ولا تخرج إلى الصلاة أياماً، فإنّه يقبل منك إذا طلبك في مجلس فلم يجدك أمسك عنك، قال أفرقاً من مخلوق؟ ما أنا بمتقدّم شبراً ولا متأخر، فخرجوا، وخرج إلى صلاة الظهر فجلس في مجلسه الذي كان يجلس فيه: فلمّا صلّى الوالي، بعث إليه فأتى به، فقال: إنّ أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك، قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين، فلمّا رآه لم يجب، أخرجه إلى السدّة، فمدّت عنقه وسلّت السيوف، لما رآه قد مضى، أمر به فجرّد، فإذا عليه ثياب شعر، فقال: لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن، فضربه خمسين سوطاً ثم طاف به أسواق المدينة، فلمّا ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال: إنّ هذه الوجوه ما نظرتُ إليها منذ أربعين سنة، ومنعوا الناس أن يجالسوه، وكان من ورعه إذا جاء إليه أحد يقول له قم من عندي، كراهيةَ أن يضرب بسببه، قال مالك رضي الله عنه: بلغني أنّ سعيد بن المسيّب كان يلزم مكاناً من المسجد لا يصلّي من المسجد في غيره، وأنّه ليالي صنع به عبد الملك ما صنع، قيل له، أن يترك الصلاة فيه فأبى إلا أن يصلي فيه، وكان

يقول لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لكيلا تحبط أعمالكم.

٣ ـ وقال الفضيل بن عياض وناهيك به جلالة: كان أبو حنيفة معروفاً بالفقه مشهوراً بالورع، ومن عظيم ورعه ما قال الإمام عبد الله بن المبارك أنّه أراد شراء أمة فمكث عشرين سنة يستخبر ويشاور من أيّ سبي يشتري؟

ومن ذلك أيضاً أنه ترك لحم الغنم لما فقدت شاة في الكوفة إلى أن علم موتها، لأنه سأل عن أكثر ما تعيش؟ فقيل له سبع سنين، فترك أكل لحمها سبع سنين تورّعاً منه، لاحتمال أن تبقى تلك الشاة الحرام فيصادف أكل شيء منها فيظلم قلبه، إذ هذا هو شأن أكل الحرام وأن انتفى الإثم للجهل بعين الحرام[1].

٢٢٤ ـ وفي «ترجمة إمام الحرمين» أنّ أباه (أبا محمد الجويني) كان في أوّل أمره ينسخ بالأجرة، فاجتمع له من كسب يده شيء اشترى به جارية موصوفة بالخير والصلاح، ولم يزل يطعمها من كسب يده أيضاً إلى أن حملت بإمام الحرمين وهو مستمرّ على ترتبيتها بكسب الحلّ فلما وضعته أوصاها ألّا تمكّن أحداً من إرضاعه، فاتفق أنّه دخل عليها يوماً وهي متألمة والصغير يبكي وقد أخذته امرأة من جيرانهم وشاغلته بثديها فرضع منها قليلًا، فلما رآه شقّ عليه، وأخذه إليه ونكس رأسه ومسح بطنه وأدخل إصبعه في فيه ولم يزل يفعل ذلك حتى قاء جميع ما شربه، وهو يقول يسهل عليّ أن يموت ولا يفسد طبعه بشرب لبن غير أمّه. ويحكى عن إمام الحرمين أنّه كان يلحقه بعض الأحيان مدة في مجلس المناظرة فيقول، هذا من بقايا تلك الرضعة.

وقد كان أبو المعالي الجوينيّ إمام الحرمين المذكور ترك خراسان كلّها، وهاجر منها إلى مكة أربع سنين إذ كان وزيرها عميد الملك كثير الوقيعة في الشافعيّ وخاطب «طغرلبك» في لعن الرافضة على منابر خراسان فأمر له بذلك،

(١) البيهقي، المحاسن والمساوىء، ج ٢، ص ٢٨.

فأمر بلعنهم وأضاف إليهم الأشعرية قتال الملك المؤيد فأنف من ذلك أئمة خراسان منهم أبو القاسم القشيري وأبو المعالي الجويني وأقام بمكة أربع سنين ولهذا لقّب إمام الحرمين، وسترى سرور نظام الملك واعتزازه به حتى بنى له المدرسة النظامية بنيسابور.

إقرارهم للحق

١ ـ قال محمد بن جرير: لم يكن أحد له أصحاب معروفون حرّروا فتياه ومذهبه في الفقه غير ابن مسعود، وكان يترك مذهبه وقوله لقول عمر، وكان لا يكاد يخالفه في شيء من مذاهبه ويرجع من قوله إلى قوله، وقال الشعبي: كان عبد الله لا يقنت، ولو قنت عمر لقنت عبد الله.

٢ ـ وعن أبي بكر الهذلي قال: بعث عمر بن هبيرة إلى الحسن البصريّ وابن سيرين والشعبيّ فقدموا عليه وهو بواسط، وكان رجلًا يحبّ حسن السيرة ويسمع من الفقهاء، فلما دخلوا عليه ألطفهم وأمر لهم بنُزُل وحسن ضيافة، فأقاموا على بابه شهراً، فغدا عليهم حسن بن هبيرة ذات يوم فقال: إن الأمير داخل عليكم، فجاء يتوكّأ على عكّاز له حتى دخل، فسلّم ثم قال: إن يزيد بن عبد الملك عبد من عبيد الله أخذ عهودهم وأعطاهم عهده كي يسمعوا له ويطيعوا، وإنه يأتيني منه كتب أعرف في تنفيذها الهلكة، فإن أطعته عصيت الله، فماذا تأمرون؟ فقال الحسن: يا ابن سيرين أجب الأمير، فسكت، فقال للشعبي: أجب الأمير، فتكلّم بكلام هيبة، فقال يا أبا سعيد ما تقول؟ فقال: أمّا إذ سألتني فإنّه يحقّ عليّ أن أجيبك، إن الله جل وعز مانعك من يزيد ولن يمنعك يزيد من الله، وإنه يوشك أن ينزل بك ملك من السماء فيستنزلك من سريرك وسعة قصورك إلى باحة دارك ثم يخرجك من باحة دارك إلى ضيق قبرك ثم لا يوسّع عليك إلّا عملك، يا ابن هبيرة إن أنهاك عن الله جلّ وعزّ فإنّما جعل الله جلّ وعزّ السلطان ناصراً لعباده ودينه، فلا تركبوا عباد الله بسلطان الله فتذلّوهم فإنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، يا ابن هبيرة لا تأمننّ أن

ينظر الله جلّ وعزّ إليك عند أقبح ما تعمل في طاعته نظرة مقت فيغلق عنك باب الرحمة، يا ابن هبيرة إنّي قد أدركت أناساً من صدور هذه الأمّة كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم، وكانوا لحسناتهم ألّا تُقبل أخوف منكم لسيئاتكم ألّا تُغفر وكانوا لثواب الآخرة أبصر منكم لمتاع الدنيا بأعينكم، وكانوا عن الدنيا وهي عليهم مقبلة أشدّ إدباراً من إقبالكم عليها وهي عنكم مدبرة، يا عمر أنّي أخوّفك مقاماً خوفّكه الله جلّ وعزّ من نفسه فقال: «ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد» يا عمر إن تكن مع الله على يزيد يكفك الله بائقته، وإن تكن مع يزيد على الله يكلك إليه، قال، فبكى ابن هبيرة، وقام في عبرته وانصرف، وأرسل إليهم من الغد بجوائزهم، وأعطى الحسن أربعة آلاف درهم، وابن سيرين والشعبي ألفين، فخرج الشعبي إلى المسجد وقال، من قدر منكم أن يؤثر الله جلّ وعزّ على خلقه فليفعل، فإنّ ابن هبيرة أرسل إليّ وإلى الحسن وابن سيرين فسألنا عن أمر الله ما علم الحسن شيئاً جهلته، ولا علمت شيئاً جهله ابن سيرين، ولكنّا أردنا وجه ابن هبيرة فأقصانا الله جلّ وعزّ وقصّر بنا، وأراد الحسن وجه الله فحباه تبارك اسمه وزاده.

٣ ـ وقال الليث بن سعد: كنت أسمع بذكر أبي حنيفة واتمنّى رؤيته، فإنّي بمكّة إذ رأيت الناس مجتمعين على شخص، فسمعت إنساناً ينادي يا أبا حنيفة. فعلمت أنّه هو، فسأله رجل فقال له: إنّ لي مالاً كثيراً، وولداً أزوّجه وأنفق عليه المال الكثير فيطلّق فيذهب مالي، فهل لي من حيلة؟ قال، أدخل به سوق الرقيق واشتر من يعجبه ثم زوّجه إيّاها، فإن طلّقها رجعت مملوكة لك، وإن أعتقها لم ينفذ عتقه، قال الليث فوالله ما أعجبني جوابه كما أعجبني سرعة جوابه.

٤ ـ وقال الأوزاعي لابن المبارك: من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة؟ فأراه مسائل عويصة من مسائله، فلمّا رآها منسوبة للنعمان بن ثابت قال: من هذا؟ قلت شيخ لقيته بالعراق، قال هذا نبيل من المشايخ، اذهب فاستكثر منه، قلت هذا أبو حنيفة الذي نهيتَ عنه، ثم لمّا اجتمع بأبي حنيفة بمكّة جاراه في تلك المسائل، فكشفها أبو حنيفة له بأكثر مما كشفها ابن

المبارك عنه، فلمّا افترقا، قال الأوزاعي لابن المبارك، غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله وأستغفر الله تعالى لقد كنت في غلط ظاهر، إلزم الرجل فإنّه بخلاف ما بلغني عنه.

٥ ـ قال يحيى بن الليث: باع رجل من أهل خراسان جمالاً على مرزبان المجوسي وكيل أم جعفر زبيدة زوج الرشيد بثلاثين ألف درهم فمطله بثمنها وعوّقه عن سفره، فطال ذلك على الرجل، فأتى إلى بعض أصحابه وشاوره كيف يعمل؟ فقال: إذهب إلى مرزبان وقل له: اعطني ألف درهم وأحيل عليك بالمال الباقي وأسافر إلى خراسان، فإذا فعل فعرّفني حتى أشير عليك، فأتى إلى مرزبان وقال ذلك، فأعطاه ألف درهم فرجع إلى الرجل فأخبره، فقال له: عد إليه وقل له إذا ركبت غداً فاجعل طريقك على القاضي حتى أوكّل رجلًا يقبض المال منك في دفعات وأروح أنا إلى خراسان، فإذا جاء وجلس إلى القاضي فادّع بمالك، فإذا أقرّ حبسه القاضي وأخذت مالك منه، فرجع الخراساني إلى مرزبان وسأله فذلك فأجابه وقال: غداً انتظرني بباب القاضي، فلما ركب من الغد قام إليه الرجل وقال: إن رأيت أن تنزل إلى القاضي حتى أوكّل بقبض المال وأروح أنا إلى خراسان، فإذا جاء وجلس إلى القاضي فادّع بمالك، فإذا أقرّ حبسه القاضي وأخذت مالك منه، فرجع الخراساني إلى مرزبان وسأله ذلك فأجابه وقال: غداً انتظرني بباب القاضي، فلما ركب من الغد قام إليه الرجل وقال: إن رأيت أن تنزل إلى القاضي حتى أوكّل بقبض المال وأروح؟ فنزل مرزبان فتقدّما إلى القاضي وكان «حفص بن غياث» فقال الرجل: أصلح الله القاضي، لي على هذا تسعة وعشرون ألف درهم، قال له القاضي: ما تقول؟ قال مرزبان: صَدَقَ، أصلح الله القاضي، قال: قد أقرّ لك، قال: يعطيني مالي وإلّا فالحبس، فقال القاضي لمرزبان: ما تقول؟ قال: هذا المال على السيّدة أم جعفر، قال: له حفص يا أحمق تقرّ ثم تقول هذا على السيّدة؟ ما تقول يا رجل قال: إن أعطاني مالي وإلا حبسته، فقال حفص: يا مرزبان ما تقول؟ قال: المال على السيدة قال حفص: خذوا بيده إلى الحبس، فلمّا حبس، بلغ الخبر

إلى أم جعفر فغضبت، وبعثت إلى «السنديّ» وقالت وجّه بمرزبان إليّ وعجّل، فأسرع السنديّ وأخرجه من الحبس، وبلغ الخبر إلى حفص أن مرزبان قد أخرج، فقال: أحبس أنا ويخرج السندي؟ والله لا جلست للقضاء أو يردُّ مرزبان إلى الحبس، وأغلق باب بيته، فسمع السنديّ ذلك فجاء إلى السيدة أم جعفر فقال: الله الله فيّ، فإن حفصاً لا تأخذه في الله لومة لائم وأخاف من أمير المؤمنين الرشيد يقول لي بأمر من أخرجته؟ ردّية إلى الحبس، وأنا أكلّم حفصاً فيه، فأجابته وردته إلى الحبس، وقالت أم جعفر للرشيد: قاضيك هذا أحمق، حبس وكيلي واستخف به، اكتب إليه ومره لا ينظر في الحكم عليه، فأمر لها بالكتاب، وبلغ حفصاً ذلك فقال للرجل: احضر لي شهوداً لأسجّل لك على المجوسي بالمال، وجلس حفص وسجّل على المجوسي فجاء خادم السيّدة ومعه كتاب الرشيد فقال: هذا كتاب أمير المؤمنين فقال له حفص: مكانك، نحن في حكم شرعيّ حتى نفرغ منه، فقال: كتاب أمير المؤمنين، فقال: اسمع ما يقال لك، فلمّا فرغ حفص من السجل أخذ الكتاب من الخدام وقرأه وقال: اقرأ على أمير المؤمنين السلام، وأخبره أن كتابه ورد وقرأته وقد أنفذت الحكم عليه، فقال الخادم: قد عرفتُ والله ما صنعت، أبيتَ أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى تفرغ ممّا تريد والله لأخبرنّ أمير المؤمنين بما فعلت، فقال له حفص: قل له ما أحببت فجاء الخادم وأخبر هارون الرشيد بذلك، فضحك وقال للحاجب، مر لحفص ابن غياث بثلاثين ألف درهم، فركب يحيى بن خالد فاستقبل حفصاً منصرفاً عن مجلس الحكم، فقال أيها القاضي، قد سررتَ أمير المؤمنين اليوم وقد أمر لك بثلاثين ألف درهم، فما كان السبب في هذا؟ فقال حفص تمّم الله سرور أمير المؤمنين وحفظه وكلأه، ما زدت على ما أفعل كل يوم، قال ومع ذاك؟ قال لا أعلم إلّا أنّني سجّلت على مرزبان المجوسي بمال وجب عليه فقال يحيى فمن هذا سرّ أمير المؤمنين، فقال حفص الحمد لله كثيراً، من قام بحقوق الشريعة ألبسه الله رداء المهابة.

إداء الحق مع رعاية الأدب

١ ـ عن لؤلؤة خادم الرشيد قال: جرى بين الرشيد وبنت عمه زبيدة كلام فقال هارون، أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنّة ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا، فكتب إلى البلدان فاستحضر علماءها إليه، فلمّا اجتمعوا جلس لهم فسألهم فاختلفوا، وبقي شيخ لم يتكلّم وكان في آخر المجلس، وهو الليث بن سعد، قال: فسأله، قال: إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلّمته، فصرفهم فقال، يدنيني أمير المؤمنين، فأدناه، قال: أتكلم على الأمان؟ قال نعم، فأمر باحضار مصحف فأحضر، فقال تصفّحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها ففعل، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ قال: أمسك يا أمير المؤمنين، قُلْ والله فاشتدّ ذلك على هارون، فقال يا أمير المؤمنين، الشرط أملك، فقال والله حتى فرغ من اليمين، قال قل إنّي أخاف مقام ربّي، فقال ذلك، فقال يا أمير المؤمنين، فهي جنّتان وليست بجنّة واحدة، قال: فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر، فقال له الرشيد: أحسنت، وأمر له بالجوائز والخلع، وأمر له باقطاع الجيزة ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره وصرفه مكرّماً(١).

هذا تصرّف يدل على جمال العلم، روعي فيه الحقّ والأدب معاً، ترى الليث عرف وجه الفتوى وهو أن الطلاق لا يقع إذا كان الرشيد ممّن يخاف مقام ربّه، ورأى في نفسه أنه لا يبيح لها أن يطلق الفتوى على علاتّها حتى يتوثق من الشرط وهو خوف الله تعالى، ويكون هذا بتحليف الرشيد حتى تطمئنّ نفس الإمام إلى أن فتواه صادفت حقاً، فصرف من في مجلس الخليفة حتى لا يكون تحليفه بمرأى منهم، ولا تأخذ الرشيد نفسه كما قد همّت حين أراد تحليفه لو لم يذكّره بشرطه عليه أنّ له الأمان منه حتى سكن، ثم لم تكن فتوى الإمام خلجة نفس بل من القرآن نفسه ولذلك أقرأه المصحف حتى آية ﴿ولمن

---

(١) الرحمة الغيثية، ص ٨.

خاف مقام ربه جنّتان﴾ فاطمانّ بذلك الرشيد وعرف أنه يمسك حرمه على حلّ صحيح بنص قاطع من كلام الله ـ وهذه موهبة الحق في غالب أحوالها لا تنفك عن حسن الأدب عند من عقل وعرف.

٢ ـ قال يحيى بن عبد الصمد: خوصم موسى الهادي أمير المؤمنين إلى أبي يوسف في بستانه، فكان الحكم في الظاهر لأمير المؤمنين، وكان الأمر على خلاف ذلك، فقال أمير المؤمنين لأبي يوسف: ما صنعت في الأمر الذي يُتنازع إليك فيه؟ قال: خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلّف أمير المؤمنين أنّ شهوده شهدوا على حقّ، فقال له موسى وترى ذلك؟ قال: قد كان ابن أبي ليلى يراه، قال: فاردد البستان إليه.

وهذا أيضاً براعة حذقة من القاضي أبي يوسف، عرف كيف يصل بالحق الذي رآه إلى صاحبه من غير أن يجرح صاحب الدعوى الذي قامت له البيّنة وأظهرت القضاء في جانبه، فإنّه جنح إلى طريقة يعرف أنفة الخليفة أن يسلكها وهي الحلف على صدق شهوده، ثم لم يقيّد القاضي نفسه بهذا المبدأ ليأخذ عليه في غيرها، فلمّا سئل عنه قال إن ابن أبي ليلى يراه، وهذا جواب يحتمل أن القاضي يراه أيضاً ويسير عليه، أو لا يراه وإنّما هو يحكى طرق القضاة، وفي هذا الاحتمال سارع الهادي فنزل عن البستان إلى صاحبه، وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء من أصحاب العقول الرشيدة تهديها إلى الحق من أيسر السبل وألطف المنافذ، وفيه المثل الواضح للفرق بين عالم اللفظ وعالم النفس.

٣ ـ روى عمر بن هياج بن سعيد قال: أتت امرأة يوماً شريك ابن عبد الله قاضي الكوفة وهو في مجلس الحكم، فقالت: أنا بالله ثم بالقاضي قال من ظلمك؟ قالت الأمير موسى بن عيسى ابن عمّ أمير المؤمنين، كان لي بستان على شاطىء الفرات فيه نخل ورثته عن أبي، وقاسمت إخوتي وبنيت بيني وبينهم حائطاً، وجعلت فيه رجلًا فارسيّاً يحفظ النخل ويقوم به. فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتي وساومني ورغّبني فلم أبعه، فلمّا كان هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام وفاعل فاقتلعوا الحائط، وأصبحت لا أعرف من نخلي شيئاً، واختلط بنخل إخوتي، فقال: يا غلام أحضر طينة فأحضرها

فختمها، وقال لها: امض إلى بابه بالختم حتى يحضر معك، فجاءت المرأة بالطينة المختومة، فأخذها الحاجب ودخل على موسى فقال، قد أعدى القاضي عليك، وهذا ختمه، فقال: ادع لي صاحب الشرطة فدعا به، فقال: امض إلى شريك وقل، يا سبحان الله، ما رأيت أعجب من أمرك، امرأة ادَّعت دعوى لم تصحّ، أعديتها عليّ؟ قال صاحب الشرطة: إن رأى الأمير أن يعفيني من ذلك؟ فقال: امض ويلك، فخرج وقال لغلمانه: إذهبوا وأدخلوا لي إلى حبس القاضي بساطاً وفراشاً وما تدعو الحاجة إليه ثم مضى إلى شريك، فلمّا وقف بين يديه أدّى الرسالة، فقال القاضي لغلام المجلس: خذ بيده فضعه في الحبس، فقال صاحب الشرطة: والله قد علمتُ أنك تحبسني فقدّمت ما أحتاج إليه إلى الحبس. وبلغ موسى بن عيسى الخبر فوجّه الحاجب إليه، وقال له: رسولٌ أدى رسالة، أيّ شيء عليه؟ فقال شريك: إذهبوا به إلى رفيقه، إلى الحبس، فحبس، فلمّا صلّى الأمير موسى العصر، بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثي وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضي شريك، وقال لهم امضوا إلى القاضي وأبلغوه السلام وأعلموه أنه استخفّ بي، وأنّي لست كالعامّة، فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر، فأبلغوه الرسالة، فلمّا انقضى كلامهم، قال لهم، ما لي أراكم جئتموني في غَثَرة من الناس فكلمتموني؟ من ههنا من فتيان الحيّ؟ فأجابه جماعة من الفتيان، فقال: ليأخذ كلّ واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس، ما أنتم إلّا فتنة، وجزاؤكم الحبس، قالوا له، أجاد أنت؟ قال حقاً حتى لا تعودوا برسالة ظالم، فحبسهم فركب موسى بن عيسى في الليل إلى باب السجن وفتح الباب وأخرجهم كلّهم، فلمّا كان الغد وجلس شريك للقضاء، جاءه السجّان فأخبره، فدعا بالقمطر فختمه ووجّه به إلى منزله، وقال لغلامه، الحق بثقلي إلى بغداد، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم، ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلدناه لهم، ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى فركب في موكبه ولحقه وجعل يناشده الله ويقول، يا أبا عبد الله تثبّت، انظر، إخوانك يحبسهم! دع أعواني، قال: نعم، لأنهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم المشي فيه، ولست

ببارح أو يردّوا جميعاً إلى الحبس وإلّا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي فأستعفيه مما قلدني، فأمر موسى بردّهم جميعاً إلى الحبس وهو واقف والله مكانه حتى جاءه السجّان فقال: قد رجعوا جميعاً إلى الحبس، فقال لأعوانه: خذوا بلجام دابّته بين يديّ إلى مجلس الحكم فمرّوا بين يديه حتى أدخل المسجد، وجلس في مجلس القضاء، فجاءت المرأة المتظلّمة فقال: هذا خصمك وقد حضر، فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه: قبل كلّ أمر أنا قد حضرت، أولئك يخرجون من الحبس، فقال شريك: أمّا الآن فنعم، أخرجوهم من الحبس، فقال: ما تقول فيما تدّعيه هذه المرأة؟ قال: صدقت، قال تردّ ما أخذت منها وتبني حائطاً سريعاً كما كان، قال: أفعل ذلك كلّه، قال لها: أبقي لك عليه دعوى؟ قالت: بيت الرجل الفارسيّ ومتاعه، قال موسى بن عيسى: ويردّ ذلك كله، قال: أبقي لك عليه دعوى؟ قالت: لا وبارك الله عليك وجزاك خيراً، قال: قومي، فقامت من مجلسه، فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه في مجلسه، وقال السلام عليك أيّها الأمير، أتأمر بشيء؟ فقال أيّ شيء آخر؟ وضحك، فقال له شريك: أيّها الأمير ذاك الفعل حقّ الشرع، وهذا القول الآن حقّ الأدب، فقام الأمير وانصرف إلى منزله وهو يقول، من عظّم أمر الله أذلّ الله له عظماء خلقه.

٤ ـ وعن الحسن بن سهل قال: جلس المأمون ذات يوم للمظالم وإذا هو برجل قد مثل بين يديه وفي يده رقعة فيها سطران: بسم الله الرحمن الرحيم، مظلمة من أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، فقال: أمظلمة مني؟ قال: أفأخاطب بالخلافة سواك؟ قال له: وما ظلامتك هذه؟ قال: ثلاثون ألف دينار، قال: وما وجهها؟ قال: إن سعيداً وكيلك اشترى مني جوهراً بثلاثين ألف دينار وحمله إلى منزلك ولم يوّفر عليّ المال، قال: فإذا اشترى سعيد منك الجوهر تشكو الظلامة مني؟ قال: نعم إذا كانت الوكالة قد صحّت له منك، قال: إن كلامك هذا يحتمل ثلاث جهات، أما أوّل ذلك فلعل سعيداً قد اشترى هذا الجوهر منك كما زعمت وحمله إلينا وأخذ المال من بيت المال ولم يوفّره عليك، أو لعلّه قد وفّره وأدّعيت باطلاً، أو اشتراه لنفسه، أمّا في العاجل فلا يلزمني لك

حقّ ولا أعرف لك ظلامة، فقال الرجل: إن الله جلّ وعزّ قد أهلّك لموضع رفيع، واختصّك بنسب جعلك أولى الخلق معه بالإنصاف والانتصاف، فإنك مناسب لرسول الله ﷺ واسترعاك على خلقه، فهلّا تحملني على كتاب الله جلّ وعزّ وسنّة ابن عمّك رسول الله ﷺ وسنّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رسالته إلى أبي موسى الأشعري وهي التي اتخذتموها صدور أحكامكم ووصيّة لقضاتكم إذ يقول: البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر؟ قال المأمون: فإنّك والله قد عدمت البيّنة فما يجب لك إلا حلفة، ولئن حلفتها لأنا صادق، إذ كنت لا أعرف لك حقاً يلزمني، قال: فإذاً أدعوك إلى الحاكم الذي نصبتَه لرعيتك، قال: نعم يا غلام عليّ بيحيى ابن أكثم، فإذا هو قد مثل بين يديه، فقال: يا يحيى، قال: لبّيك يا أمير المؤمنين، قال: أقضِ بيننا، قال: في حكم وقضية؟ قال: نعم، قال: لا أفعل قال: ولم؟ قال: لأن أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضائي، قال: قد فعلت قال: فإنّي أبدأ بالعامّة أوّلًا ليصحّ المجلس للقضاء، قال افعل، ففتح الباب وقعد في ناحية من الدار وأذن للعامّة ونادى المنادي وأخذ الرقاع ودعا بالناس، ثم دعا الرجل المتظلّم فقال له يحيى ما تقول؟ قال: أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين المأمون، فنادى المنادي فإذا المأمون قد خرج في رداء وقميص وسراويل قد أرسلها على عقبيه في نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلّى حتى وقف على يحيى وهو جالس، فقال له: اجلس، فطرح المصلّى ليقعد عليه، فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس فطرح له مصلّى آخر فجلس عليه، وقال له: يحيى ما تقول؟ فقال لي: على هذا ثلاثون ألف دينار، قال: ومن هذا؟ قال أمير المؤمنين المأمون بالله: قال له يحيى: يا أمير المؤمنين قد سمعت ما يقول، قال: سله ما وجهها؟ فأعاد خبر الوكيل، فقال المأمون: ما أعرف له حقاً، فأقبل على الرجل فقال: قد سمعت ألك بيّنة؟ قال: لا، قال: فما تريد، قال: ما يوجبه الحكم لمن عدم البيّنة، قال المأمون: ويحك قد لججت في اليمين، قال: يا أمير المؤمنين أتحلف؟ قال: إي والله، ولا أوطّىء نفسي العشوة (ركوب الأمر على غير بيان) في إعطاء رجل ما لا يجب له ظلماً،

فقال: قل والله فاستحلفه غموساً، ثم وثب يحيى عند فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه، فقال له المأمون: ما أقامك؟ فقال: إنّي كنت في حقّ الله جلّ وعزّ حتى أخذته منك، وليس الآن من حقك أن أتصدّر عليك، وقبض على الرجل لئلا يخرج، فقال المأمون: ارفقوا به ثم قال: يا غلام احضرني ما ادّعى من المال، فلمّا أحضره، قال خذه إليك، والله ما كنت أحلف على فجرة ثم أسمح لك فأفسد ديني ودنياي والله يعلم ما دفعت إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعيّة لعلّها ترى أنّي تناولتك من وجه القدرة وأنّي منعت واجبك بالاستطالة عليك، وإنها لتعلم الآن ما كنت أسمح لك باليمن وبالمال، فقال: يا أمير المؤمنين أفأحاط في المال حتى أصل إلى حيث آمن عليه؟ قال: إي والله ولو بالثغر، غزو إسبيجاب، فاخرج الرجل مع المال ويذرق به (أخفر) إلى أن بلغ مأمنه(١).

٥ ـ وهنا طريفة يصحّ إلحاقها في هذا البَاب، تسامى فيها أدب العلم على الرتب والألقاب، فإنّ الوزير العالم يحيى بن هبيرة كان شغوفاً بالعلم وجمعه والجلوس لأربابه في زمن ولايته وقراءة الحديث والاستماع له، وكان أبو محمد الأشتري من علماء المالكية قد طلبه الوزير من الشهيد نور الدين محمود بن زنكي، فأرسل به وأكرمه الوزير غاية الإكرام، وكان يحضر مجلس علمه ويقرأ فيه «ابن شافع» فوقعت بينهما في مجلس مشادّة ندّت فيها كلمة من الوزير للأشتري بسبب أن الوزير ذكر في مجلسه حديثاً انفرد به أحمد بن حنبل، فادّعى الأشتري أن مالكاً رواه أيضاً فردّ عليه الحاضرون وأحضر الوزير كتب المفردات لأحمد فوجد فيها الحديث، فبقي الأشتري على إنكاره مع هذا، فقال له الوزير: بهيمة أنت؟ أما تسمع هؤلاء الأئمة يشهدون بانفراد أحمد، والكتب المصنّفة كذلك وأنت تنازع؟ وتفرّق المجلس على هذا فلمّا كان المجلس الثاني، واجتمع الخلق لسماع الحديث، أخذ «ابن شافع» في القراءة، فمنعه الوزير وقال: كان الفقيه أبو محمد جرى في مسألة أمس على ما لا يليق به من

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد للملك السعيد، ص ١٧٥.

العدول عن الأدب والانحراف عن نهج النظر حتى قلت تلك الكلمة، وهأنذا فليقل لي كما قلت له، فلست بخير منكم، ولا أنا إلا كأحدكم: فضجّ المجلس بالكباء، وارتفعت الأصوات بالدعاء والثناء، وأخذ الأشتري يعتذر ويقول، أنا المذنب والأولى بالاعتذار من مولانا الوزير، وهو يقول القصاص القصاص، فقال يوسف الدمشقي مدرّس النظامية يا مولانا إذا أبى القصاص فالفداء، فقال الوزير: له حكمه، فقال الأشتري: نعمك عليّ كثيرة فأي حكم بقي لي؟ فقال الوزير: قد جعل الله لك الحكم علينا بما ألجأتنا به إلى الافتيات عليك، فقال: عليّ بقية دَين منذ كنت بالشام قال ابن الجوزي: إن الوزير قال: يعطى مائة دينار لابراء ذّمته، ومائة دينار لإبراء ذّمتي، وعفا الله عنك وعلّي، وغفر لك ولي[1].

فانظر إلى هذا الأدب في رعاية الحق، يأبى الوزير العالم إلا القصاص إذ لا يرتفع في مجلس العلم إلا أدب العلم، ويأبى الشيخ العالم أن يطلبه رعاية لسابق النعم ثم يظفر الحكم برضا الطرفين وتحقيق الطلبتين وينتهي هذا المجلس بكلمة العزّة للعلم إذ يقول الوزير: والله لقد كنتُ أسأل الله تعالى الدنيا، لأخدم بما يرزقنيه الله منها العالم وأهله.

عزّتهم في أنفسِهم

٦ ـ قال مقاتل بن سليمان: دخلت على حمّاد بن سلمة فإذا ليس في البيت إلّا حصير وهو جالس وفي يده مصحف يقرأ فيه، وجراب فيه علمه، ومطهرة يتوضّأ منها، فبينا أنا جالس إذ دقّ الباب، فقال ياحبيبة أحرجي فانظري من هذا؟ فقالت رسول محمد بن سليمان إلى حمّاد بن سلمة، فأذن له فدخل. فقال: أما بعد فصبّحك الله بما صبّح به أولياءه وأهل طاعته، وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها والسلام. فقال: يا حبيبة هلّم الدواة، ثم قال لي: أقلب الكتاب واكتب أما بعد فأنت صبّحك الله بما صبّح به أولياءه وأهل طاعته، إنا أدركنا

(١) حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٧.

العلماء وهم لا يأتون أحداً فإن وقعت لك مسألة فأتنا وسل ما بدا لك، وإن أتيتني فلا تأتني بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح إلا نفسي والسلام. فبينما أنا جالس إذ دقّ الباب فقال: يا حبيبة أخرجي فانظري من هذا؟ قالت: محمد بن سليمان، قال: قولي له يدخل وحده، فدخل وجلس بين يديه ثم ابتدأ فقال: مالي إذا نظرت إليك امتلأت منك رعباً، قال حمّاد، حدثني ثابت البناني قال، سمعت أنساً يقول، سمعت النبي ﷺ يقول: «**إنّ العالِم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كلّ شيء، وإذا أراد أن يكنز الكنوز هاب من كلّ شيء**»، فقال: ما تقول رحمك الله في رجل له ابنان وهو عن أحدهما أرضى فأراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله؟ فقال: لا يفعل رحمك الله، فإني سمعت أنساً يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا أراد الله أن يعذّب عبداً من عباده في حياته وفّقه لوصيّة جائرة**» قال: فعرض عليه مالاً فلم يقبله حمّاد.

٧ ـ ولما حج سليمان بن عبد الملك وعظه أبو حازم بما هو مشهور، فقال له: ارفع إلينا حوائجك، قال قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها، فما أعطاني منها يكفي وما منعني منها رضيت، يقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ فمن الذي يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله أو يزيد في قليل ما قسم الله؟ فبكى سليمان بكاء شديداً. فقال رجل من جلسائه: أسأت إلى أمير المؤمنين، فقال أبو حازم: أسكت فإن الله تعالى أخذ ميثاق العلماء ليبيّننه للناس ولا يكتمونه.

ولما حجّ الرشيد تلمّس العلماء حتى مضى إلى الفضيل بن عياض ودخل عليه فوعظه بما وعظ، فلما همّ ليخرج قال الرشيد له: أعليك دَين؟ قال: نعم، دين لربّي لم يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني والويل ليس إن ناقشني والويل لي إن لم يلهمني حجّتي، قال: إنما أنا أعني دَين العباد قال: إن ربّي لم يأمرني بهذا، أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره. فأعطاه ألف دينار فردّها وقال: أنا أدلّك على النجاة وتكافئني بمثل هذا، سملك الله ووفّقك. وصمت ولم يكلّمه بعدها.

٨ ـ وبهذه العزّة أجاب العالم الضريرُ (المحدّث أبو معاوية محمد بن

خازم) هارونَ الرشيد لما صبَّ الماء على يديه وأعلمه بذلك بعد أن فرغ: إنَّما أكرمت العلم يا أمير المؤمنين.

٩ ـ ودخل أبو عمرو بن العلاء على سليمان بن عليّ وهو عمّ السفّاح فسأله عن شيء فصدقه، فلم يعجبه ما قاله، فوجد أبو عمرو في نفسه وخرج وهو يقول:

أنفت من الذلّ عند الملو ... ك وإن أكرموني وإن قرّبوا

١٠ ـ وبلغ من عزّة أحمد بن أبي دؤاد في نفسه أن كان واحد الدولة: كان الأفشين يحسد أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي للعربيّة والشجاعة، فاحتال عليه حتى شُهد عليه بجناية قتْل، فأَخذه ببعض أسبابه، فجلس له وأحضره وأحضر السيّاف ليقتله، وبلغ ابن أبي دؤاد الخبر، فركب في وفدٍ مع من حضر من عدوٌ له، فدخل على الأخشيد وقد جيء بأَبي دلف ليقتل، فوقف ثم قال: إنّي رسول أمير المؤمنين إليك وقد أمرك ألَّا تحدث في القاسم بن عيسى حدَثاً حتى تسلمه إليّ ثم التفت إلى العدول وقال: اشهدوا أني أدّيت الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حيٌّ معافى، فقالوا قد شهدنا وخرج، فلم يقدر الأخشيد عليه، وسار ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته، وقال: يا أمير المؤمنين قد أدّيت عنك رسالة لم تقلها لي، ما أعتدّ بعمل خير منها، وإني لأرجو لك الجنّة بها؛ ثم أخبره الخبر فصوَّب رأيه ووجّه من أحضر القاسم فأَطلقه، ووهب له وعنَّف الأخشيد فيما عزم عليه[1].

١١ ـ وسمت عزّة العلم بالعلماء حتى قرّروا أنَّ طالب العلم كفء لبنت السلطان، بل تجاوزوا هذه الرتبة ورفعوه فوقها: ففي ترجمة ابن المسيّب أنَّ عبد الملك بن مروان خطب ابنته لولده الوليد حين ولّاه العهد، فأبى أن يزوّجها، قال أبو وداعة: كنت أجالس سعيد بن المسيّب ففقدني أياماً، فلمّا جئت قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها، قال: فهلّا أخبرتنا فشهدناها، قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هل أحدثت امرأة غيرها، فقلت:

---

(١) المقريزي، الخطط، ج ٣، ص ٩٥.

يرحمك الله، ومن يزوّجني وما أملك إلّا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: إن أنا فعلت تفعل؟ قلت: نعم، فحمد الله تعالى وصلّى على النبي ﷺ وزوّجني على درهمين أو على ثلاثة، قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، وصرت إلى منزلي وجعلت أفكّر ممّن آخذ وأستدين، وصلّيت المغرب، وكنت صائماً فقدّمت عشائي لأفطر وكان خبزاً وزيتاً وإذا بالباب يقرع، فقلت: من هذا؟ فقال سعيد: ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلّا سعيد بن المسيب، فإنّه لم يُر منذ أربعين سنة إلّا ما بين بينه والمسجد، فقمت وخرجت وإذا بسعيد بن المسيب، وظننت أنّه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد هلّا أرسلت إليّ فأتيتك؟ قال: لا، أنت أحقّ أن تزار، قلت: فما تأمرني؟ قال: رأيتك رجلًا عزَبا قد تزوّجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة خلفه في طوله، ثم دفعها في الباب وردّ الباب فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب ثم صعدت إلى السطح وناديت الجيران، فجاءوني وقالوا: ما شأنك؟ قلت: زوّجني سعيد بن المسيّب ابنته، وقد جاء بها على غفلة وها هي في الدار، فنزلوا إليها، وبلغ أمّي فجاءت، وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام، فأقمت ثلاثة ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنّة رسول الله، أعرفهم بحقّ الزوج. قال: فمكثت شهراً لا يأتيني ولا آتيه ثم أتيته بعد شهر وهو في حلقته فسلّمت عليه فردّ عليّ ولم يكلّمني حتى انفضّ من في المسجد، فلمّا لم يبق غيري قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: على ما يحبّ الصديق ويكره العدو.

١٢ ـ وكان لعلاء الدين السمرقندي «صاحب تحفة الفقهاء» ابنته «فاطمة» الفقيهة العلّامة، حفظت التحفة لأبيها، وطلبها جماعة من ملوك الروم، فلما صنّف أبو بكر الكاساني الملقّب (ملك العلماء) كتابه «البدائع» وهو شرح التحفة، عرضه على شيخه وهو أبوها، فازداد به فرحاً، وزوّجه ابنته، وجعل مهرها منه ذلك، فقالوا في عصره (شرح تحفته وتزوّج ابنته)[1].

---

(١) حديث حسن. رواه البزار والطبراني في الأوسط ـ (من الجامع الصغير). وروى ابن ماجه وابن حبّان في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليّ النبي ﷺ فعرفت من

١٣ ـ وقيل: أنفذ عثمان بن عفان رضي الله عنه بمائة دينار إلى أبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه، وقال لغلامه: إن قبل ذلك فأنت حرّ، فحملها إليه فلم يقبل، فقال: اقبل ففيه عتقي، فقال أبو ذر: إن كان فيه عتقك ففيه رقّي.

١٤ ـ وقال وكيع: قال لي أبو حنيفة ما ملكت أكثر من أربعة آلاف منذ أربعين سنة إلّا أخرجته «أي الأكثر» وإنّما أمسك الأربعة لقول عليّ كرّم الله وجهه، أربعة آلاف ودونها نفقة؟ ولولا أني أخاف أن أحتاج إلى هؤلاء ما أمسكت منها درهماً.

١٥ ـ وقد تواتر عن أبي حنيفة رحمة الله عليه أنّه كان يتّجر في الخزّ مسعوداً ماهراً فيه. وله دكّان في الكوفة وشركاء يسافرون له في شراء ذلك، ويبيعه مستغنياً بنفسه لا يميل إلى طمعه، ومن ثمّة قال الحسن ابن زياد: والله ما قبل لأحد منهم أي الخلفاء والأمراء جائزة ولا هديّة، ووصل إليه من المنصور ثلاثون ألف درهم في دفعات فقال له: يا أمير المؤمنين إنّي ببغداد غريب، وعندي ودائع الناس، وليس لها عندي موضع، فاجعلها في بيت المال، فأجابه، فلمّا مات أخرجت ودائع الناس من بين المال فرأوها، فقال المنصور، خدعنا أبو حنيفة.

١٦ ـ لما حجّ الرشيد، رغب إلى أبي يوسف القاضي وهو بالكوفة أن يأتيه المحدّثون فيحدّثوه، فتخلّف عبد الله بن إدريس وعيسى بن يونس فركب الأمين والمؤمون إلى ابن إدريس فحدّثهما بمائة حديث، فقال المأمون يا عمّ أتأذن لي أن أعيدها من حفظي؟ قال: افعل، فأعادها، فعجب من حفظه ثم صارا إلى عيسى بن يونس فأمر المأمون له بعشرة آلاف فأبى أن يقبلها وقال: ولا شربة ماء.

وجهه أن قد حضره شيء، فتوضأ وما كلم أحداً، فلصقت بالحجرة أستمع ما يقول فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ووقال: يا أيّها الناس إن الله يقول لكم: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تداعوا فلا أستجيب لكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم، فما زاد عليهنّ حتى نزل ا هـ من كتاب الزواجر لابن حجر ج ٢ ص ١٧٧.

١٧ ـ أراد المكتفي أن يقف وقفاً يجتمع عليه أقاويل العلماء، فأحضر ابن جرير فأملى عليهم كتاباً لذلك، فأخرجت له جائزة، فلم يقبلها، فقيل له: فلا بدّ من قضاء حاجة، قال: أسأل أمير المؤمنين أن يمنع السؤال يوم الجمعة، ففعل ذلك.

والتمس منه الوزير، فكتب له في الفقه كتاب «الخفيف» فوجّه له ألف دينار فردّها.

١٨ ـ لما ورد أبو نصر الفارابيّ على سيف الدولة وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف، أدخل عليه وهو بزّي الأتراك، وكان ذلك زيّه دائماً، فوقف، فقال له سيف الدولة اقعد، فقال: حيث أنا أم حيث أنت؟ فقال: حيث أنت، فتخطّى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه، وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاصّ يسارّهم به قلّ أن يعرفه أحد، فقال لهم بذلك اللسان: إنّ هذا الشيخ قد أساء الأدب، وإني سائله عن أشياء إن لم يوف بها فأخرقوا به، فقال له أبو نصر بذلك اللسان: أيها الأمير اصبر، فإن الأمور بعواقبها، فعجب سيف الدولة منه، وقال له: أتحسن هذا اللسان؟ فقال: نعم، أحسن أكثر من سبعين لساناً، فعظم عنده ثم أخذ يتكلّم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فنّ، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكلّ وبقي يتكلم وحده ثم أخذوا يكتبون ما يقوله فصرفهم سيف الدولة الدولة وخلا به، فقال له: هل لك في أن تأكل؟ فقال: لا، فقال: فهل تشرب؟ فقال: لا، فقال: فهل تسمع، فقال: نعم، فأمر سيف الدولة بإحضار القيان، فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي فلم يحرّك أحد منهم آلته إلّا عابه أبو نصر، وقال: أخطأت، فقال له: سيف الدولة وهل تحسن في هذه الصنعة شيئاً؟ فقال: نعم، ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها، وأخرج منها عيداناً وركّبها ثم لعب بها فضحك منها كلّ من كان في المجلس، ثم فكّها وركّبها تركيباً آخر وضرب بها فبكى كلّ من كان في المجلس، ثم فكّها وغيّر تركيبها وضرب بها ضرباً آخر فنام كلّ من كان في المجلس حتى البوّاب فتركهم نياماً وخرج ـ فترى الفارابي من عزّته لم ير مكانه إلا على مجلس الأمير.

عزّة العلم

١ ـ عزّة العلم أو العزّة بالعلم هي المرتبة الثانية من مراتب الكمال البشري، والرتبة الأولى هي مرتبة النبوّة وهذه لا تنال ولا تدرك، وإنما هي اصطفاء إلٰهي وهبة ربانيّة يختصّ بها من يشاء من عباده بعد أن يهيّئه لتلقّيها ويعدّه بآلاتها ليكون رسوله ومهبط وحيه، والأسوة في خلقه.

أما العلم فعزّته مدركة، وغايته في منال الطلّاب وصوب السِباق للسُبّق فمنهم من وصل ومنهم من قارب ومنهم من سقط في الجولة أو خار عزمه في المضمار.

والعلم هو القوّة التي ألقاها الله في الكون وسخّر بها الكون، وخلقها ليحوزها الإنسان بعد أن سوّاه بحواسّه لتنفذ منها هذه القوة إلى عقله. فيتصرّف بها وبمرانه يصرّفها ـ وعلى مقادير المواهب الخلقية والرياضية العملية تكون سعة الحوْز وسلطة التصرّف بهذه القوة حتى أصبح الإنسان بها أعزّ من في الكون على ما في الكون، وحتى قال الحقّ تعالى خلق لكم ما في الأرض جميعاً فكان هذا الكوكب الأرضي مخلوقاً لابن آدم يطيعه ويطبعه ويسيّره بهذه القوة التي امتنّ الله بها على الإنسان إذ خلقه لينالها كما خلقها لتنفعه وترفعه فقال جل من قائل: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ ثم غاير الحقّ تعالى بين الإنسان الذي يفيد والإنسان البليد فقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وفي حصره التذكر في أولي الألباب إشارة صريحة إلى قشور العلوم وإلى الذين يتعلقون بهذه القشور أنها لا تغني عن الألباب ولا تقفهم من مكانة العزة العلمية التي يلقى المتصدّرون عليها أنظارهم على هذا الكون نظرات الحوط والعزة ونظرات الاستكناه والخبرة، فهم وإن انتفى التساوي بينهم وبين من لا يعلمون، هم دون العزّة ومرتبتها فهي قد اختصت بأولى الألباب أو اختصّوا بها.

العلم الذي صهر الحديد، وقطع الصخر، وثقب الألماس، وطار بالإنسان في جوّ السماء، وغاص به تحت طبقات الماء، ونقل أصواته وصوره بل نقله هو وثقله إلى بلد لم يكن ببالغه إلا بشقّ الأنفس - العلم الذي حفظ الروح والجسد وعمل على بقائهما، وبيّن السبل لسعادتهما، هو صاحب تلك العزّة التي لها أمثال وظواهر ووقائع وأسانيد ومشاهد هيهات أن نحفظها ونرويها أو ندوّنها ونكتب فيها، فهي تعجز الأسفار وتضيق بها الدفاتر ولكنا نورد منها أمثلة مخطوفة تتراءى لك فيما يتلو من أبواب هذا الكتاب.

٢ - قال ابن القيم إن سيّدنا سليمان بن داود لما توعّد الهدهد بأن يعذّبه عذاباً شديداً أو يذبحه إنّما نجا منه بالعلم، بل أقدم عليه في خطابه بقوله: «أحطت بما لم تحط به خبراً» وهذا خطاب إنما جرّأه عليه العلم وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان على قوّته بمثل هذا الخطاب، لولا سلطان العلم.

٣ - قال النضر بن شميل: من أراد أن يشرف في الدنيا والآخرة فليتعلّم العلم، وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به في دين الله ويكون بين الله وبين عباده.

٤ - وقال سفيان بن عيينة: أرفع الناس منزلة عند الله، مَن كان بين الله وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء.

٥ - وقال سهل التستري: من أراد أن ينظر إلى مجلس الأنبياء فلينظر إلى مجلس العلماء، يجيء الرجل فيقول: يا فلان ماذا تقول في رجل حلف على امرأته بكذا وكذا؟ فيقول: طلقت امرأته، ويجيء آخر فيقول حلفت بكذا وكذا فيقول: ليس يحنث بهذا القول، وليس هذا إلا لنبيّ أو عالم.

٦ - قال ابن عباس لعِكْرِمة بن عبد الله التابعي أحد فقهاء مكة: انطلق فافت الناس. وسئل سعيد بن جبير هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال عكرمة[1].

٧ - وقال إبراهيم بن عمرو بن كيسان: أذكرهم في زمان بني مروان

(١) الخيرات الحسان، ص ٥ - ٨.

يأمرون في الحج صائحاً يصيح، لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح(١).

٨ ـ حكى صاحب كتاب «مفتاح دار السعادة» قائلًا: أن سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين جاءه هو وولداه فجلسوا إليه وهو يصلّي، فلما صلّى انفتل إليهم وما زالوا يسألونه عن مناسك الحجّ وقد حوّل قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنيه، قوما، فقاما، فقال: يا بنيّ لا تنيا في طلب العلم فإني لا أنسى ذلّنا بين يدي هذا العبد الأسود.

٩ ـ قال أبو بكر ابن أبي داود في أبي العالية الرياحي التابعي المقرىء(٢): ليس أحد أعلم بالقرآن بعد الصحابة من أبي العالية ثم سعيد بن جبير.

قال أبو العالية هذا: كنت آتي ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش فيأخذ بيدي فيجلسني معه على السرير، فتغامز بي قريش، ففطن لهم ابن عباس فقال، كذا هذا العلم، يزيد الشريف شرفاً، ويجلس المملوك على الأسرّة(٣).

١٠ ـ وكان محمد بن عبد الرحمن الأوقص، عنقُه داخل في بدنه، وكان منكباه خارجين كأنهما زجّان، فقالت: أمه يا بنيّ، لا تكون في مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه، المسخور به، فعليك بطلب العلم، فإنه يرفعك، فولى قضاء مكة عشرين سنة.

١١ ـ وقد أجمع الناس على إجلال عَمْرِو بن عبيد ورفعتْه للعلم مقاما تنقطع دونه الأعناق، أبوه كان يخلف أصحاب الشرط بالبصرة ويظهر أنه كان مبغوضاً فكان الناس إذا رأوا عمراً مع أبيه قالوا: هذا خير الناس ابن بشر الناس. وهنا تثني كرامة الأبوّة لعزّة العلم، فإن عبيداً كان إذا سمعهم، يقول صدقتم: هذا إبراهيم وأنا آزر. وإنّي ألفت النظر إلى سموّ الوسط الإسلامي في ذلك الزمن، فهو لم يشِن الابن بالأب، ولا أدخل نسب الولد في قيمة الابن، وهذا هو التشجيع الذي يقدّمه المجتمع الراقي للفرد المجتهد.

---

(١) الرحمة الغيثية، ص ٧.
(٢) البيهقي، المحاسن والمساوىء، ج ٢، ص ٥١.
(٣) ابن جبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح، ص ١٣.

١٢ ـ وننقل عن كتاب «الأغاني» ما ذكره عن نابغة الموسيقى في المسلمين أجمعين «إسحاق بن إبراهيم الموصلي» أنّ أباه إبراهيم الموصلي، وشيخه «ابن جامع» كانا يضطران إلى الأخذ عنه مع ما لهما من السبق في هذا المضمار، ولكن إسحاق بما أوتيه من اختراع وإبداع عزّه علمه حتى اضطّر الأب العظيم والشيخ الكريم إلى الأخذ عنه(١).

١٣ ـ حدثنا عيسى بن حماد سمعت الليث يقول: حججت أنا وابن لهيعة فرأيت نافعاً مولى ابن عمر، فدخلت معه إلى دكّان علّاف فحدّثني، فمرّ بنا ابن لهيعة فقال: مَن هذا، قلت: مولي لنا، فلما رجعنا إلى مصر جعلت أحدّث عن نافع، فأنكر ذلك ابن لهيعة، وقال: أين لقيته، قلت: أما رأيت العبد الذي في دكان العلاف، هو ذاك ـ فهذا الإمام الليث يختلف إلى نافع العبد مولى ابن عمر، يختلف إليه في دكّان علاف لينفُس إذا عاد إلى مصر فحدّث بما رواه عن نافع. وابن لهيعة القاضي المحدّث الكبير يرى هذه العزّة ينالها الإمام الليث فيبهتُ ويسائله من أين نالها؟ وكانا معاً، فيدّله على تلك الواقعة التي حدثت لهما وورّى فيها الإمام الليث عن نافع بأنه (مولى لنا) (وكلمة مولى كلمة مطّاطة تتسع لصدق الإمام ونهجه للاعتزاز بعلم نافع وباسمه الذي يرنّ في بلاد الإسلام ثم يُلاقي في دكان علاف حتى ليمّر به من يراه ولا يعرفه).

١٤ ـ قال ابن بسّام في القاضي ابن عبد الوهاب الفقيه الأديب: إنه كان بقية الناس ولسان أصحاب القياس، لم يجد رغيفين ببغداد ليأكلهما في اليوم ففارقها لا عن قِلي ووِدّعها وهو يقول:

وكانت كخلّ كنت أهوى دنوّه وأخلافه تنأى به وتخالف

حدث أنه يوم فَصل من بغداد أن ودّعه أكابرها، وخرج لتشييعه أصحاب المحابر والأقلام وطوائف كثيرة من الأنام، فاعتذر وهو راحل، بأنه لو وجد الرغيفين كلّ غداة وعشيّة ما عدل عن بلدهم لبلوغ أمنية وورد مصر فحمل

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٧.

لواءها أرضها وسماءها وتناهت إليه الغرائب فانثالت في يديه الرغائب(١). فهذا العالم الذي لا يجد رغيفين، وجد عزّة العلم تحفّه وتحمل له أعاظم عصره يشيّعونه من غير أن يؤثر سلطان الفقر فيما يجب لعزّته ـ ولا بأس أن نستطرد في قصّة الدنيا مع هذا العالم فإنه لمّا ورد مصر وأقبلت عليه الدنيا مات لأوّل ما وصلها، فزعموا أنه قال وهو يتقلّب: لا إله إلا الله إذا عشنا متنا.

١٥ ـ وكان الإمام مالك إذا أراد أن يحدّث، توضأ، وجلس على صدر فراشه، وسرح لحيته، وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة، ثم حدّث، فقيل له في ذلك: أحبّ أن أعظّم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدّث به إلا متمكناً على طهارة، وكان يكره أن يحدّث على الطريق، أو قائماً، أو مستعجلاً، ويقول: أحبّ أن أتفهّم ما أحدّث به عن رسول الله ﷺ، وكان لا أركب في مدينة فيها جثّة رسول الله ﷺ مدفونة.

١٦ ـ قال أحمد بن إسحاق التستري: دخل أحمد بن أبي دؤاد على الواثق بالله، فقال له الواثق يا أبا عبد الله، إني حنثت في يمين فما كفارتها؟ فقال مائة ألف دينار، فقال ابن الزيّات: والله ما سمعنا بهذا في الكفّارات، إنما قال الله جلّ وعزّ وتلا الآية في كفّارة الأيمان، فقال أحمد: تلك كفّارة مثله في بعد همّته وجلالة قدره أو مثل آبائه، إنما تكون كفارة اليمين على قدر جلال الله في قلب الحالف بها، ولا نعلم أحداً الله جلّ وعزّ في قلبه أجلُّ من أمير المؤمنين، فقال الواثق: تحمل إلى أبي عبد الله يتصدّق بها. فانظر إلى عزّة العلم وكيف يفتي بها العالم العزيز لمستفتيه العظيم.

١٧ ـ ولما دخل «علي الرضا» نيسابور كما في تاريخها وشقّ سوقها وعليه مظلّة لا يرى من ورائها، تعرّض له الحافظان، أبو زرعة الرازي، ومحمد ابن أسلم الطوسي، ومعهما من طلبة العلم والحديث ما لا يحصى، فتضرّعا إليه أن يريهم وجهه ويروى لهم حديثاً عن آبائه. فاستوقف البلغة وأمر غلمانه بكشف المظلّة وأقرّ عيون تلك الخلاق برؤية طلعته المباركة، فكانت له ذؤابتان مدلاتان

(١) وقد كان مولى لامرأة من بني رباح.

على عاتقه، والناس بين صارخ وباك ومتمرّغ في التراب ومقبّل لحافر بغلته، فصاحب العلماء، معاشر الناس أنصتوا، فأنصتوا، واستملى منه الحافظان المذكوران، فقال: حدثني أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم قال: حدثني حبيبي وقرّة عيني رسول الله ﷺ قال: حدّثني جبريل قال: سمعت رب العزة يقول: «لا إله إلا الله» حصني، فما قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي، ثم أرخى الستر سارٍ، فعدّ أهل المحابر والدويّ الذين كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين ألفاً. وفي رواية أن الحديث المرويّ، الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، ولعلهما واقعتان.

١٨ ـ وهذا الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة الذي طلب العلم فطلبته الوزارة، ظلّ يباهي بعزّة العلم، ولا يرى أصله بمقتنصها فكان يقول وهو وزير: نزلت يوماً إلى دجلة وليس معي رغيف أعبر به[1].

١٩ ـ وإليك قصة أخرى يقصّها قاضي القضاة في زمن الرشيد كيف كان فقيراً فطلب العلم فأجلسه العلم مع الرشيد وأكل على مائدته الفالوذج بدهن الفستق، قال علي بن الجعد: أخبرني أبو يوسف (أبو يوسف أول من دعى بقاضي القضاة في الإسلام) قال: توفي أبي إبراهيم بن حبيب وخلّفني صغيراً في حجر أمّي، فأسلمتني إلى قصّار أخدمه، فكنت أدع القصار وأمرّ إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس أستمع، فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصّار، وكان (أبو حنيفة) يعنى بي لما يرى من حضوري وحرصي على التعلم، فلما كثر ذلك على أمي وطال عليها هربي، قالت لأبي حنيفة ما لهذا الصبيّ فساد غيرك، هذا صبي يتيم لا شيء له وإنما أطعمه من مغزلي وآمل أن يكسب دانقاً يعوذ به على نفسه، فقال لها أبو حنيفة: مرّي يا رعناء، هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق، فانصرفت عنه وقالت له: أنت

(١) ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج ١، ص ١٧٣.

شيخ قد خرفت وذهب عقلك، ثم لزمته فنفعني الله بالعلم ورفعني حتى تقلدت القضاء وكنت أجالس الرشيد وآكل معه على مائدته، فلما كان في بعض الأيام قدّم إلى هارون فالوذج، فقال لي هارون: يا يعقوب كل منه فليس كل يوم يعمل لنا مثله. فقلت: وما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال هذه فالوذجة بدهن الفستق، فضحكت. فقال لي: مم ضحكت؟ فقلت خيراً أبقى الله أمير المؤمنين قال: لتخبرني - وألحّ عليّ - فخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فعجب من ذلك وقال لعمري أن العلم ليرفع وينفع ديناً ودنيا. وترحّم على أبي حنيفة وقال: كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه.

٢٠ - وهذا لسان من ألسنة العلم يخاطب الخليفة، صدّر القاضي أبو يوسف كتابه في الخراج بهذه الكلمة:

قال: أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام له العز في تمام من النعمة، ودوام من الكرامة، وجعل ما أنعم به عليه موصولاً بنعيم الآخرة الذي لا ينفذ ولا يزول ومرافقة النبي ﷺ. إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألني أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي (جمع جالية وهي الجزية) وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم وفّق الله تعالى أمير المؤمنين وسدّده وأعانه عنه مما يريد العمل به وفسّره وشرحه، وقد فسرت ذلك وشرحته يا أمير المؤمنين إن الله، وله الحمد، قد قلّدك أمراً عظيماً، ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب، قلّدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولّاك أمرهم، وليس يلبس البنيان إذا أسّس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه، فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية فإن القوة في العمل بإذن الله، لا تؤخر عمل اليوم إلى غد فإنك إذا فعلت ذلك أضعت. إن الأجل دون الأمل فبادر الأجل بالعمل فإنه لا عمل بعد الأجل. إن الرعاة مؤدّون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه، فأقم الحق فيما ولّاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته ولا تزغ فتزيغ

رعيتك، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة ولآخر للدنيا فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى. وكن من خشية الله على حذر واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد ولا تخف في الله لومة لائم، واحذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان، واتق الله فإنما التقوى بالتوقي ومن يتّق الله يقه، واعمل لأجل مفضوض وسبيل مسلوك وطريق مأخوذ وعمل محفوظ ومنهل مورود، فإن ذلك المورد الحقّ والموقف الأعظم الذي تطير فيه القلوب وتنقطع فيه الحجج لعزّه مالكٍ قهرهم جبروته والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه ويخافون عقوبته، وكأن ذلك قد كان، فكفى بالحسرة والندامة يومئذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل، يوم تزلّ فيه الأقدام وتتغيّر فيه الألوان ويطول فيه القيم ويشتدّ فيه الحساب، يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وقال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴿٣٨﴾﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴿٤٠﴾﴾ وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴿٤٦﴾﴾ فيا لها من عثرة لا تقال، ويا لها من ندامة لا تنفع، إنما هو اختلاف الليل والنهار يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود، ويجزىء الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب فالله الله، فإن البقاء قليل والخطب خطير والدنيا هالكه وهلك من فيها والآخرة هي دار القرار، فلا تلق الله غداً وأنت على سلك سبيل المعتدين، فإن ديّان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم، قد حذّرك الله فاحذر، فإنك لم تخلق عبثاً، ولن تترك سدى، وإن الله سائلك عما أنت فيه وعمّا عملت به فانظر ما الجواب، واعلم أنه لن تزول غداً قدما عبد بين يدي الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسألة، فقد قال ﷺ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، عن علمه ما عمل فيه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسده فيم أبلاه**» فأعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها، فإن ما عملت فأثبت فهو عليك غداً يقرأ، فاذكر كشف قناعك فيما

بينك وبين الله في مجمع الأشهاد، وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله، فإنك إن لا تفعل تتوعّر عليك سهولة الهدى وتهمى في عينك وتتعفّى رسومه ويضيق عليك رحبه وتنكر منه ما تعرف وتعرف منه ما تنكر، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفَلَج لها لا عليها، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء ردّه عن أماكن الهلكة بإذن الله وأورده أماكن الحياة والنجاة، فإذا ترك ذلك أضاعه وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه أضرّ، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك ووفّاه الله أضعاف ما وفّى به، فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك، ويضيعك بما أضعت أجرك، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم، وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره، وعليك ما ضيعت منه فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله أمره فلست تُنسى، ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يُغفل عنك، ولا يضيع حظك من هذه الدنيا في هذه الأيام والليالي كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحاً وتهليلاً وتحميداً والصلاة على رسوله ﷺ نبي الرحمة وإمام الهدى ﷺ، وأن الله بمنه ورحمته وعفوه جعل ولاة الأمر خلفاء في أرضه وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم، وإضاءة نور ولاة الأمر إقامة الحدود وردّ الحقوق إلى أهلها بالتثبّت والأمر البيّن، وإحياء السنن التي سنّها القوم الصالحون أعظم موقعاً، فإن إحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت وجور الراعي هلاك للرعية، واستعانته لغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة، فاستتمّ ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها والتمس الزيادة فيها بالشكر عليها، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وليس أحب إلى الله من الإصلاح، ولا أبغض إليه من الفساد، والعمل بالمعاصي كفر النعم، وقلّ من كفر من قوم قط النعمة ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم وسلط الله عليهم عدوّهم، وإني أسأل الله يا أمير المؤمنين الذي منّ عليك بمعرفته فيما أولاك أن لا يكلك في شيء من أمرك إلى نفسك وأن يتولى منك

ما تولى من أوليائه وأحبائه فإنه وليّ ذلك والمرغوب إليه فيه، وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحته لك وبينته، فتفقهه وتدبّره وردّد قراءته حتى تحفظه فإني قد اجتهدت لك في ذلك، ولم آلك والمسلمين نصحاً ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه، وإني لأرجو إن عملت بما فيه من البيان أن يوفّر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد، ويصلح لك رعيتك، فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم، وبالتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم، وكتبت لك أحاديث حسنة فيها ترغيب وتخصيص على ما سألت عنه مما تريد العمل به إن شاء الله، فوفقك الله لما يرضيه عنك وأصلح بك وعلى يديك.

٢١ ـ قامت مناظرة بين الأستاذ عبد الرحمن والقاضي محمود عرنوس، فاستعظم أن يوجّه مثل هذا الكلام للرشيد، فابتدره القاضي الشيخ محمود عرنوس وأحضر كتاب «المكافأة» لأحمد بن يوسف أحد كتّاب الدولة الطولونية وفيه يقصّ حديث تمكّن أبي يوسف من الرشيد، وسببه ما كان قدّهم به «الهادي» من خلعه والعهد إلى ابنه فثناه القاضي، وكان «المهدي» أبوهما ألزمه له، ثم سُعي بالرشيد إليه فنفى الوشاية عنه وضمن ولاءه وطاعته له، وكان الرشيد أقام «مسروراً» للتجسس على الهادي لما قام بنفسه من الخوف منه، فلما أفضت الخلافة للرشيد أنبأ أبا يوسف بما حصل، فعجب كيف بلغه ولم يكن معهما ثالث؟ وقال الرشيد له في ذلك لو جاز لي إدخالك في نسبي، ومشاركتك في الخلافة المفضاة إليّ، لكنتَ حقيقاً به، فانظر إلى عزّة أمانة العلماء إذ حافظ أبو يوسف في غيبة الرشيد عليه لله فمكنه الله بها، هذا التمكن ونوّله العزّ كله.

بالتعليم أرسلت

١ ـ ولقد سجّل هذه العزة للعلم سيّدُ المعلّمين ومعلّم الأميين بقوله عليه السلام «**بالتعليم أُرسلت**» وهي الكلمة التي وضعها تاجاً مؤتلفاً على رؤوس العلماء والمدرّسين، فقد روى ابن ماجه في سننه من حديث عبد الله بن

عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ فإذا في المسجد مجلسان: مجلس يتفقهون، ومجلس يدعون إلى الله تعالى ويسألوونه، فقال: كلا المجلسين إلى خير، أما هؤلاء فيدعون الله، وأما هؤلاء فيتعلّمون ويفقهون الجاهل، ههؤلاء أفضل، بالتعليم أرسلت، ثم قعد معهم.

٢ ـ وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **«بلّغوا عني ولو آية»** قال ابن القيم: لو لم يكن في تبليغ العلم عنه إلاّ حصول ما يحبّه ﷺ لكفى به فضلاً، ومعلوم أنه لا شيء أحب إليه من إيصال الهدى إلى جميع الأمة، فالمبلغ عنه نائبه وخليفته في أمته وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعلم وأهله.

ويذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مرّ بالسوق فوجدهم في تجاراتهم وبياعاتهم فقال: أنتم ههنا فيما أنتم فيه وميراث رسول الله ﷺ يقسّم في مسجده؟ فقاموا: سراعاً إلى المسجد فلم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر ومجالس العلم، فقالوا: أين ما قلت يا أبا هريرة؟ فقال: هذا ميراث محمد ﷺ يقسم بين ورثته، وليس بمواريثكم ودنياكم، أو كمال قال[1].

٣ ـ أخرج الطبراني بسند حسّنه الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه رسول الله ﷺ قال: ثلاثة لا يستخفّ بهم إلا منافق، ذو الشيبة في الإسلام، وذو العلم، وإما مقسط. وأخرج أحمد بإسناد حسن: ليس من أمتي من لم يجلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا.

٤ ـ وإليك حديثاً، يجعل العلم في مكان العزّة، ويرفع العلماء مقام التشريف ويضع «تقليده» بين السكون والأدب. أخرج الطبراني عنه ﷺ: **«تعلّموا العلم، وتعلّموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تعلمون منه»**[2].

وأنقل وصفاً لحال الإسلام لما اطمأنت به عزّة العلم، وعزّ فيه العلماء من تذكرة الحافظ الذهبي يقول بعد أن ذكر رجال الطبقة الخامسة من أهل الحديث.

«وفي زمان هذه الطبقة كان الإسلام وأهله في عزّ تام وعلم عزيز،

(١) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، ج ٥، ص ٥٠.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٨٣.

والقوّالون بالحقّ كثير والعباد متوافرون، والناس في بُلَهْنِيَة من العيش وكثرة الجيوش المحمدية من أقصى الغرب وجزيرة الأندلس إلى قرب مملكة الخطا وبعض الهند، وكان في هذا الوقت من الصالحين مثل إبراهيم بن أدعم وداود الطائي وسفيان الثوري، ومن القراء كحمزة وأبي عمرو بن العلاء، ومن الفقهاء كأبي حنيفة ومالك والأوزاعي رحمة الله عليهم أجمعين».

٥ ـ وقد حرص العلماء على العلم وعلى النسبة إليه، واشتدّوا في لحرص على صدق هذه الأنساب والتغالي بها حتى ألف علماء رسائل خاصة بأسانيدهم وذكر شيوخهم، وفنّ الرواية في الإسلام فنّ جرت فيه الأقلام وفنيت في طلبه أعمار، وبذلت جهود، إذ كان السند هو مفتاح الثقة. والحلقة الواحدة في سلسلة الرواية لها أثر في موضوع الرواية، وقد بقي تقليد العلماء في حفظ أنساب العلم كما تحفظ أنساب الآباء إلى عصر قريب.

سُلطان العلم:

١ ـ هذه العزّة التي للعلم غلب سلطانها، فسعى للتقرب منه السلاطين، وغلت قيمتها فتنافس في تحصيلها المتنافسون، وأقرّ بها ذوو السلطان حتى تمنّوها، وودّوا لو يكونون أهلها وأصحاب زمامها، وانخرط السادة في الغمار لها، فدرجوا في سبيلها بزيّ رجالها، حتى روى عن المأمون أنه كان في مجالس العلم يلبس زيّ العلماء ولا يتخيّر فيه على الخلطاء والنظراء، إعلاء لكلمة العلم وإعزاز للعلماء.

قال ابن القيم بعد أن ذكر الروايتين في تفسير قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ أن أولي الأمر العلماء أو الأمراء، قال: والتحقيق أن الأمراء إنما يطلعون إذ أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء[1].

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ص ١٥.

٢ ـ وقال عمر بن عبد العزيز: لأن يكون لي مجلس من عبيد الله (أحد القرّاء السبعة) أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها، وقال: والله إني لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله بألف دينار من بيت المال، فقالوا: يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك؟ فقال: أين تذهب بكم والله إني لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف، إن في المحادثة تلقيحاً للعقل وترويحاً للقلب وتسريحاً للهمّ وتنقيحاً للأدب.

٣ ـ وقال يحيى بن أكثم: قال الرشيد ما أنبلُ المراتب! قلت: ما أنت فيه يا أمير المؤمنين، قال: أفتعرف أجلّ مني؟ قلت: لا، قال: لكني أعرفه. رجل في حلقة يقول: حدثنا فلان عن فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ، قال: قلت: يا أمير المؤمنين أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله ووليّ عهد المؤمنين؟ قال: نعم، ويلك هذا خير مني، لأن اسمه مقترن باسم رسول الله لا يموت أبداً، ونحن نموت ونفنى، والعلماء باقون ما بقي الدهر.

٤ ـ وقال حنتمة بن سليمان: سمعت ابن أبي الحناجر يقول كنّا في مجلس يزيد بن هارون والناس قد اجتمعوا إليه، فمرّ أمير المؤمنين فوقف علينا في المجلس وفي المجلس ألوف فالتفت إلى أصحابه وقال: هذا الملك.

٥ ـ كان المأمون قد وكل الفرّاء ليلقن ابنيه النحو، ففي ذات يوم أراد الفرّاء أن ينهض إلى حوائجه فابتدرا إلى نعل الفرّاء ليقدّماها له فتنازعا، أيهما يقدمها له؟ ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة، وكان للمأمون وكيل على كل شيء خاص، فرفع ذلك إليه في الخبر، فوجّه إلي الفراء واستدعاه. فلما دخل عليه. قال له: من أعزُّ الناس؟ فقال: لا أعرف أحداً أعزّ من أمير المؤمنين. فقال: بل من إذا نهض تقاتل على تقديم نعله ولي عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فرداً. فقال: يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقاً إليها، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصاً عليها[١].

(١) مفتاح السعادة، ج ١، ص ٧١.

٦ ـ قدم هارون الرشيد «الرّقة» فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك وتقطعت النّعال وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج الخشب، فلما رأت الناس، قالت: ما هذا؟ قالوا: عالِم أهل خراسان قدم «الرقة» يقال له عبد الله بن المبارك، فقالت: هذا والله الملِك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان.

٧ ـ عن العتبي عن أبيه قال: ابتنى معاوية بالأبطح مجلساً، فجلس عليه ومعه ابنه «قَرَظة» فإذا هو بجماعة على رحال لهم، وإذا شابّ منهم قد رفع عقيرته يتغنى:

مـن يسـاجـلـنـي بسـاجـل مـاجـداً ... يـمـلأ الـدّلـو إلـى عـقـد الـكَـرَب

قال: من هذا؟ قالوا: عبد الله بن جعفر. قال: خلّوا له الطريق ثم إذا هو بجماعة فيهم غلام يتغنّى:

بـيـنـمـا يـذكـرنـنـي أبـصـرنـنـي ... عند قيد الميل يسعى بين الأغر
فـلـن تـعـرفـن الـفـتـى قـلـن نـعـم ... قد عـرفـنـاه وهـل يـخـفـى الـقـمـر

قال: من هذا؟ قالوا: عمر بن أبي ربيعة، قال: خلّوا له الطريق فليذهب قال: ثم إذا هو بجماعة وإذا فيهم رجل يسأل فيقال له: رميت قبل أن أحلق، وحلقت قبل أن أرى في أشياء أشكلت عليهم من مناسك الحج فقال من هذا: قالوا: عبد الله بن عمر. فالتفت إلى ابنه قرظة وقال: هذا وأبيك الشرف، هذا وأمّه شرف الدنيا والآخرة[١].

٨ ـ ورحل إلى لاسكندرية بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من أبي طاهر السِلَفي، قال السيوطي ولم يعهد ذلك لملك بعد هارون الرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام لسماع الموطأ[٢].

٩ ـ قال السيوطي: كان الملك الكامل معظّماً للسنة وأهلها، قال الذهبي:

(١) ابن حجر العسقلاني، ص ٩٩.
(٢) الزركلي، الأعلام، ج ١، ص ١١.

وكانت له إجازة من أبي طاهر السِلَفي، محدّث الاسكندرية، وخرّج له أبو القاسم بن الضفراوي أربعين حديثاً سمعها من جماعة.

وسمع الوزير نظام الملك الحديث وأسمعه، وكان يقول: إني لأعلم أني لست أهلًا لذلك ولكني أريد أن أربط نفسي في قطار النقلَة لحديث رسول الله ﷺ. وهذا الوزير كان من أولاد الدهاقين بنواحي طوس، واشتغل بالحديث والفقه ثم اتصل بخدمة ألب أرسلان ووزر لابنه «ملكشاه» وبقي عشرين سنة صاحب الأمر كله وليس للسطان إلا التخت والصيد، ودخل على الخليفة المقتدي فأذن له بالجلوس بين يديه.

١٠ ـ كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم قال: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، وليُفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً.

١١ ـ وهذا ذكر للإمام مالك وسبب وضعه كتاب «الموطأ» تقدّم أبي جعفر المنصور إليه بعد أن أعتذر له عما كان من عامله على المدينة فيما صنعه بالإمام مالك أثناء فتنتها، وقد ساق القصة صاحب كتاب «الإمامة والسياسة» وفيها عجب من عزة العلم وإعزاز أهله، وعجب من سعى السلطان لهم وتمسحه بأطرافهم واستحلابه أفاويق علمهم لأمتهم زلفى إلى تلك القوة التي لمعت من نور الله.

«قال ابن قتيبة بعد أن ذكر هياج أهل المدينة على المنصور في أول أمره: إنه أرسل إليه ابن عمه جعفراً فاشتد في أهل الخلاف وأخذ البيعة للخليفة فسعى حَسَدة بالإمام إلى الأمير أنه يفتي بألّا يمين على مكره فيحلّ بهذا ما أبرمتموه مما قام على الاستكراه، فأراد أن يبدر فيه، فقيل له: لا تبدر فإنه أكرم الناس على الخليفة، فدسّ إلى مالك بعض ثقاته فأفتاه على طمأنينة منه، فلم يشعر إلا ورسول جعفر فيه، فأتوا به منتهك الحرمة وضربه سبعين سوطاً أضجعته بعد انتهاء الفتنة، وبلغ الخليفة هذا العمل بمالك فأعظمه إعظاماً شديداً وأنكره وكتب بعزل ابن عمه جعفر وأن يؤتى به على قتب من المدينة إلى بغداد، وأراد

استقدام مالك فاعتذر فكتب إليه أن يوافيه في الحجّ القابل، فوافاه به والتقيا بمنًى، ومن هنا يروى بمنًى فأدخلني، فقلت للآذن إذا انتهيت بي إلى القبّة التي يكون فيها أمير المؤمنين فأعلمني، فمرّ بي من سرادق إلى سرادق ومن قبة إلى أخرى في كلها أصناف من الرجال بأيديهم السيوف المشهورة والأجزرة المرفوعة حتى قال لي الآذن هو في تلك القبة، ثم تركني الآذن وتأخر عني فمشيت حتى انتهيت إلى القبة التي هو فيها، فإذا هو قد نزل عن مجلسه الذي يكون فيه إلى البساط الذي دونه، وإذا هو قد لبس ثياباً قصيرة لا تشبه ثياب مثله تواضعاً لدخولي عليه، وليس معه في القبة إلا قائم على رأسه بسيف صلت، فلما دنوت منه رحّب بي وقرّب، ثم قال ها هنا إليّ، فأومأت للجلوس فقال هاهنا، فلم يزل يدنيني حتى أجلسني إليه ولصقت ركبتي بركبتيه. ثم كان أول ما تكلّم به أن قال: الله الذي لا إله إلا هو يا أبا عبد الله ما أمرت بالذي كان ولا علمته قبل أن يكون ولا رضيته إذ بلغني (يعني الضرب) قال مالك: فحمدت الله تعالى على كل حال، وصليت على الرسول ﷺ ثم نزّهته عن الأمر بذلك والرضا به، ثم قال يا أبا عبد الله لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم، وإني أخالك أماناً لهم من عذاب الله وسطوته، ولقد رفع الله بك عنهم وقعة عظيمة، فإنهم ما علمت أسرع إلى الفتن وأضعفهم عنها قاتلهم الله أن يؤفكون. وقد أمرت أن يؤتى بجعفر والله من المدينة على قتب وأمرت بضيق مجلسه والمبالغة في امتهانه ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه. فقلت له عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله ثم منك، قال أبو جعفر: وأنت فعفى الله عنك ووصلك، قال مالك: ثم فاتحني فيمن مضى من السلف والعلماء فوجدته أعلم الناس بالناس ثم فاتحني في العلم والفقه فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه وأعرفهم بما اختلفوا فيه، حافظاً لما روى. واعياً لما سمع ثم قال لي: يا أبا عبد الله، ضع هذا العلم ودوّنه، ودوّن منه كتباً وتجنب شدائد عبد الله بن عمر، ورخص عبد الله بن عباس، وشوّذ ابن مسعود واقصد إلى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضي الله عنهم لتحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك،

ونبثّها في الأمصار ونعهد إليهم أن لا يخالفوها ولا يقضوا بسواها. فقلت له أصلح الله الأمير، إن أهل العراق لا يرضون علمنا ولا يرون في علمهم رأينا، فقال أبو جعفر يحملون عليه وتضرب عليه هاماتهم بالسيف وتقطع طيّ ظهورهم بالسياط، فتعجلّ بذلك وضعها فسيأتيك محمد ابن المهدي العام القابل إن شاء الله إلى المدينة ليسمعها منك فيجدك وقد فرغت من ذلك إن شاء الله، قال مالك فبينما نحن قعود إذ طلع له نبيّ صغير من قبة بظهر التي كنا فيها، فلما نظر إليّ الصبي فزع ثم تقهقر فلم يتقدم، فقال له أبو جعفر: تقدّم يا حبيبي إنما هو أبو عبد الله فقيه أهل الحجاز، ثم التفت إليّ فقال: يا أبا عبد الله أتدري لم فزع الصبي ولم يتقدم؟ فقلت: لا، فقال والله استنكر قرب مجلسك مني إذ لم ير به أحداً غيرك قط فلذلك قهقر، قال مالك ثم أمر لي بألف دينار عيناً ذهباً وكسوة عظيمة وأمر لابني بألف دينار، ثم استأذنته فأذن لي فقمت فودّعني ودعا لي، ثم مشيت منطلقاً فلحقني الخصى بالكسوة فوضعها على منكبي، وكذلك يفعلون بمن كسوه وإن عظم قدره فيخرج بالكسوة على الناس فيحملها ثم يسلّمها إلى غلامه. فلما وضع الخصى الكسوة على منكبي انحنيت عنها بمنكبي كراهة احتمالها وتبرؤاً من ذلك، فناداه أبو جعفر بلّغها رحل أبي عبد الله.

١٢ ـ وذكروا أن مالك بن أنس لما أخذ في تدوين كتبه ووضع علمه، قدم عليه المهدي ابن أبي جعفر فسأله عما صنع فيما أمره به أبو جعفر فأتاه بالكتاب وهي كتب الموطأ، فأمر المهديّ بانتساخها، وقرئت على مالك، فلما أتمّ قراءتها أمر له بأربعة آلاف دينار ولابنه بألف دينار.

١٣ ـ لما خرج الرشيد إلى الحجّ اصطحب معه عبد الله بن المبارك وفرغ الرشيد من مناسكه ورغب أن يرى «الفضيل بن عياض» وكان يتباعد عن رجال الحكم فتلطف ابن المبارك حتى جمع بينهما وجرى بينهما حديث طلى يطيب للنفوس العظيمة ثم قام هارون للخروج فقال الفضيل: يا أمير المؤمنين إني أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا، فقال الرشيد: أجل، إنه ما قلت، فلما قدم الرشيد العراق كان أوّل ما ابتدأ فيه النظر أن كتب إلى

الأمصار كلها وإلى أمراء الأجناد، أما بعد فانظروا، من التزم الآذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم واستبحر فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء، ولكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر، من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم فإن الله تعالى يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ وهم أهل العلم. قال ابن المبارك: فما رأيت عالماً ولا قارئاً للقرآن ولا سابقاً للخيرات ولا حافظاً للمحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه لقد كان الغلام يجمع القرن وهو ابن ثمان سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعلم ويروي الحديث ويجمع الدواوين ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشر سنة[1].

١٤ ـ كذلك استبق الأمراء إلى سلطان العلم وتغالوا في النفقة على استجلابه والحصول على عزّته ـ فهذا يحيى بن مَعين شيخ أهل الحديث قاطبة وميزان الإسلام في «الجرح والتعديل» كان أبوه معين ابن عون المري من عمال الدولة الكبار خلّف له مليون درهم وخمسين ألف درهم فأنفقها يحيى كلها على الحديث، وقد بلغ من بلوغ يحيى هذا في علم الحديث المنزلة التي لا ترام أن قال أحمد بن حنبل: كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث.

وأكثر من هذا ما صنعته أم «ربيعة الرأي» شيخ الإمام مالك فإن هذه المرأة أنفقت على تعليم ولدها ثلاثين ألف دينار خلفها زوجها عندها وخرج إلى الغزو ولم يعد لها إلا بعد أن استكمل ولده الرجولة والمشيخة، وكان أمه قد اشترتهما له بمال الرجل، فأحمد الرجل صنيعها وأربح تجارتها في قصّة طليّة ساقها ابن خلكان قال: وكان فرُوخ أبو ربيعة خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية، وربيعة حمل في بطن أمه، وخلف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف

(١) نزهة الألباب، ص ١٣٠.

دينار فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرساً وفي يده رمح فنزل ودفع الباب برمحه فخرج ربيعة وقال: يا عدو الله أتهجم على منزلي؟ فقال فروخ: يا عدو الله أنت دخلت على حرمي. فتواثبا حتى اجتمع الجيران وبلغ مالك ابن أنس فاتوا يعينون ربيعة وكثر الضجيج وكل منهما يقول لا فارقتك فلما بصروا بمالك سكتوا فقال مالك: أيها الشيخ لك سعة في غير هذه الدار، فقال الشيخ: هي داري وأنا فروخ، فسمعت امرأته كلامه فخرجت وقالت: هذا زوجي وهذا ابني الذي خلفه وأنا حامل به، فاعتنقا جميعاً وبكيا ودخل فروخ المنزل وقال: هذا ابني؟ فقالت: نعم، قال: أخرجي المال الذي عندك قالت: قد دفنته وأنا أخرجه ثم خرج ربيعة إلى المسجد وجلس في حلقته فأتاه مالك والحسن وأشراف أهل المدينة وأحدث الناس به، فقالت أمّه لزوجها: فروخ أخرج فصلّ في مسجد رسول الله ﷺ فخرج فنظر إلى حلقة وافرة فأتاها فوقف عليها فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لم يره وعليه قلنسوة طويلة فشك أبوه فيه فقال: من هذا الرجل؟ فقيل هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فقال: لقد رفع الله ابني ورجع إلى منزله، وقال لوالدته: لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحداً من أهل العلم والفقه عليها، فقالت أمه: فأيما أحب إليك ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه؟ فقال: لا، والله بل هذا، فقالت: أنفقت المال كلّه عليه، قال فوالله ما ضيعته.

١٥ ـ ولما ختم حمّاد (ولد أبي حنيفة) سورة الفاتحة أعطى أبوه المعلّم فأحضره واعتذر إليه، وقال: لا تستحقر ما علمت ولدي والله كان معنا أكثر من ذلك لدفعنا إليك تعظيماً للقرآن.

١٦ ـ لما حدّث أبو مسلم اللخمي أول يوم حدّث فيه. قال لابنه كم فضل عندنا من أثمان غلاتنا؟ قال: ثلاثمائة دينار، قال: فرّقها على أصحاب الحديث والفقراء، إن أباك اليوم شهد على رسول الله ﷺ فقبلت شهادته[1].

(١) مفتاح دار السعادة، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

١٧ ـ ولما أتمَّ أبو الفرج الأصبهاني كتابه (الأغاني) وقدّمه إلى سيف الدولة بن حمدان أعطاه ألف دينار واعتذر إليه في قلة العطاء.

١٨ ـ قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي أعطيت «منصور زلزل» من مالي خاصّة حتى تعلمت ضربه بالعود نحواً من مائة ألف درهم سوى ما أخذته له من الخلفاء ومن أبي إبراهيم[١].

وزلزل هذا الذي كان أوجد عصره في ضرب العود.

١٩ ـ وصنف الوزير ابن هبيرة كتاب «الإفصاح عن معاني الصحاح» في عدة مجلدات فلما بلغ إلى حديث: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» شرح الحديث وأنجرّ به الكلام إلى الفقه فذكر مسائله واختلافها واتفاقها فخرج به في مجلد أفرد وحده وسمى باسم الكتاب ـ وهذا الكتاب صنفه في ولايته الوزارة واعتنى به وجمع عليه أئمة المذاهب وأوفدهم من البلدان إليه لأجله بحيث أنه أنفق على ذلك مائة ألف دينار وثلاثة عشر ألف دينار وحدّث به واجتمع الخلق العظيم لسماعه عليه، وكتب به نسخة لخزانة المستنجد وبعث ملوك الأطراف ووزراؤها وعلماؤها فاستنسخوا لهم به نسخاً ونقلوها إليهم حتى السلطان نور الدين الشهيد، واشتغل به الفقهاء في ذلك الزمان على اختلاف مذاهبهم، يدرسون منه في المدارس والمساجد ويعيده المعيدون ويحفظ منه الفقهاء[٢].

٢٠ ـ وطلب سلطان عالمكير إلى مشهوري العلماء في الهند أن يضعوا له كتاباً في فقه أبي حنيفة مرتباً على أبواب الفقه مضبوط المراجع فشمّروا عن سواعدهم وتتبعوا الكتب المحفوظة في داره السلطانية حتى أخرجوا الكتاب النفيس المشهور (بالفتاوى الهندية) وقد بذل السلطان لمؤلفيه على وجه الوظيفة والعطية ما بلغ من الفضة مائتي ألف روبية وقيمة الروبية إذ ذاك ١٢ قرشاً (أي أربعة وعشرين ألف جنيه مصري).

قال إدوارد فنديك: وتنسب الفتاوى العالمكيرية هذه للملك آورنك زيب

---

(١) حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٦.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ٩٧.

الهندي الملقب باسم عالم كير أي فاتح العالم الذي ملك من سنة ١٠٦٩ إلى سنة ١١١٩هـ الموافقة سنة ١٥٦٨ إلى ١٧٠٧م[١].

٢١ ـ وقد أورد صاحب الخطط المقريزية فذلكة عن المدارس في الإسلام تريك أن القائم بها كان أرباب السلطان، قال بعد أن أشار إلى «دار القراء» التي كانت في زمن النبي ﷺ: ولما أراد الخليفة المعتضد بن الموفق بنى قصره في الشمّاسيّة ببغداد، استزاد في الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد، فسئل عن ذلك؟ فذكر أنّه يريده ليبني فيه دوراً ومساكن ومقاصير، يرتّب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظريّة والعملية ويجري عليهم الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه.

والمدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، فبنيت بها المدرسة البيهقية، وبنى بها أيضاً الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أخوه السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة. وبنى بها المدرسة السعيدية أيضاً، وبنى بها أيضاً مدرسة رابعة.

وأشهر ما بنى في القديم المدرسة النظامية ببغداد، لأنها أول مدرسة قرّر بها للفقهاء معاليم، وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبي علي الحسن بن علي الطوسي وزير ملكشاه بن ألب أرسلان، شرع في بنائها في ذي الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة وفرغت في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ودرس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي الشافعي فاقتدى الناس به في بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر وفي بلاد الجزيرة وديار بكر.

وأما مصر فإنها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين ومذهبهم مخالف لهذه الطريقة وإنما هم شيعة، وأول ما عرف إقامة درسي من قبل السلطان بمعلوم

---

(١) مفتاح السعادة، ص ١٧٥.

جار لطائفة من الناس بديار مصر، كان في خلافة العزيز بالله ووزارة يعقوب بن كلس فعمل ذلك بالجامع الأزهر ثم عمل في دار الوزير يعقوب مجلس يحضره الفقهاء فكان يقرأ فيه كتاب فقه على مذهبهم، وعمل أيضاً مجلس بجامع عمرو بن العاص لقراءة كتاب الوزير، ثم بنى الحاكم بأمر الله دار العلم بالقاهرة فلما انقرضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين، أبطل مذاهب الشيعة، وأقام مذهب الإمام الشافعي ومذهب الإمام مالك واقتدى بالملك العادل بن زنكي الذي بنى في دمشق وحلب وأعمالها عدّة مدارس للشافعية والحنفية، فبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر، وأول مدرسة أحدثت بديار مصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضاً ثم المدرسة السيوفية التي بالقاهرة ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين في بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر وبالبلاد الشامية والجزيرة أولاده وأمراؤه ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم وأتباعهم إلى يومنا هذا[1].

ونقل عنه ما ذكره عن المدارس وقد جاء في المدرسة الفاضلية قال: هذه المدرسة (بدرب ملوخيا)[2] من القاهرة، بناها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني بجوار داره في سنة ثمانين وخمسمائة، ووقفها على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية، وجعل فيها قاعة للإقراء، أقرأ فيها الإمام أبو محمد الشاطبي ناظم الشاطبية ثم تلميذه أبو عبد الله محمد بن عمر القرطبي، ثم الشيخ علي بن موسى الدهان وغيرهم، ورتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن سلامة الإسكندراني، ووقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم، يقال إنها كانت مائة ألف مجلد، وذهبت كلها، وكان أصل ذهابها أن الطلبة الذين كانوا بها لما وقع الغلاء بمصر في سنة أربع وتسعين ستمائة، والسلطان يومئذ الملك العادل «كتبغا» المنصوري، مسّهم

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، ج ٥، ص ٥٢.

(٢) ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح، ج ١، ص ١١.

الضر، فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز، حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب، ثم تداولتها الأيدي العارية فتفرقت، وبها إلى الآن مصحف قرآن كبير القدر جداً، مكتوب بالخط الأول الذي يعرف بالكوفي، تسميه الناس مصحف عثمان بن عفان، ويقال إن القاضي الفاضل اشتراه بنيف وثلاثين ألف دينار على أنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو في خزانة مفردة له، بجانب المحراب من غريبه، وعليه مهابة وجلالة، وإلى جانب المدرسة كتاب برسم الأيتام، وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها وقد تلاشت لخراب ما حولها(١).

أمّا المدرسة النظامية فلا خلاف في أن «نظام الملك» أول من اشتهر بإنشاء المدارس في الإسلام في أواسط القرن الخامس للهجرة فبنى المدارس في بغداد وأصبهان ونيسابور وغيرها، وكل منها تنعت بالنظامية نسبة إليه، أشهرها المدرسة النظاميّة في بغداد، تولّى بناءها أبو سعيد الصوفي سنة ٤٥٧هـ على شاطىء دجلة وكتب عليها اسم نظام الملك وبنى حولها أسواقاً تكون محبّسة عليها، وابتاع ضياعاً وخانات وحمامات وقفها عليها: فبلغت النفقة ما يقارب من ٦٠ ألف دينار(٢).

وفي يوم افتتاح المدرسة النظامية (١٠ ذي القعدة سنة ٤٥٩) حضر الوزير نظام الملك وجموع من الناس لسماع درس «الشيرازي» وقد رسم الوزير أن يتولى التدريس بها، فلم يحضر الشيخ فأنفذ الوزير إلى العالم «ابن الصباغ» فقام مقامه، ثم ظهر الشيخ في مسجده، وبان أنه امتنع من التدريس فيها لما بلغه عن حصول غصب في بنائها، فراجعه تلاميذه وألحّوا عليه أن يقبل سؤال الوزير ويدرس فيها فأجاب بعد أن ظل ابن الصباغ يدرس عشرين يوماً، وقام بالتدريس، وكان إذا حان وقت الصلاة يخرج منها ويصلي في بعض المساجد لما في خاطره مما بلغه.

---

(١) اكتفاء القنوع، بما هو مطبوع، ص ١٤٦.
(٢) المقريزي، الخطط، ج ٤، ص ١٩٢ (بتصرّف).

ولما قدم أبو طاهر أحمد السلفي إلى الإسكندرية بعد ما جاب البلاد وطاف الآفاق في طلب الحديث ولم يكن له في آخر عمره مثيل في عصره، وكان قدم في البحر من «صور» سنة ٥١١هـ بنى له العادل بن السلار وزير الظافر العبيدي مدرسة في الإسكندرية سنة ٥٤٦هـ عرفت باسمه، وقصده الناس من سائر الأقطار وقد بقيت بعده إلى زمن القاضي ابن خلكان ويقول إنه لم ير مدرسة للشافعية بالإسكندرية خلافها.

ونختم الباب بقصتين، أولاهما تدل على تحلّب شفاه سلطان يتمنّى أن ينزل عن سلطانه بسلطان العلم، والثانية تدل على تغلّب سلطان العلم على الحقد، والحقد كما لا يخفى سلطان غالب، ومنها يُقدَّر طبيب العرب.

قال ابن فارس: سمعت الأستاذ ابن العميد يقول: ما كنت أظن أن في الدنيا حلاوة ألذّ من الرياسة والوزارة التي أنا فيها حتى شهدت مذاكرة سليمان بن أيوب بن أحمد الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي، فكان الطبراني يغلب الجعابي بكثرة حفظه وكان الجعابي يغلب الطبراني بفطنته وركازته أهل بغداد حتى ارتفعت أصواتهم ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجعابي عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي فقال: هاته، فقال: حدّثنا أبو خليفة، حدثنا سليمان بن أيوب وحدّث بالحديث، فقال الطبراني أنبأنا سليمان بن أيوب ومنّي سمع أبو خليفة، فاسمع منّي حتى يعلو إسنادك فإنك تروى عن أبي خليفة عنّي، فخجل الجعابي وغلبه الطبراني، قال ابن العميد: فوددت في مكاني أن الوزارة والرياسة ليتها لم تكن لي وكنت الطبراني وفرحت مثل الفرح الذي فرح الطبراني لأجل الحديث أو كما قال(١).

وقال ابن القفطي: من عجيب ما يحكي عن يعقوب بن إسحاق الكندي المعروف أنه كان في جواره رجل من كبار التجار موسّعت عليه في تجارته، وكان له ابن قد كفاه أمر بيعه وشرائه وضبط دخله وخرجه. وكان ذلك التاجر كثير الإزراء على الكندي والطعن عليه، مدمناً لتعكيره والإغراء به، فعرض لابنه

(١) جهة «قصر الشوق». وملوخيا اسم فرّاش بقصر الفاطميين الكبير نسب الدرب إليه.

سكتة فجأة، فورد عليه من ذلك ما أذهله، وبقي لا يدري ما الذي في أيدي الناس وما لهم عليه مع ما دخله من الجزع على ابنه، فلم يدع بمدينة السلام طبيباً إلا ركب إليه واستركبه لينظر ابنه ويشير عليه من أمره بعلاج، فلم يجبه كثير من الأطباء لكبر العلّة وخطرها إلى الحضور معه، ومن أجابه منهم فلم يجد عنده كبير غناء فقيل له أنت في جوار فيلسوف زمانه وأعلم الناس بعلاج هذه العلة فلو قصدته لوجدت عنده ما تحب، فدعته الضرورة إلى أن تحمّل على الكنديّ بأحد إخوانه فثقل عليه في الحضور فأجاب، وصار إلى منزل التاجر، فلما رأى ابنه وأخذ محبّسه، أمر بأن يحضر إليه من تلاميذه في علم الموسيقى من قد أمعن في الحذق بضرب العود وعرف الطرائق المحزنة والمزعجة والمقوّية للقلوب والنفوس، فحضر إليه منهم أربعة نفر فأمرهم أن يديموا الضرب عند رأسه وأن يأخذوا في طريقة أوقفهم عليها وأراها مواقع النغم بها من أصابعهم على الدساتين ونقلها، فلم يزالوا يضربون في تلك الطريقة والكندي آخذ مجسّ الغلام وهو في خلال ذلك يمتد نفسه ويقوي نبضه ويراجع إليه نفسه شيئاً بعض شيء إلى أن تحرّك ثم جلس وتكلّم وأولئك يضربون في تلك الطريقة دائماً لا يفترون، فقال الكندي لأبيه: سل ابنك عن علم ما تحتاج إلى علمه ممّا لك أو عليك وأثبته، فجعل الرجل يسأله وهو يخبره ويكتب شيئاً بعد شيء، فلما أتى على جميع ما يحتاج إليه غفل الضاربون عن تلك الطريقة التي كانوا يضربونها وفتروا فعاد الصبي إلى الحال الأولى وغشيه السكات، فسأله أبوه أن يأمرهم بمعاودة ما كانوا يضربون به، فقال: هيهات إنما كانت صبابة قد بقيت من حياته ولا يمكن فيها ما جرى، ولا سبيل لي ولا لأحد من البشر إلى الزيادة في مدّة من انقطعت مدّته إذ قد استوفى العطيّة والقسم الذي قسم الله له(١).

٢٢ ـ وننتقل إلى المغرب المزهر، فننقل عن «زهراء» الأستاذ محبّ الدين الخطيب نفحة من نفحات العلم وقد استولى سلطانه على قلب أكبر سلطان في

---

(١) المقريزي، الخطط، ج ٤، ص ١٩٧.

الأندلس «الحكمَ المستنصر بن عبد الرحمن الناصر»[1]: قال المقَّري: كان المستنصر عالماً نبيهاً صافي السريرة، أخذ العلم عن قاسم بن أصبغ وأحمد بن رحيم ومحمد بن عبد السلام الخشني وزكريا بن خطاب وأكثر عنه، وأجاز له ثابت بن قاسم، وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء، وكان يستجلب المصنّفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه، وكان ذا غرام بها قد آثر ذلك على لذّات الملوك، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذياً نسيج وحدِهِ، وكان ثقة فيما ينقله، وقلّما يوجد كتاب من خزائنه إلّا وله فيه قراءة أو نظر في أيّ فنّ كان، ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلّا عنده، قال ابن خلدون: وأرسل ألف دينار من الذهب العين ثمناً لنسخة من كتاب «الأغاني» سنة تأليفه، وكان نسب مؤلفه أبي الفرج في بني أميّة، فظهر كتاب الأغاني في الأندلس قبل أن يظهر في العراق موطن المؤلف ـ وكانت «خزانة الكتب العلميّة» في الزهراء أيامه من أعظم خزائن الدنيا، روى «تلبد الفتى» القيّم على هذه الخزانة فيما حدّث عنه الحافظ أبو محمد بن حزم، أن عدّة الفهارس التي فيها تسمية الكتب ٤٤ فهرستاً في كل فهرست ٢٠ ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط.

وهذا أمر من أوامر العلم يصدر بلسان عالم إلى أكبر ملك في الإسلام قام بالأندلس أو كما يسمونها «البر الطويل» فأرى أهل الغرب عزّة الإسلام وعظمة رجاله، هو «صقر قريش» الذي بهر بأعماله الحيّة فأراد أن يسجّلها على وجه الدهر باقية للخلف عن السلف بإنشاء مدينة «الزهراء» التي ذهبت شهرتها مع الشمس ولا تزال إلى اليوم تتراءى في دفائنها بما يبين عنه الكشف، وقد تفنن «عبد الرحمن الناصر» في مدينته ويداه مبسوطتان تسعفانه بالعجب، فكان مما صنعه فيها «الصرح الممرّد» اتخذ لقبّته قراميد من ذهب وفضة، فما أن سمع العالم «القاضي منذر بن سعيد» بذلك حتى هاله عمل الحاكم وأخذ يؤنّبه عليه،

(١) جرجي زيدان، التمدن الإسلامي، ج ١، ص ٢٠٣.

فكان مما قاله: ما ظننت أن الشيطان أخزاه الله يبلغ بك هذا المبلغ، ولا تمكّنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله وفضلك به على العالمين، حتى أنزلك منازل الكافرين! فاقشعرّ عبد الرحمن من قوله، وقال: أنظر ما تقول، كيف أنزلني منازلهم، قال: نعم، أليس الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾﴾ فوجم الخليفة ونكس رأسه ملياً ودموعه تجري على لحيته خشوعاً لله تبارك وتعالى وتذمُّماً إليه، ثم أقبل على منذر وقال له جزاك الله تعالى يا قاضي خيراً، عنّا وعن المسلمين، والدّين، وكثّر في الناس أمثالك، فالذي قلت هو والله الحق. وقام من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى، وأمر بنقض سقف القبّة وأعاد قراميدها تراباً[1].

عظمة العلماء:

بعد هذا الذي قصصنا عليك من أخلاق العلماء وعزّة العلم ونفوس أهله، ما تصحّ أن تنبت هذه البذور إلا عظمة في العلماء، سواء في أنفسهم أو في المجتمع الذين يعيشون فيه. وسيرد في الباب الآتي إعزازهم، وهذه مُثلٌ من عظمتهم بعد أمثال عزّتهم.

١ ـ يحكى أن مروان قال لعبد الحميد بن يحيى حين أيقن بزوال ملكه: قد احتجتُ أن تصير مع عدوّي وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابك تحوجهم إلى حسن الظنّ بك، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي. فقال له عبد الحميد: إن الذي أشرت به عليّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله تعالى عليك، أو أقتل معك وأنشد:

أســرّ وفــاء ثــم أظــهــر غــدرة؟ ‎ ‎ ‎ ‎ فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

٢ ـ روي أن أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور استدعى عبد الله بن

(١) مفتاح دار السعادة، ص ١٧٤.

طاوس. ومالك بن أنس رضي الله عنهما، فلما دخلا عليه أطرق ساعة ثم التفت إلى عبد الله بن طاوس وقال له: حدثني عن أبيك طاوس (ابن كيسان التابعي) فقال: حدثني أبي، أن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في سلطانه فأدخل عليه الجور في حكمه. فأمسك أبو جعفر ساعة، قال مالك: فضممت ثيابي خوفاً أن يصيبني دمه، ثم قال له المنصور ناولني تلك الدواة، ثلاثة مرات، فلم يفعل، فقال له: لم لا تناولني؟ فقال: أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوماً عني قال ابن طاوس، ذلك ما كنّا نبغي، قال مالك، فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم.

٣ ـ قال أبو يوسف: كنت أمشي مع أبي حنيفة فقال رجل لآخر: هذا أبو حنيفة لا ينام الليل، فقال: والله لا يتحدث الناس عني بما لم أفعل، فكان يحيي الليل صلاة ودعاء وتضرّعاً[١].

٤ ـ قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدي وأتى سفيان الثوري فلما دخل عليه سلم تسليم العامة ولم يسلم بالخلافة و«الربيع» قائم على رأسه متكئاً على سيفه يرقب أمره، فأقبل عليه المهديّ بوجه طلق وقال له: يا سفيان تفرّ ههنا وههنا وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك؟ فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟ قال سفيان: إن تحكم فيَّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل، فقال له الربيع: يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ أتئذن لي أن أضرب عنقه، فقال له المهدي: اسكت ويلك، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم؟ اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على ألا يُعترض عليه في حكم، فكتب عهده ودفع إليه؛ فأخذه وخرج ورمى به في دجلة وهرب، فطلب في كل بلد فلم يوجد، ولما امتنع من قضاء الكوفية تولّاه شريك النخعي فقال الشاعر:

(١) أخبار العلماء، ص ٢٤٦.

تحرّز سفيان وفرَّ بدينه وأمسى شريك مرصداً للدراهم[١]

٥ ـ قال ابن جناب: غزا عيسى بن يونس المحدّث خمساً وأربعين غزوة، وحج خمساً وأربعين حجة، قال الوزير جعفر البرمكي: ما رأيت في القرّاء مثل عيسى بن يونس، وذكر أنه عرض عليه مائة ألف درهم فردّها وقال: والله لا يتحدث أهل العلم أني أكلت للسنّة ثمناً[٢].

٦ ـ تولّى القاضي منذر بن سعيد قضاء الجماعة بقرطبة للناصر في شهر ربيع الآخر، سنة تسع وثلاثين وثلثمائة، وبقي قاضياً إلى وفاة الناصر فولي القضاء للحكم المستنصر إلى أن توفي عقب ذي القعدة من سنة خمس وخمسين وثلثمائة، بلغ من أمره أن الناصر لما بنى مدينة «الزهراء» واستفرغ جهده في تنميقها وإتقان قصورها: وانهمك حتى تعطّل مرّة عن شهود والجمعة في المسجد الجامع بقرطبة فلما حضر لصلاة تعطّل مرّة عن شهود الجمعة في المساجد الجامع بقرطبة فلما حضر لصلاة الجمعة بعد افتتاح الزهراء ـ وكان منذر يلي الخطبة فع القضاء ـ وقام يخطب، بدأخطبته بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ ثم وصل ذلك بقوله: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ ومضى في ذلك تشييد البنيان والإسراف في الإنفاق عليه، وما زال بالقوم حتى خشعوا وبكوا وضجّوا، وأخذ الخليفة من ذلك بأوفر حظّ وقد علم أنه المقصود وفبكى وندم. إلا أنه وجد على منذر، وشكا ذلك لولده الحكم، وقال: والله لقد تعمدّني منذر بخطبته، وما عني بها غيري، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي ولم يحسن السياسة في وعظي، وأقسم ألا يصلي خلفه صلاة الجمعة، فجعل يلزم صلاتها ووراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة، ويجانب الصلاة بالزهراء، فقال له

---

(١) محيي الدين الخطيب، الزهراء، ص ١٤.

(٢) محب الدين الخطيب، الزهراء، ص ٣٠.

الحكم: فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك إذ كرهته؟ فزجره وقال له: أمثل منذر بن سعيد في فضله وخير علمه ـ لا أم لك ـ يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكن أحرجني فأقسمت، ولوددت أني أجد سبيلًا إلى كفارة يميني بملكي، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى فما أظننا نعتاض عنه أبداً.

٧ ـ كان بكار بن قتيبة قاضي مصر في زمن أحمد بن طولون فغضب عليه وسجنه، وكان السبب في ذلك أن أحمد بن طولون لما خرج إلى قتال «الموفق» حين ضيق وهو وليّ العهد على أخيه المعتمد وهو الخليفة حينئذ حتى إنه لم يبق للمعتمد إلا الاسم، ضاق المعتمد بذلك وكاتب أمراء الأطراف، فوافقه أحمد بن طولون وواعده أن يحضر إليه ويحمله معه إلى مصر ويجعلها دار الخلافة، فتهيأ المعتمد واهتم أحمد بأمره، فبلغ الموفّق فنصب لأحمد الحرب وصرّح بعزله ولعنه، فصرّح أحمد بخلعع الموفّق من ولاية العهد، وأمر بلعنه، وخرج بالعسكر من مصر واستصحب القاضي بكاراً فلما كان بدمشق، جاء كتاب المعتمد إلى ابن طولون بخلع الموفّق من ولاية العهد. ففعل، وأجاب القضاة كلّهم إلى خلعه، فطلب منهم أحمد أن يلعنوا الموفّق فامتنع بكّار، فألحّ عليه فأصرّ على الامتناع حتى أغضبه، وكان قبل ذلك له مكرهاً معظماً عارفاً بحقّه، وكان يجيزه في كل سنة بألف دينار ـ غير راتبه ـ فلما غضب عليه، أرسل إليه: أين جوائزي؟ فقال: على حالها، فأحضرها من منزله بخواتيمها (ستة عشر كيساً) فقبضها أحمد.

٨ ـ ويحكى عن الطبيب «أمين الدولة» أنه كان لا يقبل عطيّة إلا من خليفة أو سلطان، فعرض لبعض الملوك النائين مرض مزمن. فقيل له: ليس لك إلا ابن التلميذ وهو لا يقصد أحداً، فقال: أنا أتوجّه إليه، فلما وصل أفرد الطبيب له ولغلمانه دوراً وأفاض عليه من الجرايات قدر الكفاية، ولبث مدّة، فبرىء الملك وتوجّه إلى بلاده وأرسل إليه مع بعض التجار أربعة آلاف دينار، وأربعة تخوت، وأربعة مماليك، وأربعة أفراس، فامتنع من قبولها، وقال: إنّ

عليّ يميناً ألّا أقبل من أحد شيئاً، فقال التاجر، هذا مقدار كثير. قال: لما حلفت ما أستثنيت، وأقام شهراً يراوده وهو لا يزداد إلا إباء، فقال له عند الوداع: هأنذا أسافر ولا أرجع إلى صاحبي وأتمتع بالمال، فتتقلّد وتفوتك منفعته، ولا يعلم أحد بأنك رددته، فقال: ألست أعلم في نفسي أني لم أقبله فنفسي تشرف بذلك، علم الناس أم جهلوا[١].

٩ ـ روي لي غير واحد من معاصريّ: أن السلطان عبد العزيز لما قدم مصر زار الجامع الأزهر، وصحبه الخديو إسماعيل، فلحظ الخديوي على شيخ الجامع كأنه غير مهتمّ، فهو مسند ظهره، ماذّ رجله، فأسرع بالسلطان عنه، ثم كلف أحد رجاله وقد أراه الشيخ أن يذهب له بصرّة يريد أن يعرف حاله، فلما جاء الرسول ليعطيه، فبض الشيخ عنه يده، وقال له: قل لمن أرسلك، إنّ من يمدّ رجله لا يمدّ يده.

١٠ ـ وكان «الأمير عزّ الدين موسك» من أمراء دولة بني أيوب «الذي ينسب إليه شارع الموسكي بمصر لأنه بنى قنطرة على الخليج في هذه الجهة فنسبت إليه وبها عرف الشارع أميراً خيراً يحب أهل العلم والصلاح، فلما قدم الإمام القاسم الشاطبي المقرىء الضرير، وكان إماماً منقطع القرين، رأساً في القراءات، الذي سارت الركبان بقصيدته (حرز الأماني) وصف للأمير فطلبه، ولم يتقدم الأمير إليه بنفسه، فأخذت الشيخ عزّة العلم وهو الغريب الفقير فكتب له رقعة فيها:

قل للأمير نصيحة … لا تركننّ إلى فقيه
إنّ الفقيه إذا أتى … أبوابكم لا خير فيه[٢]

فبمثل هذه الأخلاق ارتفع العلماء وبعكسها انحطّوا، ولكن لم نقطع الأمر من إصلاح الحال واستعادة التراث الماضي.

وهذه سلسلة ذات حلقات كل حلقة منها عظمة تجلّت بها حياة عالم ظهر

(١) تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ١٦٠.
(٢) تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٦٣.

في القرون الوسطى أيام الحروب الصليبية، كان بركة من عند الله على الإسلام في وقت الحاجة إلى مثله، ملخصه من كتاب (طبقات الشافعية) وقد سقنا ما اقتضى المقام سوقه في هذه الترجمة. كان الملك الأشرف من بني أيوب والي دمشق، أخوه الملك الكامل والي مصر، وكانت فتنة قامت بدمشق على مسألة كلامية انتصر فيها العزّ بن عبد السلام للشريعة نصراً أغضب الملك الأشرف إذ كان ميله للمشاغبين على الشيخ فلما مرض الأشرف، أرسل للشيخ يتحلّل ويسأله أن يعوده ويوصيه بما ينفعه، فأنعم الشيخ، وكان السلطان قد وقعت بينه وبين أخيه الكامل وحشة. فأمر وهو في مرضه أن ينصب دهليزه صوب مصر، فقال الشيخ للسلطان الأشرف، إنّ الملك الكامل أخوك الكبير ورحمك، وأنت مشهور بالفتوحات، والتتر قد خاضوا بلاد المسلمين، فتترك ضرب دهليزك إلى أعداء الله وأعداء الإسلام وتضربه صوب أخيك؟ غيّر الحال ولا تقطع رحمك وانْوِ مع الله نصر دينه، وإعزاز كلمته فإن من الله بعافيتك رجونا من الله إدالتك على الكفار وكانت في ميزانك هذه الحسنة العظيمة، وإن قضى الله بانتقالك كان السلطان في خفارة نيّتك، فقال: جزاك الله خيراً عن إرشادك ونصيحتك، وأمر والشيخ حاضر بنقل دهليزه صوت التتار، ثم قال له: زدني من نصيحتك، ووصاياك، فزاده الشيخ حتى أمر بإبطال المكس والإقلاع عن المحرمات والمظالم، وأطلق له ألف دينار مصرية فردّها عليه وقال: هذه اجتماعة لله لا أكدّرها بشيء من الدنيا، وشاع عند الناس صورة هذا المجلس وتبطيل المنكرات، وباشر الشيخ بنفسه تبطيل بعضها ـ وكان الملك الصالح إسماعيل أخو الملك الأشرف نائب أخيه الأشرف في الملك والسلطة ولم يمضِ تبطيل المنكرات لأنه كان مع أخيه الأشرف في عقيدته التي أنكرها الشيخ وجاهر بفسادها، ولم يمضِ على هذا يسير زمن حتى قام الملك الكامل من مصر بجيوشه وحاصر أخويه، ثم اصطلح.

وحضر الشيخ عند الكامل، فأكرمه غاية الإكرام، وأجلسه على تكرمته. والصالح إسماعيل واقف على رأسه يشاهد ذلك، وولاه الكامل زاوية الغزالي وقضاء دمشق وأعطى الصالح بعلبك، فتوجّه إليها وملكها، ثم اختلست المنية

الأشرف والكامل، وتملّك دمشق الملك الجواد، وكاتب الملك الصالح نجم الدين أيّوب فقدمها، وأكرم الشيخ ثم توجّه بعسكره إلى نابلس بعد اتفاقه مع الصالح ببعلبك على أن ينجده في حملته التي أراد بها الاستيلاء على مصر.

لما استولى الصالح على دمشق، وهو قد شاهد ما اتفق للشيخ مع الأشرف والكامل، ولّاه خطابة دمشق، ووحينما بلغه استيلاء نجم الدين أيّوب على مصر خاف منه، فاصطلح مع الافرنج على أن ينجدوه عليه، وسلّم إليهم «صيدا» وقلعة «الشقيف» وغيرهما من حصون المسلمين، ودخل الإفرنج دمشق لشراء السلاح، فشقّ ذلك على الشيخ مشقّة عظيمة، وأفتى الناس بتحريم مبايعتهم لأنهم يقاتلون به المسلمين، وقطع خطبة الصالح، وزاد في آخر خطبته قبل أن ينزل من على المنبر «اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً تعزّ فيه وليّك، وتذلّ فيه عدوّك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك» والناس يبتهلون بالدعاء والتأمين، فاعتقلوا الشيخ إلى أن قدم الصالح من بعلبك فأخرجه من المعتقل، ونزح الشيخ من دمشق إلى بيت المقدس، فأسره صاحب نابلس.

إلى أن جاءت الجموع من الفرنج وهؤلاء الملوك إلى بيت المقدس يقصدون الديار المصرية فسيّر الصالح بعض خواصّه إلى الشيخ بمنديل الأمان، وأمره أن يلاطفه، ويعده بالعود إلى مناصبه، قال: فإن وافقك فتدخل به عليّ، وإن خالفتك فاعتقله في خيمة إلى جانب خيمتي فلمّا اجتمع الرسول بالشيخ، أخذ يلاينه، وقال له: بينك وبيني أن تعود إلى مناصبك وما كنتَ عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبّل يده لا غير، فقال له الشيخ، ولكن يا مسكين، ما أرضاه أن يقبّل يدي فضلًا أن أقبل يده، يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، فقال له: وقد رسم لي إن لم توافق أن أعتقلك، قال: افعلوا ما بدا لكم، فاعتقلوه في خيمة.

وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه، فقال يوماً لملوك الفرنج: تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم، قال: هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته لإنكاره عليّ تسليمي حصون المسلمين لكم، وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جدّدت حبسه

واعتقاله لأجلكم، فقال له ملوك الفرنج: لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا ماءهما. ثم إن الله نصر المصريين وهزم هذه الجموع، فجاء الشيخ إلى مصر، وأقبل عليه السلطان الصالح نجم الدّين أيّوب وولّاه خطابتها وقضاءها وفوّض إليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة، فأقام على ذلك زمناً، ثم عزل نفسه عن الحكم، فتلطّف السلطان في ردّه فباشره مدّة وعزل نفسه مرّة أخرى، وتلطف مع السلطان أن يُمضي عزله فأمضاه، وأبقى جميع نوّابه من الحكّام، وولاه تدريس المدرسة الصالحية بالقاهرة، ثم مات نجم الدين ووصل ابنه «توران شاه»، فعامل الشيخ أحسن معاملة، ثم انفضّ ملك بني أيوب وصارت الدولة إلى الأتراك فعامل كل منهم الشيخ بكبير الإكرام ولا سيّما الظاهر بيبرس، فإنه كان منقمعاً تحت كلمته لا يستطيع أن يخرج عن أمره.

ولما مات الشيخ في زمنه أمر أمراءه وخاصته وأجناده بتشييع جنازته وحمل نعشه، وحضر هو دفنه، ولما مرّت الجنازة تحت القلعة وشاهد كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصّه، اليوم استقرّ أمري في الملك، لأنَّ هذا الشيخ لو كان يقول للناس: أخرجوا عليه لانتزع الملك منّي.

ومما يروى عن عظمة الشيخ أن «شجرة الدرّ» لما ولّيت مصر تكلم في بعض تصانيفه، على ما إذا ابتلى المسلمون بولاية امرأة، ومعروف أن الخليفة المستعصم أرسل يعاتب أهل مصر على توليتها.

وأظهر ما بدا من عظمته أن «الظاهر بيبرس» لما أقام الخلافة بمصر وأثبت قاضي القضاة نسب الخليفة المستنصر لم يتقدّم ببيعته إلا بعد أن بايعه الشيخ، وكذلك لما أعقبه الخليفة الحاكم بايعه الشيخ أولّا، ثم بعده السطان ثم القضاة والأمراء.

١١ ـ قال الشيخ الباجي ـ طلع شيخنا عزّ الدين مرّة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبّل الأرض بين يدي السلطان،

فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه: يا أيوب ما حجّتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوّىء لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فقال: هل جرى ذلك؟ فقال: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات وأنت تتقلّب في نعمة هذه المملكة، يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون، فقال: يا سيدي هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي، فقال: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمّة؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة ـ قال الباجي: سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان وقد شاع هذا الخبر: يا سيد كيف الحال؟ فقال: يا بنيّ رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه، فقلت: يا سيدي أما خفته؟ فقال: والله يا بنيّ استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان قدّامي كالقطّ.

مكانة الشيوخ في عهد الدولة التركية

وهم جماعة ذُكر أن الشيخ لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرقّ مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين فبلغهم ذلك فعظم الخطب فيه واحتدم الأمر، والشيخ مصممّ لا يصحّح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً وتعطّلت مصالحهم بذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة فاستشاط غضباً، فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقالّ نعقد لكم مجلساً، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يرجع، فجرت على السلطان كلمة فيها غلظة حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر، وأنه لا يتعلّق به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار، وأركب عائلته على حمير أخرى، ومشى خلفهم خارجاً من القاهرة قاصداً نحو الشام فلم يصل إلى نحو نصف بريد حتى لحقه غالب المسلمين، لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه له يتخلّف، ولا سيّما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاءهم، فبلغ السلطان الخبر، وقيل له: متى راح ذهب ملكك؟ فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيّب قلبه، فرجع واتفقوا

معهم على أنه ينادي على الأمراء فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه، فانزعج النائب وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنّه بسيفي هذا، فركب بنفسه في جماعته وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى، فعاد إلى أبيه وشرح له الحال، فما اكترث لذلك ولا تغيّر وقال: يا ولدي أبوك أقلّ من أن يقتل في سبيل الله، ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة، فحين وقع بصره على النائب، يبست يد النائب وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له. وقال: يا سيدي خير، أي شيء تعملُ؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم قال: ففيم تصرف ثمننا؟ قال في مصالح المسلمين، قال: من يقبضه؟ قال: أنا، فتمّ له ما أراد، ونادى على الأمراء واحداً واحداً، غالى في ثمنهم، وقبضه، وصرفه في وجوه الخير، وهذا ما لم يسمع بمثله عن أحد رحمه الله تعالى ورضي عنه(١).

وقال السيوطي: إن الملك الصالح نجم الدين أيوب اشترى ألف مملوك وأسكنهم بقلعة الروضة وسمّاهم «البحرية» وهو الذي أكثر من شراء الترك وعتقهم وتأميرهم ولم يكن ذلك قبله، فقام الشيخ عز الدين بن عبد السلام القومة الكبرى في بيع أولئك الأمراء وصرف ثمنهم في مصالح المسلمين وقال بعض الشعراء ينكر على السلطان:

الصالح المرتضى أيّوب أكثر من ... ترك بدولته يا شرّ مجلوب
قد آخذ الله أيوباً بفعلته ... فالناس كلهم في ضرّ أيوب

١ - حكى الشعبي قال: أنفذني عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم فلما وصلت إليه جعل لا يسألني عن شيء إلا أجبته، وكانت الرسل لا تطيل الإقامة عنده، فحبسني أياماً كثيرة حتى استحثثت خروجي، فلما أردت الانصراف، قال لي: من أهل بيت المملكة أنت؟ فقلت: لا ولكنّي رجل من العرب في الجملة. فهمس بشيء، فدُفعت إليّ رقعة، وقال لي: إذا أدّيت الرسائل إلى

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٥٨.

صاحبك فأوصل إليه هذه الرقعة، قال: فأديت الرسائل إلى عبد الملك ونسيت الرقعة، فلما صرت في بعض الدار أريد الخروج تذكّرتها فرجعت فأوصلتها إليه فلما قرأها، قال لي: أقال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك؟ قلت: نعم، قال لي: من أهل بيت المملكة أنت؟ قلت: لا ولكني من العرب في الجملة، ثم خرجت من عند الخليفة فلما بلغت الباب رددت، فلما مثلت بين يديه، قال لي: أندري ما في الرقعة؟ قلت: لا، قال: اقرأها، فقرأتها فإذا فيها: عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره، فقلت له: والله لو علمت ما فيها ما حملتها، وإنما قال: هذا لأنه لم يرك، قال: أفتدري لمَ كتبها؟ قلت: لا، قال: حسدني عليك، أراد أن يغريني بقتلك، فتأدّى ذلك إلى ملك الروم، فقال: ما أردت إلا ما قال.

٢ ـ كلّم الشعبي عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين في قوم حبسهم ليطلقهم فأبى، فقال: أيها الأمير إن حبستهم بالباطل فالحقّ يخرجهم وإن حبستهم بالحقّ فالعفو يسعهم، فأطلقهم.

٣ ـ كان الليث بن سعد من عظمته أنه لا يقطع أمراء مصر أمراً دونه، ورغب إليه المنصور أن يلي له فاعتذر، فقال: أمّا إذا أبيت فدلّني على رجل ـ وكان له في كل يوم أربعة مجالس.

٤ ـ وكان إسماعيل بن اليسع الكندي قاضي مصر يذهب إلى إبطال الوقف فحاجّه الليث وقال: قد حبّس النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فمن بقي بعد هؤلاء؟ وكتب إلى الخليفة «المهدي» فورد الكتاب بعزله، فأتاه الليث فجلس إلى جنبه وقال للقارىء: اقرأ كتاب أمير المؤمنين، فقال له إسماعيل: يا أبا الحارث، وما كنت تصنع بهذا؟ والله لو أمرتني بالخروج لخرجت، فقال له الليث: والله إنك لعفيف عن أموال المسلمين، وكذلك كان كتاب الليث إلى الخليفة ما نقمنا عليه في الدينار والدرهم إلا خيراً، إنا لم ننكر عليه شيئاً غير أنه أحدث أحكاماً لا نعرفها.

٥ ـ عن يعقوب بن داود الوزير: قال: يا أمير المؤمنين «المنصور» لمّا

قدم «الليث» العراق، ألزم هذا الشيخ فإنه ما بقي أحد أعلم بما كان منه.

٦ ـ قال أشهب بن عبد العزيز: كان لليث أربعة مجالس كل يوم مجلس لحوائج السلطان، ومجلس لأصحاب الحديث، ومجلس لأصحاب المسائل، ومجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد فيردّه، صغرت حاجته أم كبرت.

٧ ـ لما خرج الظاهر «بيبرس» إلى قتال التتار بالشام، أخذ فتاوى العلماء بأنّه يجوز به أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدوّ، فكتب له فقهاء الشام بذلك، فقال: هل بقي أحد؟ فقيل: نعم، بقي الشيخ محي الدين النووي، فطلبه فحضر، فقال: أكتب خطك مع الفقهاء، فامتنع فقال: ما سبب امتناعك؟ فقال: أنا أعرف أنك كنت في الرقّ للأمير «بندقدار»، وليس لك مال ثم منّ الله عليك وجعلك ملكاً، وسمعت أن عندك ألف مملوك كلّ مملوك له حياصة من الذهب، وعندك مائتا جارية لكل جارية حُقّ من الحليّ، فإذا أنفقت ذلك كلّه وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلًا من الحوائص، وبقيت الجواري بثيابهنّ دون الحليّ، أفتيتك بأخذ المال من الرعيّة، فغضب «الظاهر» من كلامه وقال: أخرج من بلدي، يعني دمشق، فقال: السمع والطاعة، وخرج إلى «نوى»، فقال الفقهاء، إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به، فأعده إلى دمشق، فرسم برجوعه، فامتنع الشيخ وقال: لا أدخلها والظاهر بها، فمات الظاهر بعد شهر.

٨ ـ ولمّا حضر حسن باشا من الجزائر إلى مصر وخرج الأمراء المصريون إلى الجهة القبليّة واستباح أموالهم وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم، زاعماً أنهم أرقّاء لبيت المال، لمّا فعل ذلك، اجتمع الأشياخ وذهبوا إليه، فكان المخاطب له الشيخ محمد أبو الأنوار قائلًا له: أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلك السلطان إلى أقامة العدل ورفع الظلم كما تقول، أو لبيع الأحرار وأمّهات الأولاد وهتك الحريم؟ فقال: هؤلاء أرقّاء لبيت المال، فقال له: هذا لا يجوز ولم يقل به أحد، فاغتاظ غيظاً شديداً وطلب كاتب ديوانه، وقال له: أكتب أسماء هؤلاء وأخبر السلطان بمعارضتهم لأوامره، فقال له السيد محمود البنوفري: أكتب ما تريد بل نحن نكتب أسماءنا بخطّنا، فأفحم

وانكف عن إتمام قصده، وتتبّع أموال الأمراء، وودائعهم، وكان إبراهيم بك الكبير قد أودع عند أبي الأنوار وديعة، فأرسل يطلبها، فامتنع عن دفعها قائلًا: إن صاحبها لم يمت، وقد كتبت على نفسي وثيقة فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها في قيد الحياة، فاشتدّ غيظ الباشا منه وقصد البطش به، فحماه الله منه ببركة الانتصار للحقّ، فكان يقول: لم أر في جميع الممالك التي ولجتها من اجترأ على مخالفتي مثل هذا الرجل فإنه أحرق قلبي(١).

٩ ـ حدّثني الشيخ على البرلّسي: أن الشيخ حسن الطويل العالم المشهور، دخل يوماً على الخديوي وعليه عباءته، فأراده رجال التشريفات أن يخلعها، فأبى وقال: ألقى بها ربّي ولا أقابل فيها الخديوي!

١٠ ـ وقال لي المرحوم محمود بك أبو النصر: إن الشيخ حسن الطويل كان من العزّة في نفسه والثقة بالله تعالى على جانب لم يبال معه الدنيا ولا أهلها، كان إنّما يعني بروحه ولا تهمّه الثياب ـ حدّثني أن رياض باشا وهو رئيس الحكومة وناظر الماليّة جاء مدرسة دار العلوم يوماً، وكان على موعد فيها من «علي مبارك باشا»، فدخل حجرة المدرّسين وصادف أن كان فيها الأستاذ فسلّم خافتاً، وجلس منحرفاً مقنفذاً، فبادره الشيخ بالحديث، ثم قال له: يا باشا، أما آن لكم أن تجعلوني معكم ناظراً؟ فأخذ رياض باشا دهشاً وقال له: ما هذا يا شيخ حسن؟ قال: ما تسمع يا باشا، قال: فأي نظارة تريد؟ قال: المالية، قال: لماذا؟ قال: لأستبيح أموالها، فوقف الباشا، ودخل علي باشا مبارك وسمع آخر الحديث ثم خرج مع رياض باشا وهو يثور ويقول له: لا بدّ أن تخرج هذا الرجل من خدمة الحكومة، قال علي باشا: كيف؟ وما أصنع مع علماء الأرض وهو عالِم عالَمي قال محمود بك: وكان «اللورد كرومر» رتّب على الشيخ جواسيس إذ بلغه أنّه يطعن على الانجليز، فكان الواحد منهم لا يفارقه حتى يأوي إلى البيت، وكان الشيخ يجلس على قهوة الأزهر، وصاحبها هو الذي يقبض راتبه ويتولّى الصرف على منزله، فلما طال الأمر، ألف

---

(١) المقطم، تاريخ ٥/ ٢/ ١٩٣٥.

الجواسيس وصار يقعدهم معه ولا يبالي أن يتكلم أمامهم بما يخطر له، ولا يهمّه ما يرفعون عنه، ففي يوم رفع الجاسوس إلى اللورد: أن الشيخ قال له، تعال يا أخي اقعد هنا، فنحن قوم لم يفارقهم الداء، شكونا الصداع فبلينا بالسرطان، لا كان الله للترك ولا للإنجليز. فلما سمع اللورد هذا، قال: إذن فالشيخ وطنيّ يهمّه بلده وكان يظنّ أنه متعصّب دينيّ، ورفع عنه الجواسيس ورغب إلى وزير المعارف أن يزيد في راتبه وكان ١٢ جنيهاً، لكثرة ما كان يحدّثه عنه العلماء المستشرقون، قال محمود بك: وصادفت هذه الواقعة قبل أن يطلب رياض باشا ما طلبه بأيام، ولذلك قال علي مبارك باشا لرئيس الحكومة: وأيضاً فإن اللورد كتب إليّ يتطلب له المزيد في راتبه، فكان رياض باشا الذي طلب عزل الشيخ، هو الذي أنفذ زيادة الراتب.

١١ ـ وحدثني محمود بك أبو النصر قال: كان علي مبارك باشا كثيراً ما يغشى مدرسة دار العلوم لأنه هو الذي أنشأها، وكان يجلّ الشيخ «حسناً» غاية الإجلال، والشيخ ما كان يعنى بملابسه كما قلت، فلما زيد راتبه، دخل الباشا يوماً فوجد الشيخ بثيابه لم يزد فيها، فقال له: يا شيخ حسن لقد حسنت الحال وزاد الراتب، أفلا تُغلي من ثيابك، فلم يكن من الشيخ إلا أن قام إلى السبورة، وأخذ بيده أصبع طباشير، وقال: يا باشا، ما قيمة ثيابك التي عليك؟ فدهش علي باشا، وصمّم الشيخ أن يجيب فقوّمها بـ ٢٥ جنيهاً، قال قوّم ثيابي وأبخس فيها، فبلغت ٧٥ قرشاً. قال: وما إيرادك من منصبك وملكك؟ فأخبره، فعمل الشيخ حسبة تَناسبٍ طلعت بها ثياب الشيخ بالنسبة إلى إيراده أغلى من ثياب الباشا أضعافاً مضاعفة، فلم يسع الباشا إلا أن يقول: آمنتُ آمنتُ.

١١ ـ وحدثني الأستاذ الشيخ منصور مهران: أن الخديوي حدّد يوماً يزور فيه مدرسة دار العلوم، وكان ناظرها وقتذاك إبراهيم بك مصطفى، فاهتمّ الناظر بتزيين المدرسة، وكان منه من أشار على الشيخ حسن الطويل ليحسن زيّه يوم الزيارة، قال الأستاذ، ففي يوم الزيارة لم يحضر الشيخ، وأرسل عيبة فيها كسوة حسنة، وقال للرسول: قل للناظر إنك تريد زيّاً يقابل الخديوي، فها هو ذا في العيبة، فبهت الناظر وتوسل إلى الشيخ أن يحضر كما يهوى، فجاء بملابسه

العادية؛ وجاء الخديوي ومعه ناظر المعارف فخري باشا فجلسا في درس الشيخ وهو يقرأ من جلوس حتى فرغ والناظر واقف، فقام الخديوي وسلّم على الشيخ، وأبدى له الكرامة، وأخذ يحدثه هو وناظر المعارف، والحديث يجيء له جانب يستدعي أن يخاطب الشيخ ناظرّ المدرسة فيسمّيه بإبراهيم بك، وعلّم الشيخ بعظمته، أن القيمة ليست للملابس.

١٢ ـ وحدثني الأستاذ: أن اللورد كرومر دخل على المرحوم الشيخ محمد الإنباني شيخ الجامع الأزهر وسلّم عليه، فردّ الشيخ التحية وصافح اللورد من جلوس، فاستعظم اللورد هذا، وقعد بجوار الشيخ وقال له: يا سيدنا الشيخ، ألستَ تقوم للخديوي؟ قال: نعم، قال: فلم لم تقم لي؟ قال: إن الخديوي وليّ الأمر، وأما اللورد فليس منّا، قال محدّثي، ووقع جواب الشيخ من اللورد موقع الإعظام، فأكبر نفس الشيخ وصراحته في صدقه وأولاه مزيد الاحترام، وقيل: إنه كتب الحادث في أحد تقاريره لحكومته.

وحدّثني عن المرحوم الشيخ محمد عبده؛ أنه مرّ يوماً على اللورد كرومر يزوره، فقابله السكرتير ولم يكن يعرفه، وأخبره بغيبة اللورد، فترك الشيخ بطاقته، وتمشى على النيل، فلما رفعت البطاقة للورد وعرف الزائر، أرسل السكرتير على عجل يعتذر للشيخ، ويدعوه لأن اللورد في حاجة لمقابلته، فقال الشيخ: بلّغه التحية وقل له: في وقت آخر وأبى أن يعود.

وقال الأستاذ: رفع إلى الخديوي أن الشيخ محمد عبده قبّل يد اللورد كرومر وهو يودّعه على المحطّة، وكان الشيخ مدعواً للعشاء عند الخديوي مع آخرين، فلما ابتدأ الطعام، سأله الخديوي عما رفع إليه، قال الشيخ منصور حدّثني من كان مدعواً ليلتها مع الشيخ محمد عبده؟ أن الشيخ حينما سمع السؤال من الخديوي، حمى، ورفع يده من الطعام، فرفعنا أيدينا، واندفع يتكلّم كمعلّم وسط مدرسة، يقول: يا أفندينا، تعرف أنّي لم أقبّل يدك، ولو كانت هنا يد أقبّلها لكانت يد الخديوي، فكيف مع هذا يتصوّر أن أقبّل يد اللورد؟ وأمثال هذا الكلام ـ قال: فاعتذر الخديوي إلى الشيح وقال: قاتلهم الله، إنهم لكاذبون، ولم يهدأ الشيخ حتى اعتذر.

إعظام الملوك لهم

نتيجةٌ لازمة لما عرضنا عليك من أخلاق العلماء وآثارهم وعزّة العلم وسلطانه، أن يكون العلماء أهل التكريم، وأولي الخلق وأحقّهم بالتعظيم، والعلم كان في أصله أرفع من المُلك، وكان الملك يسعى للعالم لأن الملك يحتاج إلى العلم ولا يحتاج العلم إلى الملك، حتى جاء «فرعون» وادّعى الألوهيّة، فلم ير أنّه يتناسب مع جلالها أن يسعى إلى غيره، ولم ير من العلماء الأصلاء من يسعى له، ففتق وزيره «هامان» الحيلة له بأن يعلّم أولاد السفلة العلم، ومن هؤلاء كانت ذلّة العلم وأهله. ولكن ظلّ نور العلم الصافي موروثاً في أهل الصفاء يعزُّونه ويعزّهم، فأعزّهم سلطانه واستقام والملوك والسوقة لهم بالتبجيل والكرامة ـ وفيما مضى من أبواب الكتاب آيات تدلّ، ونورد طُرفاً خالصة لهذا الباب.

١ ـ لمّا دخل الحسن بن محمد بن الحسين على عمر بن عبد العزيز، جثا له على ركبتيه وقال له: إيهِ أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة، فقال له: يا عمر، ثلاث من كنّ فيه فقد استكمل الإيمانَ من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، ومن ذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحقّ، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له.

٢ ـ وكان المنصور يأمر بالصياح على النّاس في الموسم: لا يفتي الناسَ إلّا مالك، وابن أبي ذئب.

٣ ـ عن عبد الله بن رجاء الغداني، قال: كان لأبي حنيفة جار بالكوفة إسكافي يعمل نهار أجمع، حتّى إذا جنّه الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحماً فطبخه، أو سمكة فيشويها، ثم لا يزال يشرب، حتى إذا دبّ الشراب فيه، غنّى بصوت، وهو يقول:

أضاعوني، وأيّ فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسِداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردّد هذا البيت حتى يأخذه النوم، وكان أبو حنيفة

يسمع جلبته، وأبو حنيفة كان يصلّي الليل كلّه، ففقد أبو حنيفة صوته، فسأل عنه، فقيل: أخذه العسس منذ ليال وهو محبوس، فصلّى أبو حنيفة صلاة الفجر من غد وركب بغلته واستأذن على الأمير. قال الأمير: ائذنوا له وأقبلوا به راكباً، ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط، ففعل، فلم يزل الأمير يوسّع له من مجلسه، وقال: ما حاجتك؟ قال: لي جار إسكافي أخذه العسس منذ ليال، أياأمير الأمير بتخليته، فقال: نعم، وكلّ من أخذ في تلك الليلة إلى يومنا هذا، فأمر بتخليتهم أجمعين، فركب أبو حنيفة والإسكافي يمشي وراءه، فلمّا نزل أبو حنيفة مضى إليه فقال: يا فتى أضعناك؟ قال: لا بل حفظت ورعيت، جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحقّ. وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان[1].

وبمناسبة هذا البيت الذي كان الإسكاف يتغنّى به، نروي قصة كلمة منه بل حرف من الكلمة، أخذ عالم على تصحيحه ثمانين ألف درهم. قال النضر بن شميل: دخلت على أمير المؤمنين بمرو، وعليّ أطمار مترعبلة (متمزّقة)، فقال: يا نصر تدخل على أمير المؤمنين في مثل هذه الثياب؟ الأخلاق، قال: ولكنّك رجل متقشّفٌ، فتجارينا الحديث فقال المأمون: حدّثني هشيم بن بشير، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تزوّج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سَداد من عوز**» (سداد بالفتح)، قال: صدقوك يا أمير المؤمنين. وحدّثني عوف الأعرابي عن الحسن أن النبي ﷺ قال: «**إذا تزوّج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سِداد من عوز**» وكان المأمون مُتكئاً فاستوى جالساً وقال: لسَداد لحن عندك يا نضر؟ قلت: نعم ها هنا يا أمير المؤمنين، وإنّما هشيم لحن وكان لحّانة، فقال: ما الفرق بينهما؟ قلت: السَّداد: القصد في الدين والطريقة والسبيل، والسِداد البلغة، وكل ما سددت به شيئاً فهو سِداد، وقد قال العرجي:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسِداد ثغر

قال: فأطرق المأمون مليّاً، ثم قال: قبّح الله من لا دأب له، ثم أخذ

---

(١) الشيخ محمود عرنوس، تاريخ القضاء في الإسلام، ص ١٢٤.

يسأله عن أخلب بيت للعرب، وأنصفه، وأقنعه، فأنشده أبياتاً جزلة فيما سأل، فقال له: أحسنت يا نضر، وكتب إلى الفضل بن سهل بخمسين ألفاً، وأمر خادماً بإيصال رقعته وتنجيز ما أمر به، فمضيت معه إليه، فلما قرأ التوقيع ضحك، وقال لي يا نضر: أنت الملحّن لأمير المؤمنين؟ قلت: لا، بل لهشيم، قال: فذاك إذاً، وأطلق لي الخمسين ألف درهم وأمر لي بثلاثين ألفاً[1].

إنّ إكرام الأمراء للعلماء وإلطافهم بمادّة ما في أيديهم، كان له أفضل الأثر في استفتاح العقول والإيغال بها في منادح العلوم حتى أطرف العلماء ملوكهم وأممهم بخير ممّا نالوا، وهذه شنشنة الأمم الحيّة، يخدمون العلم بالمادّة فيقوى العلم على خدمة المادّة والروح، وبهذه الوسيلة برعت أمم الحياة وسبقت أمم الخمول بما ألهب الأمراء به العلماء، فألهب العلماء به الأمم، سوقاً إلى المجد وحثاً على طلبه ونصباً لغايته من طريقها المعبّد، ولو شئت أن أفتح هذا الباب باب «تأثير العطاء في العلم والعلماء» لخرجت عن مدار الكتاب، ولكنّي عجت بالقارىء على طرف من هذه الناحية لأهيب بالحاضرين أن يعرفوا فضل السابقين، وأن يعلموا أن الفضل الذي يمرح الغرب فيه الآن من تعاون الأمراء والعلماء إنّما كان شرعة أسلافهم ونهج آبائهم، سلكوه فعزوا، وتنكّبناه فكان ما كان، ممّا نحن فيه الآن، والدليل على هذا ماثل في تاريخ الإسلام، فإنّ من يطلع عليه ببصر وبصيرة يرى العلم الإسلامي قد دعمت آساسه، واشمخرّ بناؤه في مدى القرنين الأولين، والقرنان اللّذان ولياهما كانا لتحسين الصرح وتزويقه والزخرفة فيه والرونقة به، ثم غفت بعدهما عين العلم إغفاءة تتقطع أحياناً على يقظات متفرّقات، إلى أن جاء القرن السابع الهجري، وفيه عاود الروح المسلمين، إذ أيقظهم التتار من الشرق والافرنج من الغرب بهجمات كان الظنّ ألّا قبل لهم بها، ولكن وعد الله كان باقياً، فجمع الروح شمل الأمراء والعلماء للاضطلاع بأعباء الدفاع، والحقّ يقال أنّ الفريقين وفيا للإسلام وأخلصا للمسلمين وردّا العادية عنهم وعن بلادهم فكان للعلم من هذا التلاقي عود إلى

(١) طبقات الشافعية، ج ٥، ص ٨٤.

الحياة ورجعة إلى التماوج، ولكن أمواجه في تلك القرون كانت أشبه بأمواج البحيرات لا مدد لها من البحر المحيط، فكانت جهود العلماء فيها جهود من يدور في دائرة لا يخرج عنها، بعد أن كانت حدود العلم في القرون الأولى مرفوعة وآفاق العلماء غير منظورة، إلى أن جلا العدو عنهم، واطمأنت دار الإسلام بهم، ودهمت فترات الخمول هممهم، ورجعت كل نفس إلى صدرها، وانحازت كل طائفة إلى حوزها، وقطعت أسباب الاتصال، ونسيت تلك الكتل البشرية سنة الله في خلقه وناموس الاجتماع في حكمه، حينذاك انطفأت فتيلة العلم في هذا المحيط الهائل وغفا الحراس وأهمل المنبهون فكانت الدلجة التي تسبق الفجر أحلك ما تكون من قطع الليل إلا نجوماً خافته تتراءى ولا ترى، حتى إذا جاء الغرب بعلومه وآثار علومه صحا المسلمون على نوره، وهو يخطف أبصارهم ويغشى عيونهم فهم لا يرونه ولا يرون به، وإن رأوا فليس يتجلى لشبكيّات عيونهم تجلية لأصحابه ومتاعهم به، فكنا كصاحب الدار دخلها اللص في غفلته فسل ما فيها وانسلت به، ثم عاد وصاحبها نائم فاحتملها وسكنها وأنزل لها أهله ومتاعه، حتى إذا زاد ضجيجهم في فنائها وغرفها تيقّظ صاحبها من وسط حجلته دهشاً عجباً من تغير الحال وتنكّر الآل وقصور الباع وضيق الذراع، وصاحبها الجديد يومض بنوره الجديد ويقول له بلغته الجديدة: يا صاحب الدار إني اليوم صاحبها، وصدق الله العظيم ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

وهذه طرفة من طرف هارون الرشيد الذي بلغ الإسلام في زمنه مستقرّ السؤدد بما كان يواليه أولياؤه من رعاية دينهم ودنياهم، ترى الرشيد العالم الحاجّ الغازي الذي قضى عمره في عمل الخير والصلاح لأمته ولدينه لا يفوته وهو يحج بيتاً سمعه من مجنون، فهو يوقد كبير مغنيّه ليأخذه عنه ثم يجيزه عليه بما تسمعه، وهكذا حوط الراعي لمملكته يشمل اللمام والهمام، وبذلك خر الملك، ودانت الدنيا للمسلمين الأولين.

قال إسحاق الموصلي: دعاني الرشيد لمّا حجّ فقال: صر إلى موضع كذا وكذا من المدينة فإن غلاماً مجنوناً يغنّي صوتاً حسناً وهو:

هما فتاتان لمّا تعرفا خلقي   وبالشباب على شيبي يدلاّن

وله أمّ، فصر إليها، وأقم عندها، واحتل حتى تأخذه، فجئت أستدل، حتى وقفت على بيتها فخرجت إليّ فوهبت لها مائتي درهم وقلت لها: أريد أن تحتالي على ابنك حتى آخذ منه الصوت الفلاني فقالت: نعم وأدخلتني دارها وأمرتني فصعدت إلى علية لها، فما لبثت أن جاء ابنها فدخل، فقالت له: يا سليمان فدتك نفسي؛ أمّك قد أصبحت اليوم خاثرة مغرمة، فأحبّ أن تغني ذلك الصوت: «هما فتاتان لمّا تعرفا خلقي» فقال لها: ومتى حدث لك هذا الطرب؟ قالت: ما طربت، لكنّي أحببت أن أتفرّج من همّ قد لحقني، فاندفع فغنّاه، فما سمعت أحسن من غنائه، فقالت له أمّه: أحسنت فديتك، فقد والله كشفت عن قطعة من همّي، فأسألك أن تعيده، قال: والله ما لي نشاط، ولا أشتري غمّي بفرحك، فقالت له: أعده مرّتين ولك درهم صحيح تشتري به ناطفاً (نوع من الحلواء) قال: ومن أين لك درهم؟ ومتى حدث لك هذا السخاء؟ فقالت: هذا فضول لا تحتاج إليه، وأخرجت إليه درهماً فأعطته إيّاه فأخذه وغنّاه مرّتين، فدار لي وكاد يستوي فأومأت إليها من فوق أن تستزيده فقالت: يا ابني بحقي عليك إلّا أعدته؟ فقال: أظنّ أنّك تريدين أن تأخذينه فتصيري مغنية، فقالت: نعم كذا هو، قال: لا وحقّ القبر لا أعدته إلا بدرهم آخر، فأخرجت له درهماً آخر فأخذه، وقال أظنك والله قد تزندقت وعبدت الكبش فهو ينقد لك هذه الدراهم، أو قد وجدت كنزاً، فغناه مرتين، وأخذته واستوى لي، ثم قام فخرج يعدو على وجهه، فجئت إلى الرشيد فغنيته به وأخبرته بالقصّة، فطرب وضحك، وأمر لي بألف دينار، ووقال لي: هذه بدل مائتي الدرهم(١).

٤ ـ ودخل عمرو بن عبيد يوماً على أبي جعفر المنصور في خلافته وكان صاحبه وصديقه قبل الخلافة وله معه مجالس وأخبار، فقرّبه وأجلسه ثم قال له: عظني فوعظه بمواعظ منها: إن هذا الأمر أصبح في يدك، لو بقي في يد غيرك

(١) الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٣، ص ١.

ممّن كان قبلك لم يصل إليك، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده - فلما أراد النهوض، قال: قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، قال: لا حاجة لي فيها، قال: والله لا آخذها، وكان المهدي ولد المنصور حاضراً، فقال: يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟؟ فالتفت عمرو إلى المنصور وقال: من هذا الفتى؟ قال: هو وليّ العهد، ابني المهدي، فقال: أما والله لقد ألبسته لباساً ما هو من لباس الأبرار، وسمّيته باسم ما استحقه، ومهّدت له أمراً أمتع ما يكون به، أشغل ما يكون عنه ثم التفت عمرو إلى المهدي، فقال: نعم يا ابن أخي إذا حلف أبوك حنّثه عمّك لأن أباك أقوى على الكفّارات من عمّك. فقال له المنصور، هل من حاجة؟ قال: لا تبعث إليّ حتى آتيك. قال: إذن لا تلقاني! قال: هي حاجتي، ومضى فاتبعه المنصور طرفه. وقال:

كلكم يمشي رويد
كلكم يطلب صيد
غير عمرو بن عبيد

ومات عمرو هذا ودفن بموضع يقال له مرّان فرثاه المنصور بقوله:

صلى الإله عليك من متوسّد ... قبراً مررت به على مرّان
صبراً تضمّن مؤمناً متحنّفاً ... صدق والإله ودان بالعرفان
لو أن هذا الدهر أبقى صالحاً ... أبقى لنا عمراً أبا عثمان

ولم يسمع بخليفة يرثي من دونه سواه.

٥ - قال نمير المدني: قدم علينا أمير المؤمنين المنصور المدينة ومحمد بن عمران الطلحي متولّ القضاء بها وأنا كاتبه، فحضر جماعة من الجمالين واستعدوه على أمير المؤمنين المنصور في شيء ذكروه، فأمرني أن أكتب كتاباً إلى المنصور بالحضور معهم أو أنصافهم، فقلت له: تعفيني من ذلك فإنه يعرف خطّي، فقال: اكتب فكتب وختمت، فقال: والله ما يمضي به غيرك، فمضيت به إلى الربيع حاجبه وجعلت أعتذر إليه، فقال: لا بأس عليك، ودخل بالكتاب على المنصور ثم خرج الربيع فقال للناس وقد حضر وجوه أهل المدينة والأشراف وغيرهم، إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام،

ويقول لكم: إني قد دعيت إلى مجلس الحكم فلا أحد منكم يقوم إذا خرجت ولا يبدأ أني بالسلام، قال: ثم خرج وبين يديه المسيّب والربيع أنا خلفه وهو في إزار ورداء، فسلّم على الناس فما قام إليه أحد ثم مضى حتى بدأ بقبر النبي ﷺ ثم التفت، فلما رآه ابن عمران القاضي أطلق رداءه على عاتقه ثم احتبى به، ودعا بالخصوم والجمّالين. ثم دعا بالمنصور، فادّعى عليه القوم، وقضى لهم عليه، ثم انصرف، فلمّا دخل المنصور الدار، قال للربيع اذهب فإذا قام القاضي من مجلسه فادعه، فلما دعاه ودخل على المنصور، سلّم عليه فردّ عليه السلام، وقال له: جزاك الله عن دينك وعن نبيّك وعن حسبك وعن خليفتك أحسن الجزاء، قد أمرت لك بعشرة آلاف صلة لك فاقبضها. فكانت عامّة أموال محمد ابن عمران من تلك الصلة فما أبرك سلوك السنن القويم واتباع الصراط المستقيم(١).

وقال المأمون: ما قدمت بغداد إلا لأكتب كتب الواقدي(٢).

٦ ـ كتاب الواقدي هذا رقعة إلى المأمون يذكر فيها غلبة الدين وغمّه بذلك، فوقع المأمون على ظهرها: فيك خلّتان: السخاء والحياء، فأما السخاء فهو الذي أطلق ما ملكت، وأما الحياء فهو الذي منعك من إطلاعنا على ما أنت عليه، وقد أمرنا بكذا وكذا، فإن كنّا أصبنا إرادتك في بسط يدك، فإنّ خزائن الله مفتوحة، أنت كنت حدّثتني، وأنت على قضاء الرشيد، عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال للزبير: **«يا زبير إن باب الرزق مفتوح بباب العرش، ينزل الله على العباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن قلّل قلل له، ومن كثّر كثر له»**. قال الواقدي: وكنت قد أُنسيت هذا الحديث، فكانت تذكرته إياي أحب إليّ من جائزته، قال هارون بن عبد الله القاضي الزهري بلغني أن الجائزة كانت مائة ألف درهم فكان الحديث أحب إليه من المائة الألف(٣).

---

(١) تاريخ بغداد، ج ١٤، ص ٢٦٣.
(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٥، ص ٢٠.
(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج ١، ص ١٢٧.

إن هذا اللطف الملوكي في كتاب المأمون إلى الواقدي، مبعثه عزّة العلم وشعور الكاتب بعظم من يكتب إليه حتى يؤنسه بأخذه عنه الحديث وأنه يعرف ما فيه من خلال الفضل، فتوسل بذكرها إلى الإشارة بها والاحتجاج لها والقيام بإعزاز صاحبها، ولا عجب في هذا بعد أن يكون قدوم المأمون بغداد ليكتب عن الواقدي كما يقول الخليفة نفسه، وكان بعد انتصاره على أخيه قد تبطّأ أزماناً، ولا فخر فالواقدي (محمد بن عمر بن واقد) هو كما قالوا فيه: أمّن الناس على أهل الإسلام ـ وأعلم الناس بأمر الإسلام. وإليه يرجع الفضل في جمع تاريخ الإسلام وتحقيقه على الطريقة التي يقولون إنها مستحدثة كما سترى في الفصل الآتي.

هذا العالم العظيم، كان الفضل في انتشار علمه وتوفير راحته وتفتّح روضه للوزير الكريم يحيى بن خالد البرمكي، فهو الذي عرفه ولمح عزّته فأعزّه وخفّض العيش عليه، وأقام لعلمه دولة كان كاتبها محمد بن سعد صاحب الطبقات المشهور بكاتب الواقدي، وفي سوق القصة تعريف لكرم الحكم ونبل الرياسة، ومن عرّف هذا الكرم كانت حياة الواقدي ـ فقد كان الواقدي مع علمه حنّاطاً بالمدينة يتّجر في الحنطة، حصلت ففي يده مائة ألف درهم للماس يضارب بها فخسرها كلّها، فشخص إلى العراق وقصد يحيى البرمكي وسأل الإذن، فقال له الحجّاب: هذه الكلمة السامية للتعريف بعادة ذلك الوزير السامي (إذا قدّم الطعام إليه، لم يُحجب عنه أحد) وأدخلوه عليه في ذلك الوقت، فمن أول جلسة عرفه الوزير وأفاده. وسأله العود إليه فعاوده أربعة أيام أفاد فيها أربعة آلاف دينار، ثم أقطعه داراً وأثّثها له وسأله المقام معه وأعطاه ما سدّد دينه وأصلح حاله، فأقام بأهله في ناحيته وتولّى قضاء الجانب الشرقي ببغداد ثم ولاه المأمون القضاء بعسكر المهدي فلم يزل قاضياً حتى مات.

قال «الخطيب»: كان الواقدي جواداً كريماً مشهوراً بالسخاء، وهو من طبق شرق الأرض وغبرها ذكره، ولم يخف على أحد عرف الناس أمره، وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي، والسير، والطبقات وأخبار

النبي ﷺ، والأحداث التي كانت في وقته وبعد وفاته ﷺ، وكتب الفقه، واختلاف الناس في الحديث وغير ذلك.

٧ ـ وقال لازون بن إسماعيل: ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي دؤاد، وكان يُسأل الشيء اليسير فيمتنع منه ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيكلّمه في أهله، وفي أهل الثغور وفي أهل الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب فيجيبه إلى كل ما يريد. ولقد كلّمه يوماً في مقدار ألف ألف درهم ليحفر بها نهراً في أقاصي خراسان فقال له: وما عليّ من هذا النهر؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيّتك كما يسألك عن النظر في أمر أدناها، ولم يزل يرفق به حتى أطلقها.

وإعزاز المعتصم هذا لأحمد لم يكن مبتدئاً به، بل كان له مثله وأجلّ عند المأمون، حتى كتب عنه في وصيّته التي كتبها لأخيه المعتصم دستوراً يسير عليه بعد تولّيه، قال فيها: «وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك الشركة في المشورة في كلّ أمرك، فإنّه ذلك» فلما ولى المعتصم، الخلافة، جعله قاضي القضاة وخصّ به أحمد حتى لا يفعل فعلًا باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه، ولما مات المعتصم، ظلّ كذلك عنده ولده الواثق بالله.

٨ ـ ولما مات أبو إسحاق الشيرازي وانقضى عزاؤه، وكان أول من درس بالمدرسة النظامية، رتب مؤيد الملك بن نظام الملك «أبا سعد المتولّي» مكانه، فلما بلغ الخبر إلى نظام الملك، كتب بإنكار ذلك، وقال: كان من الواجب أن تغلق المدرسة سنة لأجله، وزرّى على من تولّى موضعه، وولّى غيره.

٩ ـ وكان نظام الملك هذا الوزير الأشهر إذا قدم عليه إمام الحرمين أبو المعالي، وأبو القاسم القشيري صاحب الرسالة المشهورة في التصوّف، بالغ في إكرامهما وأجلسهما في مقعده.

١٠ ـ ولمّا عاد إمام الحرمين إلى نيسابور، في أوائل ولاية السلطان ألب أرسلان السلجوقي، والوزير يومئذ نظام الملك، وإمام الحرمين هو من هو، بنى له المدرسة النظامية بنيسابور، وحضر دروسه بها أكابر الأئمة، وانتهت إليه الرئاسة ثلاثين سنة غير مزاحم.

١١ ـ وقد سبق القول أن فخر الدين ابن شيخ الشيوخ المتولّي أمر المملكة المصريّة في زمن الصالح بني «طبلخانة» على مسجد وأمر القاضي عزّ الدين بهدمها وأسقط ابن الشيخ من ولايته لذلك، وظنّ فخر الدين أنّه لا يتأثر بهذا الحكم في الخارج، فاتّفق أنّ السلطان جهّز رسولاً إلى الخليفة المستعصم، فلمّا أدّى الرسالة، قال له الخليفة: هل سمعت هذه الرّسالة من السلطان؟ قال: لا، ولكن حمَّلنيها عنه فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، فقال الخليفة: إنّ المذكور أسقطه ابن عبد السلام، فنحن لا نقبل روايته، فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرّسالة، ثم عاد إلى بغداد.

١٢ ـ حدّثني أبي رحمه الله: وكان قد قدم لطلب العلم بالجامع الأزهر في أواخر أيام شيخه الشيخ إبراهيم البيجوري رحمه الله، قال أبي: كتب لي شيخ الجامع ورقة بمساحة أصبعين أقدّمها للمدير هذا نصّها (ولدنا مدير الدقهليّة ـ رافعه من طلبة العلم يجب إكرامه ـ خدام العلم والفقراء، الختم إبراهيم البيجوري) قال أبي: فرفعتْ هذه الورقة عن عائلتنا كلّها ظلم تلك الأيّام، وعافتنا من السخرة والعوز وجميع تلك المظالم، قال، ورفعت من شأني ما لم أحسّه بعد هذا، لمن نال أكثر وأكثر.

١٣ ـ وحدثني أبي: أن الخديوي عباس الأول كان يجيء الأزهر ويحضر به درس الشيخ البيجوري فيُجلب له كرسي قشّ صغير من قهوة بلدية أمام باب المزينين، يجلس عليه بجوار المستمعين.

١٤ ـ وملك مصر الملك فؤاد الأول يقابل عصبته في أيام التشريفات ثم يكون العلماء أول الداخلين عليه، ومن ورائهم سائر رجال المملكة.

١٥ ـ وحدثني أبي قائلًا: إن الشيخ سليمان إبراهيم النوري (المتوفى سنة ١٣٢٢هـ)، وكان رحمه الله من علماء التشريفة السابقين قال: ما كان أحد يجلس وتنزل له القهوة في أيام التشريفات غير الأمراء والعلماء، وغيرهم يقابلهم ربّ القصر وهو واقف فيسلّمون وينصرفون. وقال: كان لعلماء التشريفة يوم سبت من كل أسبوعين يلقون فيه وليّ الأمر، يجلس إليهم وتدور القهوة عليهم

ويتكلم معهم ويسمع ما يقولون؟ وتسمى هذه التشريفة الصغرى لا يلبسون فيها كسا التشريف إنما هم بملابسهم عليها الفراريج.

والنُّوري نسبة إلى بلدنا كوم النور من أعمال مديرية الدقهلية، حدّثني أبي أن أول من لقّبه به شيخه المرحوم الشيخ إبراهيم السّقّا، وكان أبي تلميذه الأوّل وقارىء الكتاب في درسه على عادة أهل العلم في ذلك الزمن، قال رحمه الله: لما زار السلطان عبد العزيز مصر أمر لعلماء الأزهر ببضعة آلاف وزعت عليهم، فكتب كل شيخ أسماء طلّابه وجاء مدير الأوقاف يوزّعها عليهم، وجلس في مسجد محمد بك أبو الذهب قبالة الأزهر، فكان يدعو كلّ شيخ إذا وصل الدور إلى كشفه فيقعد معه حتى يصرف لتلميذِيه، قال أبي وكنت في ذلك الوقت شاباً أتغالي في ملابسي، وكنت أصبغ الجلباب عند «الصبّاغ» ولا يصبغ عنده إلا الأثرياء، وعليّ قفطان بلديّ وزيّي في ذلك الوقت مع الشباب وجيه، فلما نادى الكاتب باسمي (الشيخ سليمان النوري) تلفّت الحضور جميعاً وجئت فسمعت الباشا يقول للشيخ السقا وهو بجواره ما هذا الاسم «النووي»؟ فأجابه الشيخ أنه نوري، أي نوري أنا فشحك الباشا وسرّ.

العلم ـ والعمَل

أومضنا لك في هذا الكتاب بلمحات من علم النور الذي يهدي به الله، ويسمو صاحبه حتى يعلو على ظلمة المادة فتذلّ له المادّة بعناصرها، العلم الذي أعزّه أهله ورقّوا له حتى استعبدهم فاستعبد لهم من سواهم، وذاقوا فعرفوا أنه لا حدود له، وعرفوا بسعته تقصيرهم فيه فجدّوا له ونهموا، وطالب العلم منهم لا يشبع قيل لأبي عمرو بن العلاء، حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ قال: ما دامت الحياة يحسن به.

وكانت الدنيا كلها دار علم لهم، يتنقلون في أقطارها كما يتنقل أطفال اليوم في غرف المكتب، فعادتهم إذ ذاك الرِحَل والنُقل وهواهم في التلقّي والتلاقي عادة متبعة وشنشنة معروفة. قال ابن الأثير في مختصره: كان أبو سعد واسطةَ عقد البيت السمعاني، رحل في طلب العلم والحديث إلى شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها، وسافر إلى ما وراء النهر وسائر بلاد خراسان عدّة دفعات، وإلى قومس والريّ وأصبهان وهمذان وبلاد الجبال والعراق والحجاز والعراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وغيرها من البلاد التي يطول ذكرها ويتعذر حصرها، ولقي العلماء وأخذ عنهم وجالسهم وروى عنهم واقتدى بأفعالهم الجميلة وآثارها الحميدة، وكانت عدّة شيوخه تزيد على أربعة آلاف شيخ.

١ ـ قال أبو أسامة: ما رأيت رجلًا أطلب للعلم في الآفاق من ابن المبارك، وقال ابن المبارك: حملت عن أربعة آلاف شيخ فرويت عن ألف منهم ـ قال العباس بن مصعب في تاريخه: وقع لي من شيوخه (ابن المبارك) ثمانمائة، وقد جمع ابن المبارك الحديث والفقه والعربية والشجاعة والسخاء

والتجارة والزهد والشعر والفصاحة والحج والغزو وقيام الليل ومحبة الفِرق له[١].

٢ ـ وقال السيوطي العالم المصري المشهور في ترجمته لنفسه: سافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور. وذكر العلوم التي رزق التبحّر فيها والعلوم التي أحاط بها وقال: لو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها، لقدرت على ذلك من فضل الله، لا بحولي ولا بقوتي[٢].

وقد أفادهم (العلماء) الانقطاع إلى العلم سعة في أنظارهم وبركة في عقلهم ومعقولهم: وغذاء تامّاً لمداركهم وقواهم العقلية، وفيما وقفنا عليه من أحوالهم مدهش يعجب له من يسمعه حتى ليخاله بعيداً عن التصديق ولكنه الواقع الذي أفاده الانقطاع له والتوفّر عليه، وفي كثرة ما يروى عن جمهرة من العلماء قرينة صادقة على حصوله وصحّة وقوعه، فقد روى أن الإمام أحمد بن حنبل صاحب المسند والمذهب المشهورين كان يحفظ ألف ألف حديث.

٣ ـ وقال يحيى بن معين: كتبت يدي هذه ستمائة ألف حديث وكتب له المحدّثون بأيديهم ستمائة ألف ـ وخلّف يحيى هذا من الكتب مائة قمطر، وأربع حباب شرابية (جمع حُبّ وهو الخابية) مملوءة كتباً وانتهى إليه علم علماء الأقطار حتى قال أحمد بن حنبل فيه: كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث.

٤ ـ وأملى شمس الأئمة السرخسي كتابه «المبسوط» نحو خمسة عشر مجلداً، وهو في السجن باوزجند، كان محبوساً في الجبّ بسبب كلمة نصح بها الخاقان، وكان يملي من خاطره من غير مطالعة كتاب وهو في الجب، وأصحابه في أعلى الجب، وقال عند فراغه من شرح العبادات: هذا آخر شرح

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد للملك السعيد، ص ١٧٠.

(٢) تاريخ البغدادي، ج ٣، ص ٥.

العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات، إملاء المحبوس عن الجمع والجماعات. وقال في آخر شرح الإقرار: انتهى شرح الإقرار المشتمل من المعاني على ما هو من الأسرار، إملاء المحبوس في محبس الأشرار. وله كتاب في أصول الفقه وشرح «السير الكبير» أملاه وهو في الجبّ، ولما وصل إلى باب الشروط حصل له الفرج فأطلق، فخرج في آخر عمره إلى «فرغانة» فأنزله الأمير حسن بمنزله، ووصل إليه الطلبة فأكمل الإملاء(١).

٥ ـ وقال الخطيب في تاريخه: كان للواقدي ستمائة قمطر كتب وكان يقول: ما من أحد إلا وكتبه أكثر من حفظه، وحفظي أكثرُ من كتبي، قال إبراهيم الحربي: الواقدي أعلم الناس بأمر الإسلام، حدّث الكلبي أنه سمع الواقدي يقول: ما أدركت رجلًا من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا سألته هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل؟ فإذا أعلمني، مضيت إلى الموضع فأعاينه، ولقد مضيت إلى (المريسيع) فنظرت إليها، وما علمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع حتى أعاينه أو نحو هذا الكلام. قال فحدثني ابن منيع قالد سمعت هارون القروي يقول: رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة فقلت: أين تريد؟ فقال: أريد أن أمضي إلى (حنين) حتى أرى الموضع والوقعة. قال العباس: وحدثني من أثق به وهو أبو أيوب بن أبي يعقوب قال: سألت إبراهيم الحربي قلت: أريد أكتب مسائل مالك، فأيما أعجب، مسائل ابن وهب أو ابن القاسم؟ فقال لي: اكتب مسائل الواقدي، في الدنيا أحد يقول سألت مالكاً والثوري وابن أبي ذئب ويعقوب (أبا يوسف) غيره؟ أرادا أن مسائل الواقدي أكثر لأنه أجمع، ولا يقتصر على جمع ما عند إمام واحد(٢).

وطريقة الواقدي هذه طريقة «الجامعيّين» المستحدثين الذين يزعمون أنهم سبقوا الأوائل في نهج تحقيق المسائل، فالواقدي المؤرخ الفحل يرى ويكتب،

(١) تاريخ البغدادي، ج٣، ص ١٩.
(٢) تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٤.

ويسمع ويكتب، وهو على ما يكتب قادر محيط، إن شاء وسّع وإن شاء اختصر، فقد عرف عنه أنه يجمع روايات الرجال وأحاديثهم وينسجها في برد ينشره، فرغبوا إليه أن يميّز رواية كل راو ويسردها وحدها، فأخبرهم أن هذا يطول، فرضوا أن يطول، فغاب عنهم جمعه، وأفرد روايات المحدّثين عن غزوة «أحد» وجاءهم بها عشرين مجلداً، فجفلوا وسألوه أن يرجع إلى سبيله، الأوّل بعد أن عرفوا غور بحره وبعد ساحله.

٦ ـ وقال أبو علي القالي: كان أبو بكر بن الأنباري يحفظ فيما ذكر ثلثمائة ألف مشاهد في القرآن الكريم، وقيل له قد أكثر الناس في محفوظاتك فكم تحفظ؟ فقال: أحفظ ثلاثة عشر صندوقاً، وقيل: إنه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً للقرآن بأسانيدها، ومن جملة تصانيف الأنباري غريب الحديث، قيل إنه خمس وأربعون ألف ورقة، وكتاب شرح الكافي وهو نحو ألف ورقة، وكتاب الهاءات نحو ألف ورقة، وكتاب الأضداد، وكتاب الجاهليات، وهو سبعمائة ورقة، والمذكر والمؤنث ما عمل أحد أتمّ منه، ورسالة المشكل ردّ فيها على ابن قتيبة، وأبي حاتم.

٧ ـ وكان أبو عمرو: المعروف بغلام ثعلب، مشغولاً بالعلوم واكتسابها عن اكتساب الرزق والتحيّل له، فلم يزل مضيّقاً عليه، وكان لسعة علمه وغزارة حفظه يملي أكثر تصانيفه بلسانه من غير صحيفة يراجعها، حتى قيل أنّه أملى من حفظه ثلاثين ألف ورقة في اللغة.

٨ ـ قال الوليد بن يزيد: لحمّاد الراوية، بم استحققت هذا اللقب، فقال: الراوية؟ فقال: إني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به، ثم لا أُنشد شعراً لقديم ولا محدث إلا ميزت القديم منه من المحدث، فقال إنّ هذا العلم وأبيك كبير، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ قال: كثيراً، ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام، قال: سأمتحنك في هذا، وأمره بالإنشاد، فأنشد الوليدَ حتى ضجر، ثم وكَّل به من استخلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليه، فأنشده ألفين

وتسعمائة قصيدة للجاهليين، وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة درهم(١).

٩ ـ كان المتنبّي لا يسأل عن شيء إلّا استشهد فيه بكلام العرب، حتى قيل: إنّ الشيخ أبا عليّ الفارسيّ قال له يوماً: كم لنا من الجموع على وزن فَعْلَى؟ فقال المتنبي في الحال: حِجلي وظربي.. قال أبو عليّ، فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال عليّ أن أجد لهما ثالثاً فلم أجد. وحسبك من يقول فيه أبو عليّ هذه المقالة(٢).

١٠ ـ وقرأت في ترجمة الكسائي ـ عالم العربية في عصره ـ أنه اجتمع يوماً بمحمّد بن الحسن الفقيه صاحب أبي حنيفة، فقال الكسائي: من تبحّر في علم يُهدى إلى جميع العلوم، فقال له محمد: ما تقول فيما سها في سجود السهو، هل يسجد مرّة أخرى؟ قال الكسائي: لا، قال محمد: لماذا؟ قال الكسائي: لأنّ النّحاة تقول، المصغّر لا يصغّر، قال محمد: فما تقول في تعليق الطلاق بالمِلْك؟ قال: لا يصح، قال: لِمَ؟ قال: لأن السيل لا يسبق المطر.

١١ ـ وهذا لعمري علم النور، وهذا وحقّك نور العلم، صفّى نفس العالم حتى ما عاد يحبسها حجاب. وبهذا القدر قدّر العلماء أنفسهم وقدّرهم الناس. قال إبراهيم بن الحسن: كنّا عند المأمون، فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة، فاختلفوا في ذلك، ودخل أحمد بن أبي دؤاد فعدّهم واحداً واحداً بأسمائهم وكناهم. فقال المأمون: إذا استجلس الناس فاضلًا فمثل أحمد، فقال أحمد: بل إذا جالس العالِم خليفة فمثل أمير المؤمنين الذي يفهم عنه، ويكون أعلم بما يقوله منه.

١٢ ـ ومن قصّة ابن أبي دؤاد، يرى لمعٌ من حال موظفي الدولة الأولى، فلم تك مناصبهم لتبعدهم عن العلم، أو لتقصيهم عن الانتظام في الجلّة من المنقطعين له، بل رجال لا تلهيهم أعمالهم عن العلم وتتبّعه والاستزادة من مناهله، والقيام في مجالسه بما ينادي باستحقاقهم لمناصبهم وتفوّق أقدارهم

---

(١) حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٤١.
(٢) التراجم البهية في تراجم الحنفية، ص ١٥٨.

على مراتبهم، حتى يتقارض الخليفة والقاضي الثناء علناً، والتصابي في العلم جهاراً.

وهذا قاض آخر، لم يشغله مجلس القضاء عن مجالس العلم بل تكاد تشربه، إذ كان القضاء فيما مضى والعلم صنو مجلس واحد ينتظمه المسجد الجامع أو دار القضاء العامة، قال اللكنويّ: كان لنوح بن أبي مريم، قاضي مرو الذي يلقب بالجامع، لأنه كان جامعاً للعلوم، كان له أربعة مجالس: مجلس الأثر، ومجلس أقاويل أبي حنيفة (وقد تفقّه عليه)، ومجلس النحو، ومجلس الشعر والأدب[1].

١٣ ـ وهذا ذكر لنابغة الزمان وحافظ الإسلام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري صاحب «الصحيح» الذي عكف المسلمون عليه بعد القرآن، أخذناه طُرفا من تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر (ج ٢) فقد أُلهم البخارى حفظ الحديث وهو في الكتّاب ثم رقت درجته حتى ردّ على شيخه «الداخلي» وهو ابن إحدى عشرة سنة، وسمع عنه جلّة الشيوخ وهو ابن سبع عشرة، وصنف تاريخه المشهور وهو ابن ثمان عشرة، وخرّج كتاب الصحيح من ستمائة ألف حديث، وسمعه تسعون ألف رجل، ولم يَضع فيه حديثاً إلا اغتسل وصلّى ركعتين، ونظم تراجمه بين قبر النبي ﷺ ومنبره، ويصلّي ركعتين لكل ترجمة.

هذا الحافظ العظيم الذي كان يضارع مالكاً في الفقه والحديث، ويجلس له مسلم صاحب «الصحيح» جلسة السائل المتعلم، وتقابله الأمصار إذا دخلها مقابلة الفاتح، ويخشع العلماء في حضرته خضوع من يظلّهم الجبل، نشأ مشغولًا بالحديث، مشغولًا عمّا عدا العلم، حتى روى عنه أنه منذ ولد إلى أن مات ما اشترى شيئاً ولا باعه، حتى الحبر والكاغد الذي يحتاجه، كان يكلّف غيره بشرائه، وروى أصحابه ممن عاشره أنه كان يقوم بالليل بضع عشرة مرّة فيوقد السراج ويخرج أحاديث، فيعلّم عليها ويقول البغدادي: إنه رحل في طلب العلم إلى سائر محدّثي الأمصار وكتب بخراسان والجبال ومدن العراق

(١) تاريخ بغداد، ج ٣، ص ٦٣.

كلّها وبالحجاز والشام ومصر، وقد ذكر البخاري، أنه كتب عن ألف شيخ وأكثر، وقال ابن النضر: دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة ورأيت علماءها فكلّما جرى ذكر البخاري فضّلوه على أنفسهم، وقد طنّ له نبوغه من صغره نفوس أهل الكبَر حتى لقّبوه: الكبش النطّاح، ويذكر ابن إسماعيل اختلافه معهم في الصبا لسماع الحديث ستة عشر يوماً على مشايخ البصرة والطلبة يكتبون وهو لا يكتب حتى عابوا عليه ما يضيع، فقال لمّا أكثروا: أخرجوا ما كتبتم في تلك الأيام، فإذا بالمكتوب خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلّها عن ظهر قلب، وعُرف عنه هذا النبوغ فكان أهل المعرفة في البصرة يعْدون خلفه وهو في الطريق حتى يجلسوه كرهاً فيستملي عليه الألوف. هذا العظيم نشأ كما قلنا مشغولاً بالعلم فترك ما عداه، ويروي عمر بن حفص الأشقر أنهم فقدوه أياماً من كتابه الحديث قال: فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان وقد نفذ ما عنده ولم يبق معه شيء، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوباً وكسوناه ثم اندفع معنا في كتابه الحديث. هذا الفتى العاري، هو الذي كان يدخل الأمصار الحواضر فيتنادى الناس بمقدمه، ويتعادون لسماع الحديث عنه حتى يبلغ مجلسه عشرين ألفاً أو يزيدون، ومن عجب أن يكون معه في زمنه حفّاظ الإسلام أبو زرعة بالريّ، ومسلم بنيسابور، والدارمي بسمرقند، وبقيّة أصحاب الأسانيد قريب من زمنه قبله أو بعده بقليل، وكذلك الفحول في بقية العلوم، أزمانهم كانت واحدة أو متقاربة ممّا يعجب له متتبّع تاريخ الإسلام ويبلغ به عن خصب الإسلام ونماء العلم بين أهله في تلك الأحقاب.

ولا نترك القلم حتى نروى العجيبة التي وقعت للبخاري فدلت على أن الله يختصّ بفضله من يشاء. وهي إعلان سماوي بالمدى المدهش لقُوى العقل البشري في الإنسان. قال ابن عديّ: سمعت عدّة مشايخ يحكون، أن محمد بن إسماعيل البخاريب قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوها متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوها إلى عشرة رجال كل رجل

عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوها على البخاري، وأخذوا منه موعد المجلس فحضر، وحضر جماعة أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها، ومن البغداديين، فلمّا اطمأنّ المجلس بأهله، انتدب إليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث، فقال البخاري: لا أعرفه، فسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه، فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ من عشرته والبخارى يقول لا أعرفه، فكان الفهماء ممن حضر المجلس يتلفت بعضهم إلى بعض ويقولون: الرجل فهم، ومن كان منهم غير ذلك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلّة الفهم، ثم انتدب رجل آخر من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال البخاري: لا أعرفه، فسأله عن آخر فقال: لا أعرفه، فسأله عن آخر فقال: لا أعرفه، فلم يزل يلقي عليه واحداً بعد آخر حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول: لا أعرفه، ثم انتدب إليه الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلّهم من الأحاديث المقلوبة والبخاري لا يزيدهم على لا أعرفه، فلما علم البخاري أنهم قد فرغوا، التفت إلى الأوّل منهم فقال، أما حديثك الأول فهو كذا، وحديثك الثاني فهو كذا والثالث والرابع على الولاء حتّى أتم على تمام العشرة، فردّ كل متن إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك وردّ متون الأحاديث كلها إلى أسانيدها وأسانيدها إلى متونها، فأقرّ له الناس بالحفظ وأذعنوا له بالفضل[١].

ولقب البخاري عند العلماء هو (أمير المؤمنين في حديث سيّد المرسلين).

١٤ ـ وفي ترجمة الإمام «الأوزاعي» عالم أهل الشام، أنه أفتى في سبعين ألف مسألة. وهذا البحر الخضمّ يقول عنه أبو الفداء في تاريخه[٢]: إن قبره في قرية على باب بيروت يقال لها (خنتوس) لا يعرفه أهلها وإنما يقولون:

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٥، ص ١٥٦.
(٢) تاريخ أبي الفداء، ج ٢، ص ١٠٥.

ههنا رجل صالح؟؟ وبلغني أن هذه القرية أصبحت اليوم متصلة ببيروت وتسمّى باسم «الأوزاعي».

١٥ ـ ومن هذا الفضل الذي آتاه الله مَن شاء من عباده العلماء ختى تراءت لهم الحقائق ونفذ نورهم فأضاء لهم قواعد العلوم واتسع عقلهم فحاز ما وسعه الطوق البشري منها، لا يعجب القارىء إن قلت له في علوم «أبي يوسف» القاضي الذي اشتهر بالفقه: إن الفقه كان أقلّ علومه نعم فأبو يوسف صاحب أبي حنيفة الأول، وناشر فقهه وضابطه، والذي يعرف طلّاب مذهب الحنفية أن مسألة من مسائله لا تمرّ حتى يكون لأبي يوسف فيها قول بالموافقة أو المخالفة، أبو يوسف هذا الذي بلغ بفقهه أن كان «قاضي الشرق والغرب» في زمن الرشيد، وأن كان أول قاض في الإسلام خوطب بـ «قاضي القضاة»، وأن كان بفقهه في قضائه قد نفع الدولة ورفعها، وحلّ كثيراً من المشاكل الخلافة وأمر الملك، ونظّم القضاء ورتب أمور العدل، أبو يوسف هذا الذي مضى لك في الكتاب أن فقهه رفعه حتى أكل «كما تنبّأ أبو حنيفة له» الفالوذج بدهن الفستق مع الخليفة، ويقول ابن عمار إنه رآه يوماً مع زُفر (صاحب أبي حنيفة) افتتحا مسألة عند أبي حنيفة من حين طلعت الشمس إلى أن نودي بالظهر، فإذا قضى لأحدهما على الآخر: قال له الآخر أخطأت ما حجّتك؟ فيخبره حتى كان آخر ذلك أن قضى لأبي يوسف على زفر حين نودي بالظهر، فقام أبو يوسف، قال: فضرب أبو حنيفة على فخذ زفر وقال: لا تطمعنّ في الرياسة بأرض يكون هذا بها.

وأبو يوسف صاحب هذا الفقه وصاحب هذه البسطة فيه وصاحب هذه الرياسة به، أقول لك ما رواه البغدادي عن هلال بن يحيى قال: كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب، وكان أقل علومه الفقه، اهـ فانظر إلى علم النور وعلمائه، هذا فقه أبي يوسف الذي صنع له وبه ما صنع، هو أقل علومه فقس ما كان أكثر علومه وسبح الله[١].

(١) الفوائد البهية، ص ٢٢١.

١٦ ـ وكذلك فاسمع عن «إسحاق الموصلي» نادرة الفلك في الغناء والموسيقى، والذي بذّ الأوائل ولم يلحقه أحد في الأواخر، الحاذق في الفن فلا توجد آلة من آلات الموسيقى إلا ويعزف عليها، وأمّا بقيّة الحذّاق من المعروفين فيها بالسباق يجيئون خلفه، والمغنّي علماً وفناً، فهو صاحب إنشاء وتلحين وأداء، وهو من صغره إلى مماته يقرّ له الفحول بالرياسة ويخشونه في حضرته وفي غيبته، ثم يزيد عن الفن والعلم، فيخترع ويضع القواعد لها، وتترجم الكتب اليونانية بعد ذلك فتجيء طبق ما فكّر وعلى استقامة ما ابتكر، وهو في كل ذلك لم يسبق إلى تعلّمها ولا طلع على سلالم العلوم التي لا ينال هذا المنال إلا بتسلّقها، إسحاق الموصلي هذا الذي ملأ سمع الدنيا وسكّر عيون أهاليها بفنّه وغنائه، يقول صاحب كتاب الأغاني: إن الغناء كان أصغر علومه وأقلّ ما حواه عقله... موضع «إسحاق» من العلم، ومكانه من الأدب، ومحلّه من الرواية، وتقدّمه في الشعر، ومنزلته في سائر المحاسن، أشهر من أن يدلّ عليه فيها بوصف، وأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه، فإنه كان له في سائر أدواته نظراء أو أكفاء، ولم يكن له في هذا نظير، فإنه لحق بمن مضى فيه وسبق من بقي، وألحب للناس جميعاً طريقه فأوضحها، وسهّل عليهم سبيله وأنارها، فهو إمام أهل صناعته جميعاً، ورأسهم ومعلمهم، يعرف ذلك منه الخاص والعام، ويشهد به الموافق والمفارق، وعلى أنه كان أكره الناس للغناء وأشدّهم بغضاً لأن يدعي إليه أو يسمّى به، وكان يقول: لوددت أن أضرب كلما أراد مريد منّي أن أغنّي، وكلما قال قائل: إسحاق الموصلي المغنّي، عشر مقارع، لا أطيق أكثر من ذلك، وأعفي من الغناء ولا ينسبني من يذكرني إليه[1]. وكان المأمون يقول: لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لولّيته القضاء بحضرتي، فما أعرف مثله ثقة وصدقاً وعفّة وفقهاً، وقد روى الحديث ولقي أهله، مثل مالك بن أنس، سفيان بن عيينة وهشيم بن بشير وإبراهيم بن سعد

(١) تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٢١.

وأبي معاوية الضرير وروح بن عبادة وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز، ولذلك روى ابن المنجم أنّ إسحاق سأل المأمون أن يكون دخوله إليه من أهل العلم والأدب والرواة لامع المغنّين، فأجابه، ثم سأله بعد حين أن يدخل مع الفقهاء، فأذن له، فكان يدخل عليه ويده في يد يحيى بن أكثم قاضي القضاة. وفي زمن الواثق كان إسحاق إذ قدم عليه، يحضر مع الجلساء بغير عود ويدنيه الواثق، ولا يغنّي حتى يقول له: غنّ، فإذا قال: قدّم له عود حتى يفرغ فيرفع من يده إكراماً له وبرّاً[١].

١٧ ـ ولا نفوت الفصل قبل أن نعطّره بذكر الإمام إبراهيم النخعي الذي انتهت إليه رئاسة العلم بالكوفة والذي إذا أطلق اسمه (إبراهيم) لا ينصرف إلّا إليه من غير حاجة إلى تعريف آخر، وفيه يقول الشعبي: ما ترك إبراهيم بعده أعلم منه، فقيل له: ولا الحسن وابن سيرين؟ فقال: ولا الحسن ولا ابن سيرين ولا أهل البصرة ولا من أهل الكوفة، ولا من أهل الحجاز ولا الشام. هذا العالم العظيم ذكر ابن قتيبة عنه أنه حُمل العلم عنه وهو ابن ثمان عشرة سنة[٢]، وكان راويةَ علمه حمّاد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة، وبروايته عنه عرف ولقّب، ويقول ابن خلّكان: إنّه رأى أمّ المؤمنين عائشة، وكان يدخل إليها، وساق في «الخلاصة» ثبت من أخذ عنهم وأخذوا، وفي سائر كتب العلم الإسلامي قلّ أن تجد كتاباً خلا من ذكره. ورّث إبراهيم هذا العلم كلّه ومات وسنة ست وأربعين، وحاز هذه الشهرة العلمية وهو يفرّ منها وهي تتبعه. قال في «الخلاصة»: كان لا يتكلم إلّا إذا سئل. وقال مغيرة المحدّث: كنّا نهاب إبراهيم كما يهاب الأمير، قال الأعمش: كان إبراهيم يتوقّى الشهرة ولا يجلس إلى الأسطوانة، هذا الفحل العبقري كان من موالي النجع، ولكن يظهر أن العرب ضنّوا به، فهو في أكثر كتب النسب موصول النسبة بالعرب، حتى قال «يونس» النسّابة الراوية: قد ولدته العرب، ومع هذا الجلال العلمي الذي برق

(١) تاريخ أبي الفداء، ج ٢، ص ٧.
(٢) المرجع نفسه، ج ١٤، ص ١٤٦.

في عمره القصير، يحكون عنه أنّه كان مزّاحاً، ويقصّون من مزاحه مع العلماء قصصاً فكهة مؤدبة، ولما حضره الموت جزع جزعاً شديداً، فقيل له في ذلك، فقال: وأي خطر أعظم مما أنا فيه؟ إنما أتوقّع رسولاً يرد عليّ من ربّي، إمّا بالجنة وإمّا بالنار، والله لوددت أنها تلجلج في حلقي إلى يوم القيامة. وصدق الله العظيم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

ومهما تفنّنت في وصف العلم وذكر أثره، وذهبت أجمع الشاهد والمثل على عجبه وبلوغ أمره فلست بمدرك ما صنعه القاضي إياس بن معاوية، فقد كشف عظيمة من عظائمه وسجّلها في حكمه وهو على قضاء البصرة، أكبر القاضي شأن العلم وأعظمه حتى أقامه مقام السيادة والحريّة، وجعله يفعل لصاحبه ما يفوق حدّ الإنسانية ويخرج به عن مرتبة البشريّة، فقد روى ابن قتيبة[1]: أنّ إياساً هذا أجاز شهادة عبد العزيز بن صهيب وحده! وعبد العزيز محدث وثّقه أحمد بن حنبل، كان عبداً مملوكاً وأبواه مملوكين، تجاوز إياس لعلمه عن رقّه مع أنه لا شهادة لرقيق، وقبلها منه وحده والشهادة لاثنين، إذ رأى القاضي أن فضل العلم وصدق العالم يغني عن العدد والحرية.

ولا يدخل أحد على حكم إياس وهو الذي بقي من القرن الأول إلى يومنا هذا مضرب المثل في الذكاء والفراسة والفطنة، ولا يتهمه في حبّ الحق وقد قضى وشهد على نفسه به، ففي ترجمته أنّه قال: ما غلبني أحد قطّ سوى رجل واحد، وذلك أنّي كنت في مجلس القضاء بالبصرة، فدخل عليّ رجل شهد عندي أن البستان الفلاني وذكر حدوده هو ملك فلان، فقلت له كم عدد شجره؟ فسكت ثم قال: منذ كم يحكم سيدنا القاضي في هذا المجلس؟ فقال: كم عدد خشب سقفه؟ فقلت له: الحق معك، وأجزأت شهادته.

ولا بأس أن نستطرد لذكر توليته القضاء حتى نمكّن للقارىء من رأى إياس في معجزة العلم، وأنّ رأيه فيها وفي إتيانها بالعجب رأى مستقبل ثابت

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٥، ص ٤٩.

غير جامح ولا مزعزع، إذ كان لم يطلب القضاء وإنّما القضاء طلبه، ودافع عن نفسه أن يتولاه فأبى فضله عليه إلا أن يقلّده أولو الأمر تقليده. فهو إذ يرى وإذ يقضي، يكون الرأي ما يراه إياس، كفى بالرأي متانة أن ينسب إلى إياس، وبالقضاء حقاً أن يكن قضاء إياس. كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة، واليه على العراق: أن أجمع بين إياس بن معاوية، والقاسم بن ربيعة الحرشي، فولّ قضاء البصرة أنفذهما، فجمع بينهما، فقال له إياس: أيّها الأمير، سل عني وعن القاسم، فقيهي مصر، الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وكان القاسم يجيئهما وإياس لا يجيئهما، فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به، فقال له: لا تسأل عني ولا عنه، فوالله الذي لا إلٰه إلا هو إنّ إياس بن معاوية أفقه منّي وأعلم بالقضاء، فإن كنت كاذباً فما يحلّ لك أن تولّيني وأنا كاذب، وإن كنت صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي، فقال إياس للأمير إنّك جئت برجل أوقفته على شفير جهنم فنجّى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف، فقال عدي لإياس أما إذا فهمتها فأنت لها، واستقضاه. فيرى من هذا التحليل أنّ إياساً فيما أجاز به شهادة عبد العزيز وهو المملوك ابن المملوك، وأجازها منه وحده لا ثاني معه، وإنما فعل ذلك كشفاً منه عن عظمة العلم، وأنها تقوم لصاحبها مقام الحريّة والعدَد، وهو كشف يسجّل بالفخار للكاشف أو المكتشف.

وكما قلنا: إن علم النور يرفع الحجب عن عيون علمائه حتى يبصروا ما وراء حدودهم، مثلُه عندهم مصداق ما يروى عن السيد المسيح: «الغنيّ يعطي ويزاد» فالعالم الحق في ازدياد أبداً، وعلمه في نموّ دائماً وعقله ببركته يتسع ويكبر في مدًى يمدّه الله من فضله على نماذج ما روينا، كذلك نقول: إن العلماء عرفوا حقّ العلم فراعوا معه الأدب في التزام حدّه وتوزّعوا شيعاً، كل فريق لزم فرعاً واختار فناً وانحاز بفنه، وفي هذا التخصص برع المختصّ وفرع، عُرف به ونفق، وقامت شهرته عليه فاحترمها الناس له، واحترم المشهورون أنفسهم فهم يعملون بها ويعلّمون الناس أن يعرفوها ولا يتخطّوها ـ وكان خطّ العلم من هذا التخصص وفيراً، فإنّه يخيّل إليّ أن العالم المختص تنشأ له حاسّة

سادسة خاصّة بما التزمه وتفرّع له. هذا البخاري سمع شيخه يروي عن سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقال له: يا أبا فلان، إن أبا الزبير لم يروِ عن إبراهيم، فانتهره، وكان البخاري ابن إحدى عشرة، فقال له: إرجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل نظر فيه ثم خرج فقال: كيف هو يا غلام؟ قال: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم ـ فأخذ الشيخ قلمه وأحكم كتابته وصدّقه(١).

ومثل هذا كثير الحاصل في تراجم المحدّثين حتى إنهم ليدركون من متن الحديث حقيقته.

١٨ ـ وقال أبو عبيد: أنشدني «بشّار» في شعر الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت ... من الحوادث إلا الشيب والصلعا

وأنكر هذا البيت وقال: هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الأعشى. قال أبو عبيد: فعجبت لذلك، فلما كان بعد عشر سنين كنت جالساً عند يونس فقال: حدثني أبو عمرو بن العلاء أنه صنع هذا البيت، وأدخله في شعر الأعشى، وذكر البيت. فجعلت حينئذٍ أزداد عجباً من فطنة بشّار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر(٢).

١٩ ـ قال علي بن عبد الكريم: زار ابن جامع المغنّي، إبراهيم الموصلي فأخرج ثلاثين جارية، فضربن جميعاً طريقة واحدة وغنّين فقال ابن جامع: في الأوتار وتر غير مستوٍ، فقال إبراهيم: يا فلانة شدّي مثناك، فشدّته فاستوى، فعجبت أولًا من قطنة ابن جامع لوتر في مائة وعشرين وتراً غير مستو، ثم ازداد عجبي في فطنة إبراهيم له بعينه»(٣).

ولا عجب، فإن التخصص يفعل العجب، فقد حدّثنا أستاذنا أحمد فهمي العمروسي بك، وكان يدرّس لنا علم «تاريخ الإنسان الطبيعي» في مدرسة القضاء الشرعي، وذكر المرحوم الشيخ علي يوسف صاحب جريدة «المؤيد» أنه

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٦، ص ١٦٢.
(٢) ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ١٦٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٢.

كان لمرانته على التحرير لا يبالي أن يكتب والناس معه، أو يكتب وهو يسمع لهم ويحدثهم، ويكتب وهو يصرف أمور جريدته ويخرج الكلام الجيّد ولا يقطع سلامته ما يكوون قد قطعه أثناء الكتابة، فعجبنا فقال الأستاذ العمروسي: لا تعجبوا، إن الشيخ عليّاً، رجل أصبحت أنامله بالمرانة تعقل.

ولهذه الميزة أوغل علماء السلف فيها، ووزّعوا الناس بينهم على علومهم، فأتقنوها، واتسعت دائرة العلوم في عصرهم، وتابعهم أهل زمنهم على التزام حدودهم، ولذلك لما قيل لسفيان الثوري: رأى مالك أحبّ إليك من رأى أبي حنيفة؟ قال: أكتب حديث مالك فإنه كان ينتقي الرجال، والفقه صناعة أبي حنيفة وصناعة أصحابه كأنهم خلقوا له، وسئل الأعمش المحدّث في مسألة فقال: إنما يحسن جواب هذا النعمان بن ثابت، وأظنه بورك في علمه.

ومن ألطف ما أورده مثلًا على التخصيص واحترام العلماء له وتفرغ كل لهمّه منه، أن أبا حنيفة كان عند الأعمش المحدّث، فسئل عن مسائل، فقال لأبي حنيفة ما تقول فيها؟ فأجابه: من أين لك هذا؟ قال: من أحاديثك التي رويتها عنك، وسرد له عدّة أحاديث بطرقها فقال الأعمش: حسبك، ما حدثتك به في مائة يوم تحدّثني به في ساعة واحدة؟ ما علمت أنك تعمل بهذه الأحاديث، يا معشر الفقهاء أنتم الأطباء ونحن الصيادلة.

ومع أن المجتهدين ما بلغوا مرتبة الاجتهاد إلا ببلوغهم الغاية في جميع العلوم الشرعية واستكمالهم آلات الاجتهاد وكلها من العلوم العربية والأدبية والمقاييس الحكمية فإنهم وهم من هم وقفوا ووقف الناس بهم على العلم الذي اجتهدوا له وفيه وهو الفقه. وكانوا هم يسألون أهل الذكر في غيره، ويعدوهم الناس في غيره إلى غيرهم، وفي ترجمة الواقدي قال محمد بن صالح، سئل مالك بن أنس عن المرأة التي سمّت النبي ﷺ بخيبر ما فعل بها؟ فقال: ليس عندي بها علم وسأسأل أهل العلم، فلقي الواقدي فسأله فقال: الذي عندنا أنه قتلها، فقال مالك: لقد سألت أهل العلم فأخبروني أنه قتلها(١).

(١) تاريخ بغداد، ج ٣، ص ٧.

٢٠ ـ ومن أدقّ ما رأيناه في التزام حدود الاختصاص، أن الأصمعي كان لا يفسر شعراً يوافق تفسيره شيئاً من القرآن، وقد ساق «صاحب الجمهرة» جملة من القول امتنع الأصمعي عن الكلام في تفسيرها لأنها وردت في القرآن، فمن باب ما يجيء على فعل وأفعل، بان لي الأمر وأبان، ونار لي وأنار، إلى أن قال سرى وأسرى، امتنع الأصمعي عن الكلام لأنه في القرآن، فقد قرىء: «فأسر بأهلك» وأسر بأهلك، وسرد أمثالًا لذلك، ونسج هو على منواله، فمن ذلك أنه قال: الأثامُ لا أحبّ أن أتكلم فيه، لأنّ المفسّرين يقولون في قوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ هو وادٍ في جهنم(١).

٢١ ـ بل الأعجب من هذا ما ذكره الخطيب أن الواقدي مع ما كان له من سعة العلم وكثرة الحفظ، كان لا يحفظ القرآن، وقد وقعت له قصة من هذا مع المأمون إذ طلب إليه أن يصلي الجمعة غداً بالناس فامتنع فصمّم المأمون فاعتذر بأنه لا يحفظ سورة الجمعة، فقال له المأمون: أنا أحفّظك، واشتغل معه، كلما حفظ نصفها الأول وانتقل للثاني نسي الأول، فإذا عاد لحفظه نسي الثاني حتى تعب المأمون ونعس، ووكله لعلي بن صالح فكذلك كان حاله، حتى استيقظ المأمون وسأل عنه فأخبره عليّ فقال المأمون له: هذا رجل يحفظ التأويل ولا يحفظ التنزيل، وتركه.

٢٢ ـ وهذا حنين بن إسحاق اشتهر بالطب والترجمة لكتب الحكمة وعرفه الناس بهذا فحسب، مع أنه كان شاعراً خطيباً فصيحاً لسناً، لزم الخليل بالبصرة حتى أتقن العربية، وهو الذي أدخل كتاب العين إلى بغداد.

وإليك مثلًا نابها على احترام الملوك لتخصص العلماء حتى ما ينعدونهم، وحتى ليرسل الخليفة «هشام» إلى الكوفة في إحضار راوية ليسأله عن بيت من الشعر ربما كان في حاضرته دمشق من يفتيه ويفيده، ولكن كما قلت: هي حرمة التخصص، والقصة طليّة يحكيها صاحبها، قال حمّاد الراوية: كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك. فكان هشام يجفوني لذلك دون سائر أهله من

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٣، ص ٢٣.

بني أمية في أيام يزيد. فلما مات يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام، خفته فمكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا لمن أثق به من أخواني سرّاً، فلما لم أسمع أحداً يذكرني سنة، أمنت فخرجت فصليت الجمعة ثم جلست عند باب الفيل فإذ شرطيّان قد وقفا عليّ فقالا لي: يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر، فقلت في نفسي: من هذا كنت أحذر، ثم قلت للشرطيين: هل لكما أن تدعاني آتي أهلي فأودّعهم وداع من لا ينصرف إليهم أبداً ثم أصير معكما إليه؟ فقالا: ما إلى ذلك من سبيل، فاستسلمت في أيديهما وصرت إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان الأحمر، فسلّمت فردّ عليّ السلام. ورمى إليّ كتاباً فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر، أما بعد، فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروّع ولا متعتع، وادفع إليه خمسمائة دينار، وجملًا مهرّياً يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق، فأخذت الخمسمائة الدينار، ونظرت فإذا جمل مرحول، فوضعت رجلي في الغرز، وسرت اثنتي عشرة ليلة حتى وافيت باب هشام، فاستأذنت فأذن لي، فدخلت عليه في دار قوراء مفروشة بالرخام وهو في مجلس مفروش بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب ذهب، وحيطانه كذلك، وهشام جالس على طنفسة حمراء، وعليه ثياب خزّ حمر، وقد تضمّخ بالمسك والعنبر، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلّبه بيده فتفوح روائحه، فسلّمت فردّ عليّ، واستدناني فدنوت، حتى قبّلت رجله، وإذا جاريتان لم أر قبلها مثلهما، في أذني كلّ واحدة منهما حلقتان من ذهب فيهما لؤلؤتان تتوقّدان، فقال لي: كيف أنت يا حمّاد وكيف حالك؟ فقلت: بخير يا أمير المؤمنين، قال: أتدري فيما بعثت إليك؟ قلت: لا، قال: بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدر من قاله، قلت: وما هو؟ فقال:

فدعوا بالصبوح يوماً فجاءت ... قينة في يمينها إبريق

قلت: هذا يقوله عديّ بن زيد في قصيدة له، قال: فأنشدنيها، فأنشدته:

بكر العاذلون في وضح الصبح ... يقولون لي ألا تستفيق
ويلومون فيك يا ابنة عبد الله ... والقلب عندكم موهوق

لست أدري إذ أكثروا العذل عندي أعدوٌ يلومني أو صديق
زانها حسنُها وفرع عميم وأثيثٌ صلت الجبين أنيق
وثنايا مفلّجات عذاب لا قصار ترى ولا هنّ روق
فدعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق
قدّمته على عقار كعين الد يك صفّي سلافها الراووق
مزّة قبل مزجها، فإذا ما مزجت، لذّ طعمها من يذوق
وطفت فوقها فقاقيع كالدرّ صغار يثيرها التصفيق
ثم كان المزاج ماء سماء غير ما آجن ولا مطروق

فطرب هشام، وقال: أحسنت يا حمّاد، سل حوائجك، قلت: كائنة ما كانت؟ قال: نعم، قلت: إحدى الجاريتين، قال: هما جميعاً لك بما عليهما ومالهما، وأنزله في دار أعدّت له فوجد الجاريتين وأقام مدة عنده وصله بها بمائة ألف درهم[١].

ونرى من المناسب هنا أن ننتقل كلمة للسيوطي يؤخذ منها بيان الطريقة الأولى في العلم والتعلّم أيام طبقة الحفاظ، ساوى فيها بين الحديث واللغة، وهو القائل: علم الحديث واللغة أخوان يجريان من وادٍ واحد، وقال: وظائف الحافظ في اللغة أربعة، إحداها، وهي العليا، الإملاء، كما أنّ الحفّاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الإملاء، ووقد أملى حفّاظ اللغة من المتقدّمين الكثير، فأملى ثعلب مجالس عديدة في مجلد ضخم، وأملى ابن دريد مجالس كثيرة رأيت منها مجلداً، وأملى أبو محمد القاسم بن الأنباري وولده أبو بكر ما لا يحصى، وأملى أبو علي القالي خمسة مجلّدات، وغيرهم، وطريقتهم في الإملاء كطريقة المحدّثين سواء يكتب المستملي أوّل القائمة (مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ويذكر التاريخ) ثمّ يورد المملى بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير، ثم يفسّره ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده، ومن الفوائد اللغويّة بإسناد وغير إسناد ما

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٥، ص ٣٩.

يختاره، وقد كان هذا في الصدر الأوّل فاشياً كثيراً، ثمّ ماتت الحفّاظ وانقطع إملاء اللغة من دهر مديد، واستمرّ إملاء الحديث، ولمّا شرعت في إملاء الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وجدّدته بعد انقطاعه عشرين سنة، من سنة مات الحافظ أبو الفضل بن حجر، أردت أن أجدّد إملاء اللغة وأحييه بعد دثوره، فأمليت مجلساً واحداً، فلم أجد له حمَلة ولا من يرغب فيه فتركته، وآخر من علمته أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي، له أمالي كثيرة في مجلّد ضخم، وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة، ولم أقف على أمال لأحد بعده[١].

٢٣ ـ كذلك يحسن بنا هنا الإلمام بطرف من العلم في المغرب، فنورد وصفاً أجمله العلّامة «المقرّي» للعلم ببلاد الأندلس في كتابه نفح الطيب، وقد ألّفه سنة ١٠٣٩ بعد أن ارتحل من بلاده ونزل القاهرة وخدم العلم الشريف بالأزهر المعمور، وهو وصف خاصّ بالعلوم الشرعيّة، إذ يظهر أنّها كانت طلبة السائلين عن حال تلك البلاد في ذلك الزمن، أمّا علومها الاجتماعية والآلية، فينبؤك غيره عنها في غير هذا الكتاب، وكفى بعزّ الأندلس القديم شافياً ومجيباً.
قال رحمه الله: وأمّا حال أهل الأندلس في فنون العلوم، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنّهم أحرص الناس على التمييز، فالجاهل الذي لم يوفّقه الله للعلم، يجهد أن يتميّز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس، لأن هذا عندهم في نهاية القبح، والعالم عندهم معظّم من الخاصّة والعامّة، يشار إليه ويحال عليه، وينبه قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك، ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة، فهم يقرأون لأن يعلموا، لا لأن يأخذوا جارياً، فالعلم منهم بارع، لأنّه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم،

(١) تاريخ بغداد، ج ٣، ص ٨.

وكلّ العلوم لها عندهم حظّ واعتناء إلّا الفلسفة والتنجيم، فإنّ لهما حظّاً عظيماً عند خواصّهم ولا يتظاهرون بها خوف العامّة، فإنه كلّما قيل: فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم، أطلقت عليه العامة اسم «زنديق»، وقيّدت عليه أنفاسه، فإن زلّ في شبهة رجموه بالحجارة، أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرّباً لقلوب العامّة، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرّب المنصوور بن أبي عامر لقلوبهم أوّل نهوضه، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجازي، والله أعلم.
وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلّا مذهب مالك، وخواصّهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم. وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى إنّ المسلمين كانوا يسمّون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بـ«الفقيه» وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغويّ، فقيه، لأنّها عندهم أرفع السمات، وعلم الأصول عندهم متوسّط الحال، والنحو عندهم في نهاية من علوّ الطبقة، حتى إنّهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلّا جدّة، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكلّ عالم في أيّ علم لا يكون متمكّناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحقّ للتّمييز، ولا سالم من الإزدراء، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواصّ والعوامّ كثير الانحراف عمّا تقتضيه أوضاع العربيّة، حتى لو أنّ شخصاً من العرب سمع كلام «الشلوبيني أبي عليّ» المشار إليه بعلم النحو في عصرنا، الذي غرّبت تصانيفه وشرّقت وهو يقرىء درسه، لضحك بملء فيه من شدّة التحريف الذي في لسانه، والخاصّ منهم إذ تكلّم بالإعراب وأخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه، ولكن ذلك مراعى عندهم ي القراءات والمخاطبات في الرسائل، وعلم الأدب المنشور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستطرفات الحكايات أنبل علم عندهم وبه يتقرّب من مجالس ملوكهم وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل، والشعر

عندهم له حظّ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم حظّ ووظائق، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقّع لهم بالصلاة على أقدارهم(١).

وبهذه السنّة التي التزمها علماء الإسلام في التخصص والتوزّع، أمكن للمؤرخين والمُحصنين أن يحصلوا على مجموعات هائلة من أسماء علماء، لولا وسمهم بسمة خاصة بهم لضاعوا أو لاستعصى حصرهم وغدا بذلك لكل علم بل لكل فرع طبقات، انتظم فيها كل عالم ما اشتهر في نوع خاص، نظم من أجل شهرته هذه في سلك رجالها وإن كان له أثر ظاهر في طبقة أخرى، وافتتح بذلك باب جديد «لعلم الرجال» ألّفت فيه الكتب التي لا تحصى(٢)، فعندما طبقات الأدباء وطبقات الشعراء وطبقات النحاة وطبقات اللغويين وطبقات الفقهاء (بعدد مذاهب الفقه) وطبقات المقرئين وطبقات المحدّثين وطبقات الحاسبين والفلكيين والمنجمين والمهندسين والأطباء والصيادلة والوزراء والقضاة ورجال المغازي والسير إلخ إلخ بل الأعجب من هذا كله أن قد ألف في طبقات المصورين في «خططه» وهو يتكلم عن العمائر الإسلامية. والمكتبةُ العربية الإسلامية لا يكاد يخطر ببالك وأنت فيها خاطر عن بحث أو موضوع إلا رأيت في البحث كتباً ولخاطرك مؤلفين حتى فيما لا يظنّ ولا يكون، ما يدلّ على تضخّم العمران واتّساع الحضارة وانتشار المدنية التي تحكيها هذه الكتب وتوضع فيها تلك المؤلفات وكانت معلوماتها مادة تأليفها، وهي في الوقت نفسه تكاد تصوّر ما نراه في عصرنا هذا الذين تظن رقيّه في مصرنا أو في غيرها من ممالك الحضارة، كأنّ ما نحن فيه صورة مكرّرة لما قد كان تصديقاً لقول الحكيم سليمان: لا جديد تحت الشمس. وقد وقع لي من مطالعاتي مقابلات كثيرة بين ما يصقّه التاريخ الماضي وبين ما نشاهده في الزمن الحاضر، فألّفت فيها كتاباً سميته (دورة الزمن) لا موضع للنقل منه الآن وإن كان فيه ما يقضى بالعجب

(١) السيوطي، المزهر، ج ٢، ص ٢٠٥.
(٢) الأصفهاني، الأغاني، ج ٥، ص ١٨٥.

ويستدعي ضرب المثل (ما أشبه الليلة بالبارحة) حتى المستشفيات الطيّارة (المتنقلة) وإفراد المرضى المعدين[١]، وجواز السفر وردّ من لا جواز له[٢]، وحكم تسليم المجرمين والمراسلة فيهم بين ملك الروم والمسلمين[٣]، وإعداد روايات الماء في داخل المساكن لإطفاء الحريق[٤] وقيام العلماء بكتاب مذكرات يومية[٥] بل أكثر من هذا أقول لك حتى «خزان أسوان» فكّر في إنشائه مهندس مسلم بالعراق قبل عصرنا هذا بعشرة قرون[٦]. وعندي كشف مدهش بعمليّات أطباء العرب الجراجيّة والتشخيصيّة وطرقهم في العلاج، كعمليّة تفتيت الحصوة داخل المثانة بمسبر ركبتا قطعت ألماس في طرفه، وكإخراج السلعة من تحت عين السيّدة سكينة بنت الحسين ورفع حدقتها وكمعالجة استسقاء الخليفة الواثق بطريقة التنّور المسخّن، واستخراج العصارة المعديّة من جوف الحجّاج الثقفي لبحث مرضه ولطف حيلة جبرائيل بن بختيشوع لبسط الحرارة في حظيّة الرشيد حتى استرسلت يدها، وإنقاذ صالح بن بهلة الهندي لصهر الرشيد بطبّه بعد أن سطعت روائح المباخر في جنازته إلخ مما يخفّض من غلواء بعض المعاصرين العاقّين لأسلافهم الصالحين الذين اجتهدوا حتى أدخلوا في طبّهم مهابّ الرياح، وطبيعة المناخ، واستخدموا له الألوان، والأنغام، بله الأوهام.

---

(١) السيوطي، المزهر، ج ٢، ص ١٩٩.

(٢) المقرّي، نفح الطيب، ج ١، ص ١٠٢.

(٣) خطر ببال المهندس البصري أبي علي الحسين بن الحسن بن الهيثم، أن يضبط النيل ويحفظ ماءه ويصرّفه حسب الأحوال، وأن يستعين في عمله هذا بالجنادل أي الشلالات قبلي أسوان إذ ينحدر الماء عندها من موضع عال أي أن يبني الخزان في هذه المنطقة، ووصل خبر هذه الفكرة إلى الحاكم بأمر الله فسير إليه في السر (لتنافس الخلافتين الفاطمية والعباسية إذ ذاك) جملة من المال ليحضر مصر، فحضر وأكرمه الحاكم وسيّر معه بعثة في النيل من الصناع المتولين للعمارة بأيديهم ليستعين بهم على هندسته، ووصل مكان الشلال واختبره من جانبيه ورأى بعد إقامة الخزان فوقها الخ.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج ٣، ص ٣، وانظر: المرجع نفسه، ج ١٤، ص ٣٢.

(٥) المرجع نفسه، ج ٨، ص ٤٦.

(٦) المرجع نفسه، ج ٢٠، ص ١٢.

ومن يقرأ كتب العلوم الاجتماعية الإسلامية يتجلّى له العالم الإسلامي فيما مضى بحضارته وسيادته وقوّته وما أعدّته القوّة له من آلات الدفاع في البرّ وفي البحر، وعلى الثغور والحدود، وما قام به العلم بسائر أقسامه من أجل تمدينه ورفاهيته وقايةً وعلاجاً وسعادة وإسعاداً حتى كانوا بعلومهم سادة الدنيا وذادتها، وصدق لهم قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وقد فصّل الحقّ آياته للمسلمين الأولين، وهم يعلمون عاقبة الأخذ فيها سعادةً في الدين والدنيا، فعرفوها وتعلّموها وعملوا بعلمهم فيها، فآتاهم الله من ثمرات العلم ما رقوا به ذلك الرقيّ العلمراني، وسادوا به في المجتمع سيادة لم يروا التاريخ مثيلها لغيرهم حتى الآنم وواتتهم الدنيا مواتاةً صدقت فيها النبوءة النبويّة فيما رواه البخاري عنه ﷺ: **«يوشك الفرات أن يحسُر عن كنز ذهب»** وقد حسر زمن العبّاسيين، ولو ظلّوا على ما أمرهم به نبيهم في قولهم تماماً لهذا الحديث (فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً) لظلّوا في عزّهم، ولكن فتنتهم الدنيا كما فتنت من كان قبلهم. وقد ورد في البخاري أيضاً من كتاب «الرقاق» عنه ﷺ، إذ جاء أبو عبيدة بمال من البحرين، ووافته الأنصار في صلاة الصبح فقال عليه السلام: **«أبشروا وأمّلوا ما يسرّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم»**.

وإني أوجز لك القول عن مبلغ الحضارة في القرن الرابع الهجري بذكر مشهدين لم يتخلل بينهما نصف القرن، وقع أوّلهما في عاصمة المشرق «بغداد» والثاني في «قرطبة» عاصمة بلاد الأندلس والمغرب، وقد تكفّل بعهما فخلان من العلماء الحافظ أبو بكر في «تاريخ بغداد» والعلامة المقرّي في (نفح الطيب).

وليس من موضوعي أن أتبسّط، وإنّما هو استطراد للبيان عن ومض من نور تلك الحضارة جرَّ قلم «الحافظ» إلى الإفاضة في وصف بغداد فحدّث عن «دار الخلافة» فيها أنّها وحدها كانت مثل مدينة «شيراز» وزفّ رسولَ ملك الروم، وقد قدِم بغداد وافداً على الخليفة المقتدر سنة ٣٠٥هـ زفّة تكاد صحف

كتابه تطير بوصفها برقاً ولمعاناً، ويطير معها قلب القارىء اهتيالاً وخفقاناً، وقد جلس المقتدر للرسول في قصر «التاج» من قصور الخلافة، جلسة سجد لها التاريخ في عصره، ويحقّ للتاريخ أن يسجد لتلك العظمة التي تبصّ من خلال وصفها في قُصورها وزينتها، وفي جحافلها وعدّتها، وفي حاشيتها وبهجتها، وفي هولها وضخامتها، حتى قبل إنّ عدد ما علّق من ستور الديباج المذهّبة بالطُرُز المصدّرة بالجامات والفيلة والخيل والحجال والسباع والطيور، ثمانية وثلاثون ألف ستر، وعدد البُسط التي فرشت في الممرّات والصحون لدوس القوّاد والرسل من باب العامّة إلى حضرة المقتدر، اثنان وعشرون ألف قطعة، سوى ما في المقاصير والمجالس ممّا كان للنظر والفرش، وقد رسم للرسل أن يُدار بهم على قصور الخلافة، وكان يخدم فيها أربعة آلاف خادم من البيض، وثلاثة آلاف من السود، وسبعمائة حاجب، وأربعة آلاف غلام، وبها دار جمعت من أصناف الوحش ما يقرب من عدد الناس، أخرجت وقد استأنست فهي تتشمّمهم وتأكل من أيديهم، وفيها أربعة أفيلة لكل فيل سبعة نفر من السند والزراقين بالنار، ومائة سبع، كل سبع في يد سبّاع يجرّونها بالسلاسل والحديد إلخ ممّا يهول ويطول، إنّما ننقل هنا ما ذكره في وصف دار الشجرة، وهي شجرة من الفضّة وزنها خمسمائة ألف درهم، قال: ـ دار الشجرة ـ وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدوّرة فيها ماء صاف، وللشجرة ثمانية عشر غصناً، لكلّ غصن منها شاحنات كثيرة، عليها الطيور والعصافير من كلّ نوع، مذهّبة ومفضّضة، وأكثر قضبان الشجرة فضّة، وبعضها ذهب، وهي تتمايل في أوقات، ولها ورق مختلف الألوان يتحرّك كما تحرّك الريح ورق الشجر، وكل من هذه الطيور يصفّر ويهدر، وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً، على خمسة عشر فرساً، قد ألبسوا الديباج وغيره، وفي أيدهم مطارد على رماح يدورون على خطّ واحد في «الناورد» خَبَباً وتقريباً. فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد، وفي الجانب الأيسر مثل ذلك[1].

---

(١) الأعشى، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٢.

وبعد هذا التاريخ لأقل من خمسين سنة تكّرر المشهد نفسه في الغرب، وكان الماثل في حضرة الخليفة ملك إسبانيا نفسه، ففي سنة ٣٥١ هجرية هرع الملك «أردون بن أدفونش» ومعه عظماء مملكاته مستجيرين بالحكم بن الناصر، وهو ينزل «الزهراء» مدينة العظمة والجمال، فجلس لهم في المجلس الشرقي منها، الذي كان يسمى «المؤنس» وفيه «الحوض الأخضر». وقد جرّد المقري قلمه مستبقاً مع الحافظ البغدادي، وفي عظمة بغداد وعظمة «الزهراء» وجلال الملك في هذه وتلك مستبق عريض لتلك الأقلام الطوال، وتكاد الصورة تكون طبق الأصل، في الهول والفخامة ولذلك نقتصر على وصف ذلك الحوض، قال المقري: وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلب من القسطنطينية وقالوا: إنه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله، وحمل من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر، ونصبه الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصّعة بالدرّ النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة، صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، وكلّ ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواها.

وقال: وفي الزهراء المجلس المسمى قصر الخلافة وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه، المتلونة أجناسه. وحيطان هذا المجلس مثل ذلك، وجعلت في وسطه (اليتيمة) التي أتحف الناصرَ بها أليونُ ملك القسطنطينية، وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة، وفي وسط المجلس صهريج عظيم مملوء بالزئبق، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر قامت على سواري من الرخام الملّون والبلّور الصافي، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار، وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ إلى أحد مواليه فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان

البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك، وهذا المجلس لم يتقدم لأحد بناؤه في الجاهلية ولا في الإسلام وإنما تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم(١).

٢٤ ـ ولا أقفز بالقارىء من بغداد إلى قرطبة دون أن أعرج به على «مصر» وهي كانت جنّة الدنيا، ولا أريد أن ألقى بالقلم في منادحها فهي لا حدود لها من عظم عظمتها وسامق مدنيتها، وقد تكفل «القلقشندي» في كتابه «صبح الأعشى» بما اكتفيت به، وظنّي وهو من دولة المماليك أن لو كان في زمن الأيوبيين ما استطاع أن يسجل تلك المفاخر الفاطمية التي قلد تمثالها الشاعر «عمارة اليمنى» مرثيته المؤثرة البليغة وقد كتبها بدمه الذي أهدره «السلطان صلاح الدين» فيما أهدره من دماء الأوفياء لتلك الدولة التي وفت للحضارة أعظم الوفاء، والقصيدة مشهورة ومطلعها:

رميتَ يا دهر كفّ المجد بالشلل وجيدَه بعد حُسن الحلْي بالعطَل

وإني أكلُ حساب «السلطان صلاح الدين» إلى رب السماء فقد مرّ بي زمن وأنا أوازن بين حسنات ذلك السلطان في حروبه الصليبية وبين سيئاته في تخريب المملكة الفاطمية، وهممت أن أتفرّد للحكم وكتابة أسبابه، لولا أن الزمن مضى وانقضى، ولا حاجة بنا إلى نبش القبور ـ إلا أني أقيد هنا من آثار الصنعة المصرية نقلًا عن «تنيس» وكانت من مدن الصنائع متخصّصة بحوك الثياب الشروبية التي لا يصنع مثلها في الدنيا، قال المقريزي: وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له «البدنة» لا يدخل فيه من الغزل سداءً ولحمة غير أوقيتين، وينسج باقيه بالذهب، بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة، تبلغ قيمته ألف دينار وليس في الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو ساذج بغير ذهب مائة دينار عيناً غير طراز تنيس ودمياط(٢).

---

(١) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ١٦١.

(٢) كتب المقرّي في وصف أهل الأندلس يقول: (وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدورة التي تكسُّل عن الكد وتخرج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى النهاية، وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه فضلاً عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر) ـ ا هـ.

قلنا إن العلم يستفتح على العلم ويزداد النور بالنور، وبذلك الصفاء الإلهي اخترق العلماء حجب الكائنات ووقعت على أيديهم المعجبات، وهم كانوا أعاجيب ربّنا ويبقون آيات قدرته في خليقته بما يراه الناس فيهم ومنهم، ومن هذا الاستعلاء ما جاءهم العزّ بعد أن جاءهم الفتح من عند ربهم وتمّ لهم الغلب على غيرهم بما أعدّوه في أنفسهم من عدد العلم، وبما أعدّهم به العلم للعلو والمزيد، وغاية هذا كله في أنفسهم حصانة النفس وحفظها، وأن تكون أوّل من يتذوّق ثمرها وينتفع بخيرها، وفي ذلك يقول الإمام الشافعي: من تعلّم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل مقداره، ومن تعلم اللغة رقّ طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

أي إن غاية العلم العمل، وهذه نتيجة لازمة للعلم وإلا كان عبثاً من العبث، وليّاً للعلم عن قصده من الصلاح والإصلاح، بل خلعاً لربقة العلم من عنق العالم أن لا يعمل بما يعلم، وخيانة ظاهرة للمجتمع ليستحق عليها صاحبها المقت من الله ومن الناس، وخليق به أن يكون مطروداً من تلك الحظيرة الطاهرة، قال أبو الدرداء: لا تكون عالماً حتى تكون بالعلم عاملاً، وقال: إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب أن يقال لك قد علمت، فماذا عملت فيما علمت؟ وقال: ويل للذي لا يعلم مرة، وويل للذي يعلم ولا يعلّم سبع مرات،

ذلك بأن وظيفة العلم هي أن يكون إمام العمل، وأن يبين السبيل للعامل كيف يصل، والعلم لا يتخلف عن وظيفته فهو يقوم بها من طبعه، فإن سُمِع وأطيع فذاك العلم المنتج، وإن عصى وخولف فكأنه لا علم، بل يوشك أن يطمس على قلب صاحبه.

وقال بعض السلف: العلم يهتف بالعمل، فإن أجاب حلّ وإلا ارتحل. وما استدرّ العلم ولا استجلب بمثل العمل وهو من أعظم أسباب حفظه وثباته قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾، وقد أخبر الحق أنه يجزي المحسنين أجرهم

بأحسن ما كانوا يعملون قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾.

ومن أحسن ما يجزي به العالم، زيادة علمه، وحكمة فيه قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾.

وقال بعض العلماء: «تقول الحكمة من التمسني فلم يجدني فليعمل بأحسن ما يعلم وليترك أقبح ما يعلم، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعرفني».

وقال «ابن القيم»: لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه إلا على العلم الذي يصحبه العمل، كما سئل سعد بن إبراهيم عن أفقه المدينة، قال أتقاهم، وسأل «فرقد اليمني» الحسن البصري عن شيء فأجابه، فقال: إن الفقهاء يخالفونك، فقال الحسن: ثكلتك أمّك، وهل رأيت بعينيك فقيهاً؟ إنما الفقيه الزاهدُ في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبارة ربه، الذي لا يهمز من فوقه، ولا يسخر ممّن دونه، ولا يبتغي على علم علّمه الله تعالى أجراً.

٢٥ ـ وذكر «العتبي» أن المسجد الحرام جمع بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير وأخويه مصعب وعروة أيام تآلفهم بعبد معاوية بن أبي سفيان، فقال بعضهم: هلم فلنتمّه، فقال عبد الله بن الزبير: منيتي أن أملك الحرمين وأنال الخلافة، وقال مصعب: منيتي أن أملك العراقين وأجمع بين عقيلتي قريش سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة، وقال عبد الملك بن مروان، وإن منيتي أن أملك الأرض كلها وأخلف معاوية، فقال عروة: لست في شيء مما أنتم فيه، منيتي الزهد في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة وأن أكون ممن يُروى عنه هذا العلم، قال: فصرف الدهر من صرفه إلى أن بلغ كل واحد منهم إلى أمله، وكان عبد الملك لذلك يقول: من سّره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى عروة بن الزبير[١].

---

(١) تاريخ بغداد، ج ١، ص ١٠٣.

ولذلك لما سئل ابن المبارك: مَن الناس؟ قال العلماء، قيل: فمن الملوك؟ قال الزهّاد: قيل فمن السفلة، قال الذي يأكل بدينه.

وهذا بيان «الطريقة النبوية» في التعليم والقصد من العلم عن عثمان وابن مسعود وأبيّ: أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر، فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل فيعلّمنا القرآن والعمل جميعاً[1].

ولذلك القصد العملي من العلم، لا تعجب من تبطؤ بعض العظماء في الاستظهار إذ كان قصدهم الأجل هو استظهار العمل لا لوك اللسان، ففي «موطأ مالك» أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة «البقرة» ثماني سنين يتعلّمها، وذلك عبد الله عن أبيه قال: تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورا.

فلا تعجب إن قلنا لك، إن عبد الرحمن بن شبل الأنصاري وهو معدود من علماء الصحابة، جملة ماله من رواية الحديث أربعة عشر حديثاً.

وقد روى سيدنا الحسن بن علي سبط النبي، جملة ما رواه عن جدّه المصطفى ثلاثة عشر حديثاً وما رواه أخوه سيدنا الحسين عن جدّه، ثمانية أحاديث.

والعلم تأبى عزّته أن يكون لغير نفسه، وأن يقصد لغير وجهه، علمُ الله يجب أن يكون لله، وعلم الدنيا يحب أن يكون لوجه العلم في الدنيا، ووجهه دائماً، حنيف للخير العامّ ونفعِ عبيد الله العليم **﴿الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم﴾**، ومن قصد بالعلَم غير العلم ذلّ وانكبّ، ومن سلك، بالعلم غير سبيله ضلّ، قال أبو يوسف: طلب غرائب الحديث كذب، ومن طلب المال بالكيمياء افتقر، ومن طلب الدين بالكلام تزندق.

٢٦ ـ وقال معاذ بن جبل: اعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا.

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٢٦٢.

٢٧ ـ وروى أبو داود والترمذيّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تعلّم علماً مما يُبتغى به وجه الله، لا يتعلّمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عزف الجنّة يوم القيامة»**.

ولما كان العلم للعمل، فإنهم ما كانوا يرون الكسل، وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ كان يستعيذ بالله من العجز والكسل، ولذلك درج ورثته من علمائه على سنتّه فكانوا لا يرون العطل ولا يقبلون العاطل[1]. وكان حمدان مولى عثمان، عاملًا على البصرة، فكتب إليه في عامر بن عبد الله العنبري التابعي، أنّه لا يأكل اللحم ولا يغشى النساء ولا يقبل الأعمال، فكتب إليه عثمان أن يطلبه، فإن كانت فيه الخصال فسيّره. فسأله فقال: أمّا اللحم فإنّي مررت بقصّاب يذبح ولا يذكر اسم الله فإذا اشتهيت اللحم اشتريت شاة فذبحتها، وأمّا النساء فإنَّ لي عنهن شغلًا، وأمّا الأعمال فما أكثر من تجدونه سواي، فقال له حمدان: لا أكثر الله فينا أمثالك وسيّره إلى الشام للغزو فمات هناك.

والعمل بالعلم متشعّب النواحي مختلف المظاهرد، ضارب في جميع طرق الحياة للوصول إلى حفظ النفس وقناعتها، والقيام بأمر الله فيما خلق الإنسان له من العمل لدينه ولدنياه حتى يفوز بسعادتيهما، والإخلاص، في العمل برعاية حقّ الله فيه غاية العامل العالم، وعليه مدار خيره وخير الناس جميعاً. وإلى هذا المرمى نظر عمر إلى أبي رافع وهو يقرأ ويصوغ، فقال: يا أبا رافع أنت خير منّي، تؤدي حقّ الله تعالى وحقّ مواليك، وأبو رافع هذا من كبار علماء التابعين، كان مولى لامرأة اختلفت الأخبار في تعيينها[2].

٢٨ ـ وقال «أيّوب السختياني» المحدّث الناسك الذي أوصى «أبو قلابة» أن تدفع له كتبه فجيء بها إليه من الشام إلى البصرة: كان أبو قلابة يحثّني على الاحتراف، ويقول إنّ الغنى من العافية، ولذلك فقد كان أيّوب يبيع جلود السختيان فنسب إليها.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٤٦.
(٢) المقري، نفح الطيب، ج١، ص ٢٨٦.

٢٩ ـ وقد كان أبو حنيفة تاجراً مسعوداً، جاءته امرأة تطلب منه ثوب خزّ، فأخرجه لها، فقالت له: إنّي امرأة ضعيفة، وإنها أمانة فبعني هذا الثوب بما يقوم عليك، فقال: خذيه بأربعة دراهم، فقالت لا تسخر بي وأنا عجوز كبيرة، فقال إنّي اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلّا أربعة دراهم، فبقي هذا الثوب عليّ بأربعة[١].

فأنت ترى أن العلم يجتمع مع الصناعة ومع الوظيفة ومع القيام بجميع أعمال الدولة، والعبادة تكون في أثناء العمل وبالعمل، لا تشغل صاحبها ولا تقطعه، والدنيا عندهم كما قال صفوان بن محرز: «إذا دخلت بيتي فأكلت رغيفي وشربت عليه الماء فعلى الدنيا العفاء» ليست هي سيّدتهم، ولكن كانوا هم أسيادها، إنّما يخدمون دينهم بجميع ضروب العمل قياماً لله بأداء واجباته في أشخاصهم ومجتمعهم، فهم في الحجّ كما هم في الغزو كما هم في الوظيفة كما هم في الصيام والصدقة، عرفوا اللّباب فاستغنوا عن القشور ـ سمع أبو حرب بن أبي الأسود الدؤلي، وكان محدّثاً وشاعراً وولي للحجّاج على «جوخي» فلم يزل عليها حتى مات الحجّاج، سمع رجلًا يقول: من يعشّي الجائع فعشاه، ثم ذهب القائل ليخرج بعد العشاء فقال هيهات، تؤذي المسلمين الليلة، ووضع رجله في القيد.

وقيل لمحمد بن المنكدر والتابعي، أحد الأئمّة الأعلام، الذي يحدّث عن نفسه أنّه كابدها أربعين سنة حتى استقامت، وكان لا يملك عينه من البكاء إذا قرأ حديث النبي ﷺ، وأخذ عن عائشة وطائفة من الصحابة، وروى عنه الزهري وزيد بن أسلم وخلق كثير، قيل له: أي الأعمال أفضل؟ قال: إدخال السرور على المؤمن، وقيل له: أيّ الدنيا أحبّ إليك؟ قال: الإفضال على الإخوان.

٣٠ ـ وقال الأصمعيّ: أتت أبا رجاء العطاردي امرأة في جوف الليل فقالت: يا أبا رجاء، إنّ لطارق الليل حقّاً، إنّ بني فلان خرجوا إلى سفران

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٩.

وتركوا شيئاً من متاعهم، فانتعل وأخذ الكتب بذلك وما تركوه، فأدّاه وعاد فصلّى الفجر، وبين المكانين مسيرة ليل للإبل.

٣١ ـ وأبو عثمان الكوفي المحدّث، الذي أدرك النبيّ وأسلم وصدق ولم يره ﷺ وروى عن عمر وعليّ وأبي ذرّ. قال فيه سليمان التيمي: إنّي لأحسب أبا عثمان كان لا يصيب ذنباً، كان ليله قائماً ونهاره صائماً. وقيل إنّه حجّ واعتمر ستين مرّة وعاش ١٣٠ سنة.

٣٢ ـ واللؤلؤي الحافظ العلَم، أعلم الناس بالحديث، وأملى من حفظه عشرين ألف حديث، كان يختم القرآن في كل ليلتين وكان يحجّ كل سنة.

٣٣ ـ والمحدّث البجليّ أبو الحكم العالم العابد، كان يمكث خمسة عشر يوماً لا يأكل، وكان يحرم من السنة إلى السنة ويقول: لبيّك لو كان رياء لاضمحل.

٣٤ ـ وأبو أسماء إبراهيم التيمي الكوفيّ، المحدّث العابد القدوة، كان إذا سجد تجيء العصافير تنقر على ظهره، وظلّ أربعين يوماً لم يأكل إلّا حبة عنب.

٣٥ ـ منصور بن المعتمر السلمي وكان من الحبشة أحد الأعلام المشهورين وثبت له نحو ألفي حديث، صام ستّين سنة وقامها، وقد عمشت عينه من البكاء، ولّاه يزيد بن عمر القضاء، فقعد للناس وتقدّموا إليه، فجعل يقول: لا أحسن إلى أن عزل ـ والأسود بن يزيد حجّ ثمانين ما بين حجة وعمرة.

٣٦ ـ قيل ليونس بن عبيد: أتعرف أحداً يعمل بعمل الحسن البصريّ؟ فقال: والله لا أعرف أحداً يقول بقوله فكيف يعمل بعمله؟ ثم وصفه فقال كان إذا أقبل فكأنه من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أُمر بضرب عنقه، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلّا له.

٣٧ ـ وأبو زرعة المصري شيخ الإمام الليث كان يأخذ عطاءه في كل سنة ستين ديناراً فما يطلع منزله حتى يتصدّق بها قال ابن وهب: ثمّ يجيء منزله فيجدها تحت فراشه.

٣٨ ـ وقال المبرد في الكامل: كان الأصمعي لا يفسّر ولا ينشد ما كان يه ذكر الأنواء، لقوله ﷺ: «إذا ذكرت النجوم فأمسكوا» وكان لا يفسر ولا ينشد شعراً يكون فيه هجاء[١].

وروى أبو الفرج عن رجل من أهل الكوفة أن نصيباً الشاعر قدم الكوفة، قال: فأرسلني أبي إليه وكان صديقاً له فقال: أقرئه مني السلام وقل له: إن رأيت أن تهدي لنا شيئاً مما قلت، فأتيته في يوم جمعة وهو يصلّي، فلما فرغ أقرأته السلام وقلت له: فقال: قد علم أبوك أني لا أنشد في يوم الجمعة، ولكن تلقاني في غيره فأبلغ ما تحبّ[٢].

٣٩ ـ كان ابن جامع المغنّي كثير اصلاة قد أخذ السجود جبهته، من أحفظ خلق الله لكتاب الله وأعلمهم بما يحتاج إليه، كان يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة فيصلي الصبح ثم يصفّ قدميه حتى تطلع الشمس، ولا يصلي الجمعة حتى يختم القرآن ثم ينصرف إلى منزله[٣].

وأكثر ما نقرأ في تراجم علماء السلف أن كانوا بين الصفوف في الغزو والجهاد، وأن كانوا آخذين عن ربهم علماً وعملًا، فهذا عبد الله بن المبارك كان يحجّ سنة ويغزو سنة حتى مات منصرفه من الغزو وسافر مرة من الشام إلى مرو فوجد في رحله قلماً نسيه صاحبه معه من الشام ولم يجد من يبلغه، فعاد إلى الشام حتى ردّه إليه. وفي الحرب له وقائع مشهورة في الشجاعة والإقدام، قال الحسن بن الربيع: خرج فارس من المسلمين ملثّم فقتل فارساً من العدو كان قد فعل بالمسلمين، فكبّر له المسلمون، فدخل في غمار الناس لم يعرفه أحد، فتبعته حتى سألته بالله أن يرفع لثامه فعرفته وقلت: أخفيت نفسك مع هذا الفتح العظيم الذي يسّره الله على يدك؟ فقال: الذي فعلت له لا يخفى عليه.

---

(١) تفسير القرطبي، ج ١، ص ٣٩.

(٢) نسبة إلى الحارة في بعلبك اسمها (حارة المقارزة) وأصله منها وقد جاء أبوه مصر حيث ولي كتابة التوقيع في ديوان الإنشاء، وولد له بها تقي الدين المتوفي ٨٤٠هـ.

(٣) محاضرات الأدباء، ج ١، ص ٧٢١.

وخرج من الشرك فارس فانتدب له، فإذا وقت الصلاة، فسأله التنحّي وصلّى ركعتين، فلما ذهب إليه، قال: حتى أصلّي أنا، وجعل يصلّي إلى الشمس فلما خرّ ساجداً، قال ابن المبارك: هممت أن أغدر به، فإذا قائل أسمعه: «أوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولًا»، فتركت الغدر، فلما فرغ قال لي، لم تحركت؟ قلت: أردت الغدر بك، قال: فلم تركته؟ قلت: لأني أمرت بتركه، قال: الذي أمرك بترك الغدر، أمرني بالإيمان، والتحق بصفّ المسلمين.

وفي ترجمة الإمام الشافعي لما قدم مصر أنه سافر إلى الاسكندرية ليرابط بثغرها، وبقي به مدّة سبعة أيام ووجهه إلى البحر في مراقبة الخطر.

٤٠ ـ وكان محمد بن أبي حاتم الورّاق مع الإمام البخاري في ثغر حربي اسمه (فرير) فكان البخاري يقضي الليل في التيقظ لجمع الحديث ولصلاة السحر قال ابن حاتم، فقلت له: إنك تحمل على نفسك كل هذا ولا توقظني؟ فأجابه البخاري: أنت شابّ فلا أحبّ أن أفسد عليك نومك، وفي يوم كان البخاري قد تعب في تصنيف كتاب التفسير فاستلقى على قفاه فقال ابن أبي حاتم: سمعتك تقول يوماً: إني ما أتيت شيئاً بغير علم قط منذ عقلت فأي علم في هذا الاستلقاء؟ فأجابه: أتعبنا أنفسنا في هذا اليوم وهذا ثغر من الثغور خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو فأحببت أن أستريح وآخذ أهبة ذلك فإن عافصنا العدوو كان بنا حراك(١).

فهذا إمام المحدّثين لا يترك العمل لاستخراج الحديث وهو بثغر المسلمين على منظرة من العدو، ثم هو لا يدع نفسه كلها للعلم، بل يعدّها بالراحة انتظاراً للقاء العدو حتى لا يجده في المعافصة شيئاً مهملًا بل رجلًا منصوباً للحرب والقتال بسيفه، كما وجده الجهل بطلًا أي بطل بعقله وبقلمه، فللّه درّ علماء العمل، إنهم هم الأبرار.

وهذه الظاهرة الحربية لم تفقد من علماء الإسلام حتى الزمن الأخير، فقد سبق أن قلنا إنهم كانوا أهل الحرب والكفاح حتى رست قواعد الإسلام الأولى

---

(١) تاريخ بغداد، ج ١٣، ص ٣٦٠.

على سواعدهم وسيوفهم، وبقوا هم أصحاب السيف والقلم في ملمته العظيمة أيام التتار وأيام الافرنج، وكتب التاريخ فيها غاصّة بأخبار شجاعتهم بسيوف أيّمانهم وبسيوف إيمانهم حتى روى عن «ابن تيمية» أنه ركب من دمشق إلى مصر على ظهْرٍ، فوصلها في بضعة أيام يستصرخها على التتار ثم عاد بعد أن جيّشها وتقدّم صفوف القتال.

٤١ ـ وفي كتاب «البطل الفاتح» لصديقنا طيب الذكر والأثر العلامة داود بركات (رئيس تحرير «الأهرام») قال: فصلّى عن جماعة العلماء الأزهريين الذي انتدبوا أنفسهم لقيادة الفِرق وتأليفها للانتظام في سلك الجيش المصري العربي الذي كان يقاتل في بلاد الشام برياسة البطل الفاتح إبراهيم بن محمد علي، وقد ارتقوا فيه إلى رتب عسركية كبيرة يفخر بها أرباب السيف، ضمّوا هم فخرها إلى ما حلّاهم به الله من العلم الداعي إلى العمل[1].

أمّا نموذج موظفي الدولة الإسلامية من فحول العلماء فإليك بعض أسمائهم وفيها الغناء والكفاية للدلالة على مجدها وسبب تقدّمها وعظمة موظفيها الذين عظمت بهم وعظموا فيها:

١ ـ الحسين بن حفص الهمداني قال فيه أبو نعيم: ولي القضاء والفتيا والعدالة والنباهة والرياسة وكان وجهَ الناس وزينتهم، كان دخله كل سنة ثلثمائة ألف درهم فما وجبت عليه زكاة قط، وجوائزه دارّة على المحدّثين.

٢ ـ قبيصة بن ذؤيب المحدّث شيخ الزهري وتلميذ أبي هريرة، كان على خاتم عبد الملك بن مروان، وهو الذي أوصل الزهري لعبد الملك ففرض له.

ولزم الزهري (وهو محمد بن مسلم العالم المشهور) عبد الله أخا عبد الملك، وابنه هشاماً، وكان يزيد بن عبد الملك استقضاه، وهو الزهري شيخ الشيوخ يقو فيه الإمام الليث: ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب وقال مالك: كان ابن شهاب (شهاب أحد جدود الزهري) من أسخى الناس، وتقياً ما

(١) السيوطي، المزهر، ج ٢، ص ٢٠٧.

له في الناس نظير، وقال أيوب السختياني: ما رأيت أعلم من الزهري.

٣ ـ وقال ابن قتيبة: سليمان بن ربيعة الباهلي أول قاضي قضى لعمر بالعراق، ثم تنقل به إلى القادسية والمدائن، وقتل في أرض الترك في الغزو ببلدة اسمها «بنجر» وعظامه عند أهلها في تابوت إذ احتبس عليهم المطر فاستسقوا به، سقوا.

٤ ـ وأبو مجلز «لاحق بن حميد» الذي أشخصه عمر بن عبد العزيز من خراسان ليسأله عنها، ثقة به وتعديلًا له، كان عاملًا على بيت المال وعلى ضرب السكة في خراسان.

٥ ـ وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان الذي يجعله أحمد بن حنبل ـ أمير المؤمنين في الثقة بالحديث ـ ويقول فيه البخاري: أصحّ الأسانيد (أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة) ورآه الإمام الليث وخلفه ثلاث مائة طالب، كان والي عمر بن عبد العزيز على خراج العراق، وابنه عبد الرحمٰن المحدّث وليّ خراج المدينة، ولعبد الرحمٰن هذا ولد محدّث اسمه «محمد» كان بينه وبين أبيه في الولادة ١٧ سنة، ولقي رجال أبيه ولم يحدّث عنهم حتى مات أبوه قبله بإحدى وعشرين سنة فحدّث عنهم، أي أنه احترام أباه فلم يرد أن يستوي معه في رتبة التحديث فيأخذان معاً عن واحد، وهو يأخذ عن أبيه.

٦ ـ وكان الحسن البصري كاتبَ الربيع بن زياد الحارثي بخراسان، ومحمد بن سيرين كاتبَ أنس بن مالك بفارس، والشعبي كاتبَ شريح القاضي ومتولّي كثير من أمور مصعب بن الزبير، ثم ولي قضاء الكوفة، وسعيد بن جبير كاتبَ أبي بردة على القضاء وبيت المال بالبصرة.

٧ ـ و«ميمون بن مهران التابعي» الذي يقول فيه أبو المليح: ما رأيت أفضل منه، وأخذ عن الصحابة وأخذ عنه جمع من كبار المحدثين، كان والياً لعمر بن عبد العزيز على خراج الجزيرة، ومن كلام هذا الوالي: من أساء سرّاً فليتب سرّاً ومن أساء علانية فليتب علانية ـ وابنه (عمرو) راوي حديثه، كان على الديوان ـ وكان ميمون هذا بزّازاً، فكان يجلس في حانوته وهو يتولى

الخراج، أي أنه جمع الوظيفة والتجارة والعلم وهو علْم مسلسل، فإنّ ابنه عمراً عالم، ولعمرو ابنُه عبد الله عالم أيضاً.

٨ ـ ونزح الإمام الشافعي إلى اليمن حيث تولّى عملًا في إمارته مدة من الزمن لم ينقطع فيها عن العلم.

٩ ـ وكتب القاضي الشيخ محمود عرنوس جملة في مجلة «المعرفة» عن ترجمة محمد بن سعيد البوصيري منشيء البردة والهمزية الشهيرتين، جاء فيها أن البوصيري كان كاتباً على الخراج ثم تولى مباشرة بلبيس، وهي وظيفة مالية كان صاحبها يشرف على أرض منطقته يباشر ما صلح منها للزرع فيصرف لصاحبه المال والبذر، حتى إذا نضج الزرع حصل ما صرف، وجبى الرسم وأخذ العشر الخ، وهي عملية كانت تعمّ بلاد القطر حتى أبطلها الناصر محمد بن قلاوون ـ قال: وقد سئم البوصيري العمل مع موظفي المباشرة فاستقال من وظيفته ووضع قصيدة لطيفة في ذمّ مستخدميها مطلعها:

نقدت طوائف المستخدمينا فلم أر فيهمو رجلاً أمينا

١٠ ـ والعلامة المؤرخ تقي الدين المقريزي[1] تولى ولاية الحسبة بالقاهرة، والمحتسب كان في تلك الأزمان يقوم بأعمال مهمّة لخدمة الهيأة الاجتماعية، وقد بقي هذا المنصب حتى أواخر القرن الماضي، وأعماله الآن موزّعة بين النيابة العمومية ومصلحة المكاييل والموازين والبلديات.

وتقي الدين عالم مؤرخ صاحب تآليف كثيرة ذكر «السخاوي» أسماءها وقال: إنها زادت على مائتي مجلد كبار، وبلغ عدد شيوخه ستمائة نفس وأكبرها كتاب «مجمع الفرائد ومنبع الفوائد» يشتمل على العقل والنقل المحتوي على فنّي الجدّ والهزل بلغت مجلداته مائة ـ وهو صاحب كتاب «الخطط المقريزية» الذي يروي منه كل وارد ويصدر عنه بالريّ كل صادر، ويكاد يكون نسيج وحده، وبه طارت شهرة تقي الدين، والعجب أن السخاوي يقو فيه: هو مفيد لكونه ظفر بمسودّة الأوحدي، فأخذها وزادها زوائد غير طائلة.

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢، ص ٣٤١.

والأوحدي هو شعاب الدين أحمد عاصر المقريزي، ومات قبله بثلاثين سنة، قال السيوطي في حسن المحاضرة: كان لهجاً بالتاريخ ألف كتاباً كبيراً في خطط مصر والقاهرة.

١١ ـ والشيخ محمود العيني صاحب الزاوية المشهورة بجوار الأزهر والمؤلف الكبير في القرن التاسع قال السخاوي: لم يجتمع القضاء والحسبة ونظر الأحباس (الأوقاف) في آن واحد لأحد قبله فيما أظن. فهذا العالم جمع ثلاث وظائف كبرى، وكان يجيد التركية ـ ومن خصيصي الملك. المؤيد حتى إنه أرسله في مهمّة سياسية إلى بلاد الروم، ومن العجب أنه كان والمقريزي قد تداولا حسبة القاهرة مراراً، وما يلفت النظر في ترجمة العيني قول السخاوي: إنه قرأ على «الحسام الرهاوي» مصنفه «البحار الزاخرة في المذاهب الأربعة» وإنه اختصره في مجلدين وسماه «الدرر الزاهرة» ممّا يدل على عنايتهم إذ ذاك بالاطّلاع على المذاهب كلها وإن كان الشيخ حنفياً وله «شرح على متن الكنز» في مجلدين يقرأ بالجامع الأزهر ويتعرض فيه لذكر المذاهب.

١٢ ـ وسيجيء أنّ ابن سعد الزهري المحدّث بين عمّال المال في بغداد، إلى أشباه هذه الأخبار مّا لم نعمد إلى نقصّيه بين عمّال الحكومة الإسلامية ولكن أردنا أخذ الشاهد منه على قيام العلماء بهذه الوظائف الإدارية وما كان الظنّ أن يتباعدوا عنها. ولذلك تركنا وظائف القضاء والإنشاء وما أشبهها ممّا هو خليق بهم وجدير ألّا يتولّاه غيرهم.

١٣ ـ أما الأعمال الحرّة فهذه أمثال منها ـ مالك بن دينار العالم الزاهد الواعظ المحدث، كان لا يأكل إلا من كسب يده، كان ورّاقاً يكتب المصاحف بالأجرة ـ وروى عنه: قرأت في التوراة: إن الذي يعمل بيده، طوبى لمحياه ومماته.

١٤ ـ والمهندس العالم العراقي بعد أن رجع من بعثته النيلية، وظهر بعد وفاة الحاكم، استوطن قبّة على باب الجامع الأزهر واشتغل بالتصنيف والنسخ والإفادة، وكان له خط قاعد في غاية الصحّة، فكان ينسخخ في مدّة سنة ثلاثة

كتب ضمن ما يشتغل به، وهي إقليدس والمتوسطات والمجسطي ويستكملها في مدّة السنة، فإذا شرع في نسخها جاءه من يعطيه فيها مائة وخمسين ديناراً مصريَّة، وصار ذلك كالرسم الذي لا يحتاج فيه إلى مواكسة، فيجعلها مؤونة سنته.

١٥ ـ وكان «أويس القرني» وهو سيد التابعين، يمرّ بالمزابل فيلتقط الرقاع. وإبراهيم بن أدهم كان يؤاجر نفسه، وكان سليمان الخوّاص يلفظ، وكان حذيفة يضرب اللبن.

١٦ ـ وكان «ابن حنبل» يعمل بيده، ويسوّي تراب أرضه، وربما أخذ القدوم وخرج إلى دار السكان يعمل، وكان يأمر أولاده أن يختلفوا إلى السوق وأن يتعرّضوا للتجارة، وأصحابه من المالكين أن يلزموا ضياعهم. وكان السريّ بن يحيى يتّجر في البحر ويسافر في مراكب التجارة. وخرج سفيان الثوري إلى اليمن يتّجر ورأس ماله سبعون ديناراً، ولما مات خلّف مائتي دينار، فسأل سائل من أين كان له مائتا دينار وهو أزهد العلماء؟ قال يوسف بن أسباط: كان يضع الشيء بعد الشيء مع إخوانه فبورك له فيه.

١٧ ـ وكان أبو يزيد البسطامي بستانياً. وكان سيرين أبو محمد بزّازاً. ومجمع الزاهد خائطاً والمسيّب أبو سعيد زيّاتاً، ومرّ بك أنّ أبا حنيفة كان خزّازاً، وميمون بن مهران كان بزّازاً، والواقدي كان حنّاطاً، وغلام ثعلب مطرّزاً وجملة أسماء من العلماء كانوا بزّارين يبيعون البزر قال: والبزّار بيّاع بزر الكتان أي زيته بلغة البغاددة، وإليه نسب دينار أبو عمرو، وخلف بن هشام، والحسن بن الصباح، وبشر بن ثابت، وإبراهيم بن مرزوق، ويحيى بن محمد، وعبيد بن عبد الواحد، وأحمد بن عمرو صاحب السند، وأحمد بن عوف بن جدير، وجعفر بن محمد العبدي[1].

ويطول بي القول وأخرج عن موضوعي لو تتبعت صناعات العلماء

(١) المرجع نفسه، ج ٦، ص ٦٦.

وأعمالهم، وإنما مثّلتُ لأبين الفكرة عند العلماء أنهم كانوا يعملون، ويفضّلون العمل ويقدّمونه، ويجعلونه أداة كسبهم ومادّة عيشهم من غير أن يتّخذوا العلم أو يجعلووه في نفسه متجراً ومادّة ربح وشرك مال. وهم في هذه ورثة صاحب الدين الذي ورّثهم علمه، وكان النبيّ ﷺ خير العاملين وسيّد من دعا إلى العمل وعمل من غير توان ولا كسل، ولأبي بكر أحمد الخلال «محرّر المذهب الحنبلي» المتوفّي سنة ٣١١ هـ ـ رسالة «في الحثّ على التجارة والصناعة والعمل» منها يبين الروح الذي تلبّس رجال العلم فساقهم إلى العمل، وانتشر في الأمّة حتى نبا بها عن العطل، ولا غرو أن يسودوا وهم عبيد الربّ الذي ينعى عليهم في الآية الشريفة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ ويقول لهم: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولم يحسب إلا على العمل، ولم ينظر إلا إلى العمل، ويجعل رسوله العملَ أول واجب الحياة حتى ليقول ﷺ: «إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة فليغرسها» وهذا منتهى ما يصل إليه المجتمع في تعمير الدنيا.

١٨ ـ عن هشام بن عروة عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي الجبل فيجيء بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ويستغني بثمنها، خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه.**

١٩ ـ وعن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فشكا إليه الفاقة، ثم رجع، فقال: يا رسول الله لقد جئتك من أهل بين ما أراني أرجع إليهم حتى يموت بعضهم، فقال له: انطلق هل تجد من شيء؟ فانطلق فجاء بحِلْس وقدح، فقال: يا رسول الله، هذا الحلس كانوا يفترشون بعضه ويلبسون بعضه، وهذا القدح كانوا يشربون فيه، فقال رسول الله: ﷺ: **«من يزيد على درهم؟»** فقال رجل: أنا آخذهما باثنين، فقال: **«هما لك»** قال: فدعا الرجل، فقال: اشتر فاساً بدرهم وبدرهم طعاماً لأهلك، قال: ففعل، ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال: **«انطلق إلى هذا الوادي فلا تدع حاجاً ولا شوكاً ولا حطباً ولا تأتني خمسة عشر يوماً»** فانطلق فأصاب عشرة دراهم، ثم جاء إلى النبي ﷺ فأخبره،

فقال: **«فانطلق فاشتر بخمسة دراهم طعاماً وبخمسة كسوة لأهلك»** فقال: يا رسول الله، لقد بارك الله فيما أمرتني، فقال: **«هذا خير من أن تجيء يوم القيامة في وجهك نكتة المسألة، إنّ المسألة لا تحلّ إلاّ لثلاثة: لذي دم موجع، أو غرم مفظع، أو فقر مدقع»**[(١)].

وسئل «الفضيل بن عياض» عن الرجل يقعد ينتظر الرزق في بيته ثقة بالله، فقال: لم يفعل هذا الأنبياء ولا غيرهم، وقد كان الأنبياء يؤاجرون أنفسهم وكذلك آجر النبي نفسه وأبو بكر وعمر، يقول الله: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ فلا بد من طلب المعيشة ـ وبشر بن الحارث كان لا يرى غير الاكتساب ـ ومحمد بن مقاتل يقول: ينبغي للرجل أن ينظر رغيفه من أين هو؟ ودرهمه من أين هو؟ وسفيان الثوري يقول في كسب الحلال: إعمل عمل الأبطال.

٢٠ ـ وسئل النبي ﷺ عن أطيب الكسب فقال: **«عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور»** وكان أبو يوسف الغسولي يقول: إنّه ليكفيني في السنة ١٢ درهماً لكل شهر درهم، وما يحملني على العمل إلاّ ألسنة هؤلاء القرّاء، يقولون: أبو يوسف من أين يأكل؟. ومن لطف أبي يوسف هذا ودقّته في الفهم قوله: «أنا أتفقّه في مطعمي من ستّين سنة» فهو في عمله لطعامه يرى أنّه يتفقّه ويتدبّر ولا ينسى الله وذكره.

٢١ ـ وقد ذكر «الخلّال» بعض الأنبياء العظماء فقال: كان داود لا يأكل إلا من عمل يده، وكان يخاطب الناس على منبره وإنه ليعمل الخوص بيده، فيعمل منه القفّة أو الشيء، ثم يبعث به مع من يبيعه ويأكل ثمنه.

وكان سليمان، يعمل الخوص بيده ويأكل خبز الشعير.

وكان النبيّ إدريس خيّاطاً، وكان يتصدّق بما فضل من كسبه بعد قوته ـ وكذلك كان لقمان خيّاطاً، وكان زكريّا نجّاراً.

٢٢ ـ وقد مرّ أن النبيّ كان يعمل وآجر نفسه، وأبو بكر وعمر، وكان

(١) تاريخ بغداد، ج ٢، ص ١٤.

عليّ رضي الله عنه يعمل حتى تدبر يده، وأصحاب الرسول يعملون، وكان أبو بكر أتجر قريش حتى دخل في الإمارة، وسأل رجل سيّدنا علياً عن إزار غليظ عليه، فقال: اشتريته بخمسة دراهم، إن أربحتني فيه درهماً بعته.

٢٣ ـ ومر «سفيان الثوري» بقوم جلوس في المسجد الحرام فقال لهم: ما يجلسكم؟ قالوا: فما نصنع؟ قال: اطلبوا من فضل الله ولا تكونوا عيالاً على المسلمين..

٢٤ ـ وقال عمر: يا أيها الناس كتب عليكم أن يأخذ أحدكم ماله فيبتغي فيه من فضل الله عزّ وجلّ، فإن فيه العبادة والتصديق، وأيم الله لأن أموت في شعبتي رجلي وأنا أبتغي بمالي في الأرض من فضل الله، أحب إليّ من أن أموت على فراشي، ولو قلت: إنها شهادة لرأيت أنها شهادة، وهذه عظمة عمر، يرى العمل والموت في سبيله كأنه شهادة في سبيل الله.

٢٥ ـ فقد أخذ «قاضي القضاة» حبّ العمل على قلبه وزهد أن يتناول راتبه من بيت المال، واستطاع بعظمة نفسه أن يجمع بين خدمة دينه ودنياه، وأن يعمل لكسبه بيده مع أنه يخدم المجموع بعلمه ويجوز له أن يتناول عليه ما يكفيه ولكنها عظيمة حبّ العمل وفخر العامل، قال الشيخ شمس الدين البساطي قاضي قضاة المالكية، كان من جلال قدره زاهداً في الدنيا، يأكل من صيد السمك، فكان يخرج من الغلس بشبكته فيصطاد ما يبيعه بقوت ذلك اليوم وهو في هيأة الصيادين، ثم يجيء من خوخة في بيته فيدخل منزله ويلبس ملابس القضاة، وهي الشلش والطيلسان والملوطة البيضاء، ويخرج من الباب إلى الدهليز، ويجلس بين القضاة للحكم بين الناس، وكان في عصر واحد مع شهاب الدين ابن حجر المحدّث الكبير(١).

٤٨٩ ـ وقد ساق ابن قتيبة فصلاً في صناعات الأشراف ننقله وإن كان فيه غير العلماء، قال: كان أبو طالب يبيع العطر، وربما باع البر وكان أبو بكر

(١) داود بركات، البطل الفاتح، ص ٢٨١.

الصديق رضي الله تعالى عنه بزازاً وكان عثمان بزازاً وكان طلحة بزازاً وكان عبد الرحمٰن بن عوف بزازاً وكان سعد بن أبي وقاص يبري النبل وكان العوام أبو الزبير خياطاً وكان الزبير جزاراً وكان عمرو بن العاص جزاراً وكان العاص بن هشام أخو أبي جهل حداداً، وكان عامر بن كريز جزاراً وكان الوليد بن المغيرة حداداً، وكان عقبة بن أبي معيط خماراً وكان عثمان بن طلحة الذي دفع إليه رسول الله ﷺ مفتاح البيت خياطاً وكان قيس بن مخرمة خياطاً وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزيت واللادن وكان عتبة بن أبي وقاص نجاراً وكان أمية بن خلف يبيع البرم، وكان عبد الله بن جدعان نخاساً له جوار يسعين ويبيع أولادهن وكان العاص بن وائل أبو عمرو بن العاص يعالج الخيل والإبل، وكان النضر بن الحارث بن كلدة يغني بالعود، وكان الحكم بن أبي العاص أبو مروان بن الحكم كذلك وكذلك كان حريث أبو عمر وقيس الفهري أبو الضحاك ومعمر جد عمر بن عبيد الله وسيرين أبو محمد، وكان يزيد بن المهلّب اتخذ بستاناً في داره بخراسان وهو واليها، فلما ولي قتيبة بن مسلم جعله لإبله، فقال له مرزبان مرو: هذا كان بستانياً وقد جعلته لإبلك فقال قتيبة: إن أبي كان (اشتربان) يعني جمالاً.

وقد سقنا هذا الخليط من أصناف العمل وفيه أسماء بعض الفطاحل الذين بنوا المملكة الإسلامية، ورفعوها على أعناقهم رفعة لا يزال بنيانها مشمخاً إلى يومنا هذا على الرغم من معاول الهدم والتخريب التي تتناوله ولا تفتأ تنزل به، لنقول للأمة التي تطاول الدنيا في زمننا هذا برجالها وتفخر على الناس بخروج عظمائها من بين طبقات العمال والصنّاع خروج الناهضين المصلحين المجلّين وتدلّ بروحها العام أنه شمل طبقاتها، وعزّ وقوي حتى ليطلع منها أقوى الرجال وأعظم النفوس، فنحن نقول وننشر صحف تاريخنا وتراجم عظمائنا، إن الأمة الإسلامية الأولى كانت أعزّ نفراً، وأعظم قبيلاً، وأقوى روحاً، وأسمى غاية، وأفضل رجالاً، وأكرم سياسة، وأنبل مقصداً، فكانت خير أمة أخرجت للناس.

ولي كتاب في «أصول المشهورين» مبين فيه أن قوة العظمة في أمتنا كامنة

في كل فرد منها كمون النخلة في النواة لا يبعد عليه في ظرفه أن يظهر وأن يثمر، وإذ نقول هذا للفاخرين نهيب بأبنائها الغافلين: أن هذا تراث آبائكما فاحفظوه، وفخرهم فلا تضيعوه وسبيلهم فاسلكوه ومقصدهم فأدركوه، فربّكم الذي يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ويقول: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ فالعمل العمل، وحي على خير العمل، إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وترانا لم نعرض لأعمال الصحابة رضوان الله عليهم، ولا نقلنا من فضائلهم وعظائمهم، فأولئك قوم هم ملائكة البشر، كانوا متّصلين (بالدينامو) الأعظم، فاستطاعوا بقوة التيار أن يقبلوا الدنيا تلك القبلة، وأن يبنوا الإسلام هذه البنية، فحديثهم عجب، وتاريخهم طرب، والفرد منهم بأمّة والأمّة منهم بعالَم مجموع، وحسبك أن ترى في كل صحابي رجلًا فدائياً، يفادي بنفسه وبماله وبأهله في سبيل دينه، وإعلاء كلمته وإصلاح أمّته، لا يبغي على ذلك إلّا إرضاء الذي في السماء عرشه وفي الأرض فرشه، ولا يرى نفسه في المجموع شيئاً، ويرى العمل، لإسعاده كل شيء، فهم مثل الكمال الأعلى، وهم لمن تبعهم قدوة الغاية المثلى لذلك استحقّوا أن يكونوا خير القرون ثم يليهم من بعدهم ثم الذين بعدهم إلى قرننا هذا، لا أدري ما فيه من خير، إلّا أنّي أعطّر الكتاب بنفحة من تلك النفحات العلى، وأنقل عن ريحانة الأمّة وسيّد شباب أهل الجنّة الحسن بن عليّ سبط النبي ما ذكره في الخلاصة قال:

وحجّ الحسن خمس عشرة حجة ماشياً، وخرج من ماله مرتين، وقاسم الله عزّ وجلّ ماله ثلاث مرات، حتى كان ليعطي نعلًا ويمسك نعلًا ويعطي خفّاً ويمسك خفّاً.

و«أعمال الصحابة» هذه عنوان ضخم فيه كل جليل وفيه كل عظيم ويه سرّ الله القادر على كل شيء، وقد صنع بهم ولهم كل شيء، إنما سقته للترويح عن نفسي إذ أراني حرجاً كلما جاءتني الأنباء من أمريكا وبريطانيا عن تلك الهبات الهائلة التي يتقدم بها أفراد من تينك الأمتين تكاد تقطع نفوس الأمم، لعلّ القارئين أن يسمعوا أو أن يعلموا، وأن يعرفوا السرّ في تقدّم الأمم.

سر الإخلاص وقوة الاستمرار

ربما هال بعض القرّاء ما رويته عن قوّة العلم وإمدادها صاحبها بذلك المدد، أو استعظم ما نقلته من عمل العاملين واستكثره، فاذكّره بسرّ الإخلاص وقوّة العادة وفائدة الاستمرار والمداومة، وأعود به إلى نفسه عسى أن يروضها على نحو خاص، فيرى من الرياضة دليل ما سمع، أو يتحرّى في محيطه وينتبه لما يرده من أنباء الناس، ففي هذا مقنع ونتيجة الاستمرار عليه وكثرة ما ينتج به، وإلى تصديق حكم العادة إذا وجّه نفسه بها وجهة الخير التي روينا عن رجالها، حتى في هذا الزمن من انقطع إلى شيء من الأشياء، فإنه يراه قد استكنهه وأحاط به وقدر عليه، وفي ذلك يقول السيّد المسيح لرجاله وقد سألوه عن سرّ ما يأتي به من الخوارق: اعملوا عملي ثم قولوا لهذا الجبل انطرح في البحر ينطرح، ولمّا ننس صيام (محافظ يورك) في إيرلندا وقد بقيت التلغرافات تواتينا به سبعين يوماً من بضع عشرة سنة ـ وقوّة الحافظة والذاكرة والمفكّرة لا تزال بسلامتها في أربابها السلامة، وهم الذين يحملون اليوم لواء العلم والعمل، فلا ينغض القارىء برأسه، لهذا الباب، باب العلم والعمل، وإنما يشمّر لولوجه والاستباق في رحابه، والله يختص برحمته من يشاء.

١ ـ وهذا سرّ من الأسرار تجلّى للمصطفى ﷺ ولزمه ودعا إليه، ففي البخاري من كتاب «الرقاق» أنّ عائشة رضي الله عنها. سئلت أيّ العمل كان أحبّ إلى النبي ﷺ؟ قالت: الدائم. وقالت: كان أحبّ العمل إلى رسول الله ﷺ الذي يدوم عليه صاحبه، وسئل هو ﷺ: أيّ الأعمال أحبّ إلى الله؟ قال: أدومها وإن قلّ، نعم فالقليل مع الديمة كثير، ومن يراجع منّا أعماله المتكررة بعد حين فإنّه يجدها من الكثرة بحيث يعجب، وهؤلاء كتّاب الصحف اليومية ننظر إلى مجموعات صحفهم فيأخذنا هولها كما يأخذنا إذا نظرنا إلى ضخامة التآليف التي ألّفها العلماء وكثرة مجلداتنها فنقول عاجبين:

متى ألفوها وجمعوها؟ ولكن قوّة الاستمرار تدفع هذا العجب، وتأتي هي: وقد جُمعت تفاريقها، بالعجب، كما أن هذه القوّة نفسها في سعتها وتوسيع حوزها تخرق الحجب، وتُظهر صاحبها كأنّه خارق للعادة التي يجري عليها وفيها المستهترون الآكلون المتمتّعون.

٢ ـ في ملعب «السرك» ترى الرجل يصارع السبع، والفتاة تمشي على الحبل، والفتى يحمل من الأثقال ما لا يحمله النور، والخيل والكلاب والقطط والسمك والطير تلعب ألعاباً منظّمة مرتّبة، مما علّموها ومرّنوها، كأنّها ذوات إدراك ونطق، وتقوم الجوّقة فيه بحركات لو سمعت بها لظننتها كذباً، هل تصدّق أنّ ولداً يقف على سلك مشدود في جوّ السماء يصعد على كتفيه رجلان في يد كل منهما إنسان وهو يجري بهذا الجمع خبباً على متن السلك، كأنه جواد رامح على طريق واضح؟

وترى الحاوي في مشهد من النظارة وقف يعرض أعاجيبه، يطلع كتكوتاً من جيبك، ويستخرج قرشاً من أنفك، ويتلقّى من الهواء الصافي منديلًا كأنّ الشمس نسجته له حين مدّ يده، وينثر الورق الممزّق فتلقاه كاغداً منشوراً لزم كلّ طائر منه عنق كلّ ناظر، والخاتم تقبض عليه في يدك ثمّ تفتحها فلا يكون فيها، وأمامه عمود من علب داخل بعضها في بعض فهو يفتحها علبة علبة، إلى أن يصل إلى أصغرها فإذا بخاتمك في داخلها، إلى أمثال هذا العجب المدهش، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون، بلى إنه سحر المرانة وبصر التجربة وسرّ الإتقان والسلامة الخارجة من دوام العمل وكثرة الاستعمال، ومن هذا التفرغ والتخصص لهذا العمل كان ما تراه في الملعب وما تنظره في المشهد من الراكض والحاوي، واللطف في كليهما ألّا ترى خطأ ولا تخيب تجربة، كأن الحذق غطّى كل خبيئة في هذا وذاك، إذن فاعلم أن العالِم إن هو إلا متفرغ متخصص ذو مرانة وتجربة ودوام واستمرار جعلته هو علمَه وأو عمله الذي تفرغ له واستقر فيه حتى شربه أو تشربه، فالعالم الذي قويت حافظته حتى حوت مثل مارويناً، أو اتسعت مفكرته حتى أخرجت المجهول من المعلوم وكشفت عن الدقيق غير المفهوم، والعامل الذي صلى وصام وحجّ وقام وغزا

وهام، وصاحب الخلق الباذل الشجاع المؤثر الباخع نفسه لترى آثار خلقه خلقه طالعة من مصادرها لا مقطوعة ولا ممنوعة، اعلم أن هذا وهذا مثلهم مثل من تراه في الملعب أو المشهد عكف على شيئه حتى أجاده، وتفرغ لفنّه حتى أبدعه، ثم جاءك العجب من بدعه وإجادته، كلا الرجلين متخصص، ولكن العالم بدلًا من أن تراه في الملعب على سلك كتّان، تنظره في المعمل على سلك من عرفان، وبدلًا من أن يسلك درب الخاوي في خفة اليد فيطلع الكتكوت من الجيب، قد خفّ بها حتى أطلقت نور الكهرباء من تقطير الفحم، ونصب وسط المصباح شبكة من أسلاك دقيقة يلعب النور فلوقها فتراه حقيقة نافعة تخدم العالَم النائم، وكذلك سنّة الخليقة، في انتفاع الوسنان من الصاحي. وفي خدمة العالِم للعالَم.

واليوم في عصرنا هذا لا تزال الدنيا بخير، فشيعة العلم لا تزال قائمة، والعلم لا زال نوراً ولكن النور يطلع اليوم من الغرب، وكان فيما مضى يطلع من الشرق، وهالته من العلماء تبع له يحفضون به حيث كان، ويظهرون معه أين ظهر، وهذه دورة من دورات الزمن، «وتلك الأيام نداولها بين الناس» ـ فالدولة في عصرنا هذا لناحية من نواحي هذا الكوكب الأرضي، والله وحده وقد خلقه من غير أن يشهدنا خلقه، هو الذي يعلم عدد نواحيه التي فجّ فيها، ومقدار ما يدوم بها، ووقت ينتقل منها ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ عَٰلِمُ بِمِقْدَارٍ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾.

فيا أيها القارىء نحن الطاعمين الكاسين الآكلين الشاربين، عالة على العلماء العاملين، نأكل من فتاتهم، ونعيش بفضلهم، ونحيي وفي أعناقنا طوق منهم، هم الذين أضاءوا الليل ومهدوا النهار، وهم الذين اكتنفونا في المكتب وفي الدار، وهم المعنيون وحدهم بنا يبحثون ويجدون وينقبون ويضحون فيما ينفعنا ويهنينا، أيقاظ ونحن رقود، حركة ونحن خمود، هم الأحياء وأصحاب هذه الحياة ونحن في الحق ضيوفهم الثقلاء لولا كرمهم وطيب نفوسهم، تراهم ومن فرط صفائهم لا نعرفهم فترى المرء منهم فرداً وهو أمّة. وتعامله على قدم المساواة وهو سماء ومن دونه أرض، ولكنه العلم، العلم من طبعه يورث

الحلم، ويملأ نفس صاحبه بقيمة العلم، ولا يعرف الشوق إلا من يكابده، فالعالم كلما اتسع أفقه عرف صغره بالنسبة للأفق الأعلى، وفي قصّة الخضر وموسى، أنهما لما ركبا وقع عصفور على سكان السفينة فنقر من البحر نقرة ثم طار، فقال الخضر لموسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا ما نقص هذا العصفور من البحر، فهذا الكون الذي يقف كل عقل دون تصوّره، وينقطع الخيال ولا يتكهّنه يعرف العلماء عظمته فهم لها مقدرون، ولعظمة صاحبه ساجدون، وبعجزهم أمام قدرته مؤمنون، وهكذا تقوم الساعة ويبقى الكون مجالًا لاستباق العقول ولاستخراج ما فيه من محصول ثم لا يكون هذا المجال مهما عرض وطال إلا كالحلقة في البريّة لا تخسّ بينهما تناسباً بالكليّة، والله واسع محيط وما يعلم جنود ربك إلا هو، سبحانه العالم بما كان وما يكون.

فأطفال العلوم إذن معذرون إن قاسوا بعقولهم الصغيرة، أو وزنوا بمعارفهم الحقيرة، حتى إذا كبروا وعرقوا، وهم إن عرفوا جهلوا، وهكذا المعرفة الصحيحة بابها الجهل، أي جهل ما عدا علمه، وإقراره بجهله لغير ما يعلمه فهو إذاً يجدّ لمعرفته، وفي هذا الجدّ سعادته وسعادة المجموع.

٣ ـ لما توفي أبي أقامني الناس مقامه، وعلماء الطبيعة يقولون إن الوظيفة تكوّن العضو، فكذلك كوّنني مقامي ذاك، فانطلقت أطلب العلم الذي طلبه أبي مجدّاً يقظاً مستفيدا، وكنت أسمع بعلم المنطق وأرى تشادق المتمرّسين به، فحضرت دروسه فيما حضرت، وتلقيت كتاب «إيساغوجي» فيه، فراعني منه تقاسيمه، وأخذ سمعي بطنين أبوابه ورنين فصوله، فما أن حصّلته حتى انتفخت غروراً به، وكلما قعدت في ملأ هجس في خاطري طاووس الغرور يشحم فؤادي في نفسي، ترى هؤلاء الجمع أيعرف أحد منهم علم المنطق؟ ولقّني المنطق في ملاءته ردحاً من الزمن لم يطل، فقد كنتُ بعد ثلاث سنين في مدرسة القضاء الشرعي أناظر فاضلًا منطقياً في علم المنطق، وأتولى في المناظرة طرف المنع، أقرر أن علم المنطق لا فائدة منه ولا حاجة إلى تعلمه، وأن الاشتغال به مثله كنقل التمر إلى هجر إذ كل إنسان بطبيعته هو منطقي، والفطرة الإلهية قائمة في النفس تؤدي هذا العمل الذي صنع المناطقة فيه صناعة

يريدون أن يثقّلوا بها كاهل العلم، وهو خليق أن يتفرغ للبحث عما يكمل البشرية، ويتعلّم الطلبة به ما ينفعها ويسدّ نقصها ويملأ فراغها، ومن عجب أن أرى العلامة السيوطي على هذه النكرة وقد ألّف رسالة سمّاها «صون المنطق والكلام عن فنّي المنطق والكلام» ثم رأيت بعد حقبة أن «ابن القيم» ينهج هذا المنهج في كتابه «مفتاح دار السعادة» ويحمل على هذين العلمين أو الصناعتين حملة موفقة منتظرة من أرباب النظر، وهكذا تراني كلما ازددت في علمي قيراطاً منتظرة من أرباب النظر، زاد إدراكي قنطاراً ينقص ما عندي بالنسبة إلى المحصلين، وبخس قيمته إزاء جواهر المقتنين، واتّسع أفق النظر حتى ما أرى تلك الحجب والحدود التي غطّت عليّ في سابقي زمني، وارتفعت أمامي فيما مضى من عمري، ولذلك تراني إذا خاطبني غيري، سهل عليّ خطابه واتسعت أذني لكلامهن، وعذره عندي موقفي مثله فيما سبق، وإدراكه فيما سيأتي ما أدركت، وهي الحقيقة التي نطق بها سيد الخلق بقول الحق: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦).

وفي مثل هذا المعنى يقول الشعبي: العلم ثلاثة أشبار، فمن نال منه شبراً شمخ أنفه وظنّ أنه ناله، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه لم ينله، وأمّا الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبداً. وحكى الماوردي أنه ألّف كتاباً في البيع أعجب به وتصور أنه اضطلع بعلمه، فجاءه أعرابيان يسألانه فلم يجد لهما جواباً وأجابهما تلميذ من حلقته فكان هذا واعظه علمه ألّا نُزهي[١].

ولما كان الإخلاص رائد من كتبنا فيهم من العلماء، والقصد السليم غاية ذوي الأخلاق منهم، والعلم من طبعه سليم لا يعرف النقص، صافٍ لا يخالطه

---

(١) منذ سنين والمؤلف ينشر مقالات في صدور الأهرام توقيعها «أبو التلاميذ وعبد العليم» عالجتُ هذا الموضوع المهم ودخلت عليه من جميع أقطاره واستوى الرأي فيها للكاتب بما ظهر هذه الأيام في تقرير وزير المعارف الذي نشره أخيراً عن التعليم في المدارس الثانوية وأكثره وفق رأينا وإجابة ما سألنا، وهو تقرير جيّد طلب الوزير إلى أهل الذكر تمحيصه ومواتاته بالمشورة فيه وأولى له أن يمحصه العمل فيبدأ في تنفيذه قبل فوات الزمن. وتراجع نبذه ٥٣٧.

كدر، فعلماء الحق لهذا مخلصون بطبعهم، لا يعرفون إلّا الإخلاص ولا يبالون بغيره بالة، فتلك التقاليد والفراريج والأوسمة والأربطة والشارات والاعتبارات والدرجات كلها حواشٍ لا طائل تحتها، وتظاهر قد يجرّ التظاهر ويخفى الكبائر، ويدخل بصاحبها باب التفاخر، ويقعد به، ويقيّده ويحبسه في حدود وعادات، ويربطه بسيور ويلفه في أقماط خلص منها كلها علماء الإخلاص، فلذلك تراهم في بحبوحة الحقّ الذي خلقهم وعلّمهم، وأمر نبيّه أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ فهم يستبيحون طيّبين الاستمتاع بنعم الله، حالين بالزينة التي أخرج الله، مستغنين بطبعهم عن التطبّع، وبجوهرهم عن التصنّع.

٤ ـ كان عبد الملك المشهور بابن جريج المحدّث الذي قال فيه أحمد: إذا قال أخبرنا، وسمعتَ حسبك به، كان يصوم الدهر إلا ثلاثة أيام. وقال الشافعي: استمتع ابن جريج بتسعينَ امرأة[١].

٥ ـ وبكر بن عبد الله المزني التابعي أحد الأعلام الذين أخذوا العلم عن الصحابة وأخذه عنه الخلق الكثير، وكان ثقة ثبتاً مأموناً، قال ابن قتيبة: كان بكر حسن اللباس جدّاً، كانت قيمته كسوته أربعة آلاف درهم، وكان نُطَسَة (نَزَكا) اشترى طيلساناً بأربعمائة درهم فأراد الخياط أن يقطعه وذهب يذرّ تراباً على موضع القطع فكفّه بكر، وأمر بكافور فسحق ثم ذرّ عليه.

٦ ـ ومحمد بن بشير قاضي قضاة الأندلس في القرن الثاني، وبعدله تضرب الأمثال، قاهر نفسه في شهواتها، والحالف على أنه لا يسرّ للولاية ولا يستوحش من العزل، كان يُرى على باب المسجد يوم الجمعة داخلًا وعليه رداء معصفر وفي رجله نعل صرّارة، وله جمّة مفرقة، ثم يقوم فيخطب ويصلّي وهو في هذا الزيّ. وكان يجلس للقضاء بين الناس فإن رام أحد من دينه شيئاً وجده أبعد من الثريا. جاءه رجل لا يعرفه فلمّا رأى ما هو فيه من زيّ الحداثة من الجمّة المفرقة والرداء المعصفر وظهور الكحل والسواك وأثر الحناء في يديه

(١) أبو بكر أحمد الخلاّل، الحث على التجارة والصناعة والعمل، ص ١١ ـ ٣٤.

توقّف وقال: دلّوني على القاضي، فقيل له هاهو ذا وأشير إليه فقال: إنّي رجل غريب وأراكم تستهزئون بي، أنا أسألكم عن القاضي وأنتم تدلّوني على زامر، فصحّحوا له أن القاضي، فتقدم إليه واعتذر، فأدناه وتحدّث معه، فوجد عنده من العدل والإنصاف فوق ما ظنّه فكان يحدّث بقصّته، هذا القاضي الذي حسبه الغريب زامراً، تقدم له الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل وهو صاحب الأندلس وهو مُولّيه، تقدم له بشهادة لعمّه بعد إلحاح من عمه فيها، وقد أحضر الحكم فقيهين وكتبها أمامهما، وأشهدهما عليها، فأخذها العمّ فردّها القاضي، واستشاط العمّ غضباً، ورجع إلى الحكم ينعي عليه سلطانه ويحرضه على الإيقاع به، فقال له الحكم: وهل شككتُ أنا يا عمّ في هذا؟ إن القاضي رجل صالح لا تأخذه في الله لومة لائم، فعل ما يجب عليه، وسدّ دونه باباً كان يصعب عليه الدخول منه، فأحسن الله تعالى جزاءه، فغضب العمّ، قال الحكم: إني قضيتُ الذي يجب لك عليّ (وهو الشهادة) ولست أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه، ولا أخون المسلمين في قبض يد مثله، وقد تبرّع عاتب بسؤال القاضي في هذا، فقال لمن عاتبه: يا عاجز أما تعلم أنه لا بدّ من الإعذار في الشهادات (ليلاحظ عليها المشهود عليه ويطعن في الشاهد إن كان له طعن أو دفع) فمن كان يجترىء على الدفع في شهادة الأمير لو قبلتها؟ ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه. وفي قصّة أخرى أنه حكم علي (ابن فطيس) الوزير ولم يعرّفه بالشهود فرفع الوزير ذلك إلى الحكم متظلماً، فأومأ الحكم إليه، فكتب القاضي له: ليس ابن فطيس ممّن يعرّف بمن شهد عليه، لأنه إن لم يجد سبيلاً إلى تجريحهم، لم يتحرّج عن طلب أذاهم في أنفسهم وأموالهم، فيدعون الشهادة هم ومن ائتسي بهم، وتضيع أموال الناس، إلى أمثال هذه القصص مما كان الحكم يراهن عليه خواصّه أن قاضي الأندلس لا تأخذه في الحق لائمة ويصدق الحكم ولا تكون ثياب القاضي بناظرة شيئاً إلى عدله، ولا للظاهر المزّيف تأثير في دينه وصحة نظره.

ولقد عوتب ابن بشير هذا في إرسال لمّته وفي لبسه الخز والمعصفر فقال، حدّثني مالك بن أنس أن محمد بن المنكدر وكان سيّد القرّاء كانت له

لمة، وأن هشام بن عروة فقيه المدينة كان يلبس المعصفر، وأن القاسم بن محمد كان يلبس الخزّ.

وكان الإمام مالك يلبس الثياب العدنية الجياد، ويكره حلق الشارب ويعيبه ويراه من المثلة، ولا يغيّر شيبه.

٧ ـ وأيوب السختياني الناسك الذي يضرب المثل بنسكه، كان يحلق شعره في كل سنة مرّة، فإذا طال فوقه فرقه، قال حمّاد بن زيد: وكان قميص أيوب يشمّ الأرض، هروي جيّد، وله شعر وارد، وشارب واف، وطيلسان كردي جيّد، وقلنسوة متركة، لو استسقاكم على النسك شربة من ماء ما سقيتموه. وهو أيوب الذي كان يستسقي به الغمام.

٨ ـ وداود الطائي العالم العارف الذي تعبّد وجلس في بيته عشرين سنة، وترك الكلام حتى قيل له «الأصمّ» يقول الفضل بن دكين: كنت إذا رأيت داود، رأيت رجلًا لا يشبه القرّاء، عليه قلنسوة سوداء طويلة مما يلبس التجار.

إلى أمثال كثيرة ترى الثياب فيها غير منظور لها نظر المقصّرين اليوم، فقد تكون كما رأيت ذات قيمة وبهاء، وقد تكون أخلاقاً يدخل بها النضر بن شميل على المأمون في مرو، وعذره حرّ مرو. فالثوب هو الثوب، قال ابن قتيبة: كان عبد الله العنبري خيّراً فاضلًا، رآه عثمان في دهليزه فرأى شيخاً ثَطًّا (قليل شعر اللحية) أشعى (منتفش الشعر) في عباءة، فأنكر مكانه ولم يعرفه، فقال يا أعرابي أين ربك؟ فقال بالمرصاد. ومن جواب العنبري، بان فضل اللابس على الملابس.

٩ ـ وفي ترجمة الإمام الغزالي لمّا تجرّد عن الدنيا وراض نفسه على الحقائق، ورفض وراء ظهره كلّ مظهر، أنّه دخل دمشق في زيّ العامّة وجلس على باب «الخانقاه السميساطيّة» إلى أن أذن له فقير مجهول فابتدأ يكنس ميضأة الخانقاه ويخدمها، فاتّفق أن جلس يوماً في صحن الجامع الأموي وجماعة من المفتين يتمشون فيه، وإذا بقروي جاء يستفتيهم، فلم يرّدوا عليه جواباً، والغزالي يتأمّل، فلما رأى ألا جواب له عند أحدهم وعزّ عليه أن يضيع دعاه

وأفتاه، فأخذ القروي يستهزىء به ويقول: إذا كان المفتون ما أجابوني، فكيف يجيب فقير عاميّ؟ كلّ ذلك والمفتون يرون ويسمعون، فلمّا فرغ الغزالي من كلامه مع القروي، دعوا القروي وسألوه عمّا حدّثه به العامّي، فشرحه لهم فسعوا إليه، وتعرّفوا به، وسألوه أن يعقد لهم مجلساً فوعدهم يوماً وسافر من ليلته هرباً. ثم غادر دمشق كلها في جولانه بالأرض إذ دخل إحدى المدارس فيها فسمع المدرّس يقول: قال الغزالي، ويدرس من كلامه، فخشي الأستاذ أن يعود لنفسه العجب، وتابع الجولان. فهذا الغزاليّ في زيّ العاميّ الفقير هو الغزالي العالم الذي تشدّ إليه الرحال، لم يحجب زيّه علمه، ولا منع المفتين الرافلين أن يسألوه فيضاً من بحره، ولم ينسخ تجرّده من المظاهر علمه وقد حوته الدفاتر، فهو إذ يسمع بأذنيه العلماء يقولون قال الغزالي، يخاف على نفسه وقد تسامت إلى شرف الإخلاص، أن يدخل عليها هامس ممّا يدب في زواياها فيعقد لها شراكاً يكاد لا يسلم منه ابن آدم، فطوبى للمخلصين[1].

وهنا رواية تريك ما يفعل الإخلاص بصاحبه، ويصفّي جوهر نفسه، ويسمر أهداب عينه في قرارة جلجانه، روى رجاء حَيْوة: العالم الضخم الوجيه، النافذ الكاملة عند بني أميّة لصلاحه وتقواه وفضله ونبله، وكان يجالس الخليفة عمر بن عبد العزيز، روى أنه بات ليلة عنده فهمّ السراج أن يخمد فقام إليه ليصلحه، فأقسم عليه عمر ليقعدن، وقام هو فأصلحه قال، فقلت له: تقوم أنت يا أمير المؤمنين؟ فقال: قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر. قال وأمرني عمر بن عبد العزيز أن اشترى له ثوباً بستّة دراهم، فأتيته به، فجسّه وقال: هو على ما أحبّ، لولا أنّ فيه لينا، قال: فبكيت، قال: فما يبكيك؟ قال أتيتك وأنت أمير بثوب بستمائة درهم فجسسته وقلت: هو على ما أحبّ لولا أنّ فيه خشونة، وأتيتك وأنت أمير المؤمنين بثوب بستّة دراهم فجسسته وقلت: هو على ما أحبّ لولا أنّ فيه لينا! فقال يا رجاء: إنّ لي نفساً توّاقة، تاقت إلى فاطمة ابنة عبد الملك فتزوّجتها، وتاقت إلى الإمارة فولّيتها، وتاقت إلى الخلافة

(١) انظر: القاموس، مادة ب ز ر.

فأدركتها، وقد تاقت إلى الجنّة فأرجو أن أدركها إن شاء عزّ وجل، وقال رجاء: قوّمت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطب، باثني عشر درهماً، وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفّين وقلنسوة:.

١٠ ـ كذلك رأينا منهم من يمتع بالسماع ويشنّف أذنه للصوت وقلبه عالق مشدود بملاوي الإيمان، قدم عكرمة مولى ابن عباس إلى البصرة فاجتمع إليه علماء الحديث فبينما هو يحدثهم سمع صوت غناء فقال: اسكتوا فنسمع، ثم قال: قاتله الله لقد أجاد (أو ما أجود ما غنّى)، فهذا عكرمة يقطع الحديث ويتسمّع ويستسمع أصحابه، وهنا ظاهرة صريحة، لم ينكر أحد على عكرمة، وفي اليوم الثاني عاد بعضهم إليه وتخلّف بعض تبعاً لانتهاج كل وجهته، وكان ممن عاد أيوب السختياني، ويقول يزيد بن هارون راوي الخبر: قد أحسن أيوب، ولتعلم قيمة هذا الاستحسان نريك قيمة يزيد بن هارون هذا المستحسن، فهو أحد الأعلام المشهورين من تابعي التابعين أخذ عنه علماء الحديث ومنهم الإمام أحمد بن حنبل وفيه يقول، كان حافظاً متقناً، وقال أبو حاتم: إمام لا يسأل عن مثله، وقال يحيى بن أبي طالب: اجتمع في مجلسه سبعون ألف رجل، وأظن في هذا التعريف كفاية.

وأبو مروان التيمي ابن الماجشون العالم ابن العالم الذي كان يذاكر الشافعي فلا يعرف الناس كثيراً مما يقولان لتعاليهما بالفصاحة عليهم، الشافعي تأدب بهذيل في البادية، وابن الماجشون تأدب في خؤولته من كلب بالبادية أيضاً، والفصيح الذي يضرب به المثل حتى سئل أحمد بن المعدل الناثر الفحل فقيل له أين لسانك من لسان أستاذك عبد الملك بن الماجشون؟ فقال كان لسان عبد الملك إذا تحايا، أحيى من لساني إذا تحايا، المحدّث العالم الذي دارت عليه الفتيا في زمنه، كان مولعاً الغناء، ويقول ابن حنبل إنه قدم عليهم بغداد ومعه من يغنيه[1].

(١) أبو بكر أحمد الخلاّل، الحث على التجارة. . .، ص ٣٠.

١١ ـ والكمال بن الهمام شيخ الحنفية وقد بلغ مرتبة الاجتهاد، يقول السيوطي عنه: إنه كان علّامة في الموسيقى(١).

١٢ ـ وننقل هنا طرفة أتحفنا بها صاحب تاريخ بغداد عن عالم محدّث فحل من شيوخ المدينة نزل بغداد في القرن الثاني فلاقاه علماؤها بما يليق بمثله جلالة وغزارة علم حتى يروى البخاري عنه أن عنده سبعة عشر ألف حديث في الأحكام سوى المغازي، وتولّى فيها بيت المال وكان أبوه من قبله على قضاء المدينة وكلاهما ممن يسأل عنه في الحدث، ذاك هو إبراهيم بن سعد إبراهيم الزهري، قال الحافظ أبو بكر الخطيب: قدم إبراهيم بن سعد الزهري العراق سنة أربع وثمانين ومائة، فأكرمه الرشيد وأظهر برّه، وسئل عن الغناء فأفتى بتحليله، وأتاه بعض أصحاب الحديث ليسمع منه أحاديث شيخه الزهري فسمعه يتغنّى، فقال: لقد كنت حريصاً على أن أسمع منك، فأنا الآن فلا سمعت منك حديثاً أبداً، فقال إذاً لا أفقد إلّا شخصك، عليّ وعليّ إن حدّثتُ ببغداد ما أقمت حديثاً حتى أغنّى قبله، وشاعت هذه عنه ببغداد، فبلغت الرشيد فدعا به، فسأله عن حديث المخزوميّة التي قطعها النبي ﷺ في سرقة الحلي فدعا بعود، فقال الرشيد: أعود المجمر؟ قال: لا، ولكن عود الطرب، فتبسّم ففهمها إبراهيم بن سعد، فقال: لعله بلغك يا أمير المؤمنين حديث السفيه الذي آذاني بالأمس وألجأني إلى أن حلفت؟ قال، نعم، ودعا له الرشيد بعود، فغنّاه:

يا أم طلحة إن البين قد أفِدا ... قلّ الثواء لئن كان الرحيل غدا

فقال الرشيد: من كان من فقهائكم يكره السماع؟ قال: من ربطه الله، قال: فهل بلغك عن مالك بن أنس في هذا شيء؟ قال: لا، والله إلا أن أبي أخبرني أنهم اجتمعوا في مدعاة كانت في بني يربوع، وهم يومئذ جلّة ومالك أقلهم من فقهه وقدره، ومعهم دفوف ومعازف وعيدان يغنون ويلعبون، ومع مالك دفّ مربع، وهو يغنّيهم:

سليمى أجمعت بينا ... فأين لقاؤها أينا

---

(١) الشيخ شمس الدين البساطي، السّرّ الصفي في مناقب الحنفي، ج ٢، ص ٢٢.

وقـــد قـــالـــت لأتـــراب لـــهـــا الـــزهـــر، تـــلاقـــيـــنـــا
تـــعـــالـــيـــن فـــقـــد طـــاب لـــنـــا الـــعـــيـــش تـــعـــالـــيـــنـــا

فضحك الرشيد ووصله بمال عظيم[1].

١٣ ـ وهناك ملح في منتهى الطرافة رواها مؤرّخون العلماء عن جمع منهم كان يمزح ويحب المزاح، منهم أبو العالية. والشعبي، والأعمش، والنخعي، وشريح القاضي الأشهر، انساقوا فيه إلى طبائعهم الطّيبة انسياق الأدب مع الترويح مما تجري به البشرية في مجاري الطيب الحلال، ويدفع عنهم السأم والكلال، كما روينا عن شيخنا سيد بن علي المرصفي في الدرس قصيدة مطلعها هذا البيت.

لا بـد لـلـجـدّ مـن هـزل تـجـذ بـه تلك النفوس التي من طبعها الملل

١٤ ـ كذلك معاملاتهم اطردت مع اليسر والسهولة حيث يكون الحال، فهذا شقيق بن سلمة الأسدي من سادة التابعين، تعلّم القراءات في سنتين، وقال عاصم بن بهدلة: ما سمعته يسبّ إنساناً، وقال يحيى بن معين ثقة لا يسأل عن مثله، صاحب الحصن يكون فيه هو وفرسه، فإذا الغزو نقضه وهبّ لغزوه وإذا رجع أعاده. هذا الكامل المكمّل كانت أمّه نصرانيّة.

١٥ ـ والحسن البصري يكون في المسجد يجيئه الناس للفتوى فيسبقه الفرزدق الشاعر بجوابه في المسألة من شعره والحسن يستمعه ولا يجبهه. قال أبو بكر الهذلي: إنّا لجلوس عند الحسن إذ جاء الفرزدق يتخطّى حتى جلس إلى جانبه، فجاء رجل فقال يا أبا سعيد: يقول الرجل: لا، والله في كلامه لا يريد اليمين، فقال الفرزدق أو ما سمعت ما قلت في ذلك؟ قال الحسن: ما كلّ ما قلت سمعوا: فما قلت؟ قال قلت:

ولـسـت بـمـأخـوذ بـلـغـو تـقـولـه إذا لـم تـعـمّـد عـاقـدات الـعـزائـم

ثم لم ينشب أن جاء رجل آخر، فقال يا أبا سعيد: تكون في هذه المغازي فنصيب المرأة لها زوج، أفيحلّ غشاينها ولم يطلّقها زوجها فقال

---

(١) الشعبي، أدب الدنيا والدين، ص ٥٧.

الفرزدق، أو ما سمعت ما قلت في ذلك؟ قال الحسن: ما كلّ ما قلت سمعوا فما قلت؟ قال قلت:

وذات حيل أنكحتها رماحنا حلال لمن يبني بها لم تطلق(١)

١٦ ـ وبُسر بن سعيد العالم الزاهد المتحنّث، رافق الفرزدق في الحج، وركبا في محمل واحد ركبة تحدّث بها الناس عجباً، وطار بها الفرزدق فرحاً، وكان سعيد يقول: ما رأيت رفيقاً خيراً من الفرزدق، ويقول الفرزدق مثل ذلك.

إلى أمثال هذه الشواهد مما يطول شرحه ويعي ذكره درج العلماء فيها على سجيّتهم، ولم يروها قادح في إخلاصهم، فلم يحفلوا بما عداه ولم يجعلوا له تلك القيمة التي يعلقها أرباب الظاهر على المظاهر، ويتمسّك بها عبّاد الظهور، وقد جعلوا زادهم فيه فتيل القشور وإن ضاع اللب وغاب اللباب، فهمّهم في العين لا القلب ترمش هي ولا يبالون أن يطمس هو، وإن كان عليه الحساب وبه المرجع والمآب.

ولا أنتقل من هنا حتى أنقل للقارىء كتابين حول هذا المعنى، تداولهما فحلان من شيوخ العلماء، يدور نظرهما حول الحلال والاستمتاع به، أحدهما يرى أن يؤدّب نفسه بخشونته، والثاني يرى في قرنه باستغفار ربّه ما يجبر نعومته، وكلا النظرين ينصبّ حول الإخلاص ويرومه ويريده، وهو غاية النظرين وقبلة الرجلين ـ كتب يحيى بن يزيد النوفلي إلى الإمام مالك رضي الله عنهما يقول:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم ـ وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين من يحيى بن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس «أما بعد» فقد بلغني أنّك تلبس الدقاق، وتأكل الرقاق، وتجلس على الوطىء، وتجعل على بابك حاجباً، وقد جلست مجلس العلم، وقد ضربت إليك المطيّ وارتحل الناس، واتخذوك إماماً ورضوا بقولك، فاتّق الله يا مالك وعليك بالتواضع. كتبت إليك بالنصيحة منّي كتباً ما اطّلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام» ـ فكتب إليه مالك يقول:

(١) تذكرة الحفاظ، ج ٢، ص ١٦٢.

«بسم الله الرحمٰن الرحيم - وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد، سلام الله عليك «أما بعد» فقد وصل إليّ كتابك فوقع منّي موقع النصيحة والشفقة والأدب، أمتعك الله بالتقوى، وجزاك بالنصيحة خيراً، وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فأمّا ما ذكرت لي أني آكل الرقاق وألبس الدقاق، وأحتجب وأجلس على الوطيء، فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ وإني لأعلم أنّ ترك ذلك خير من الدخول فيه، ولا تدعْنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام».

وقد علق الإمام الغزالي في «الإحياء» على كتاب مالك بقوله: فانظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه، وأفتى بأنه مباح، وقد صدق فيهما جميعاً، ثم علل اعتراف مالك بالنصيحة بأنّه ممّا يقوّي نفسه على الوقوف على حدود المباح، حتى لا يحمله ما هو فيه على المراءآة والمداهنة والتجاوز إلى المكروه لأنه متمكّن في نفسه من الإنصاف، وخشي على غيره ممّن لا يقدر على ضبط نفسه أن يحمله التنعم بالمباح على الوقوع في الخطر، إذا كان ممّن لا يخاف ولا يخشى، قال: لأن خاصيّة علماء الله الخشية، وخاصيّة الخشية التباعد من مظانّ الخطر(١).

وإني أعلّق على هذا بلفت القارىء إلى هذا الأدب العالي بين أسلافنا العلماء، فهم في آرائهم أحرار يتبادلونها، وقد التزم كل منهم حدّه وأخلص لله ولأخيه نيته، فالناصح يُسِرُّ بنصيحته، ويطمئن من كتب إليه على حفظه، والمنصوح يتقبّل النصيحة بقبول حسن، ويدلي بحجته في عمله مع الأنصاف للكاتب، والغزالي بينهما، ونزعته صوفية يميل إلى الاخشيشان والانقباض عن

(١) طبقات الشافعية، ج ٤، ص ١٠٥.

بحبوحة الحلال، مع هذا يقيم ميزان النصفة بين الرأيين ووجّه في أدب جم نصّ الوجهتين، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

فالمطلب أمام هؤلاء الثلاثة الأعلام، وهم علماء الظاهر والباطن، هو الخشية الداعية إلى الإخلاص، والحاملة على قصد السبيل، ونصفة الاعتدال، واعتماد اللباب دون القشور، وألّا يغفل عن ذكر الله أيّان يكون من منازل الحلال ومتع المباح، وهذا هو الغرض الأول والآخر من العلم والتعلّم، وللوصول إلى هذا القصد حمل السلف طلبته على إدراكه، ورأوا من وسائل ذلك تركهم الخِيَرة لهم في انتهاج السبل، وهمُّهم منهم كان الغاية لا الوسيلة، وأدبهم معهم أدب النفس قبل أدب الطرس، فكانت الحريّة في العلم وطلبته واسعة المناحي متنوّعة المرامي، وعملُ الشيخ أن يأخذ بيد الطالب فيضع رجله على السلّم، فإن صلح للصعود علا، أو خاب سقط وهوى، وهذا الوضع لم يك مضبوطاً ولا معلّماً بل لكل طريقته ووسيلته، وقد مرّ بك أنّ الأندلس لم تكن بها مدارس وأنّ العلم كان في الجوامع، وكذلك الحال في الشرق إلى أن بنيت فيه المدارس بعد قرون، وهي لم تك تفرق عن المساجد إلّا بانحيازها عن أمكنة العبادة واختصاصها بطلبة العلم، والعمل على تفرّغهم للعلم، وبقي في جوارها الدور والمجالس يغشاها الطلاب ويقعد بها العلماء وهم كانوا دوّارين متنقلين يستفيدون ويفيدون، أشبه بتيّار الكهرباء يجري على الأسلاك ويملؤها نوراً، فأينما أدار المرء مقبض السلك أضاء، في الشارع والدار والحديقة، وهي شنشنة قديمة توزّع بها الحكماء على طبائعهم ومرامي أنظارهم، ففي قديم الزمان كان أفلاطون إذا حضره أصحابه للتعلم قام على رجليه وألقى عليهم الدروس من العلم، وهو يمشي حول البساتين فيأخذون عنه ما يلقيه عليهم وهم عن تلك الحال، فسمّوا المشّائين بذلك، وهذه الفرقة الشائعة الذكر يقابلها فرقة الرواقيّين، وهم شيعة «كرسفس» أصحاب المظلّة، فقد سمّوا بذلك من اسم الموضع الذي كانوا يتعلّمون فيه، وهو رواق الهيكل في معبد أثينا، وانتشرت هاتان الطريقتان بين أهل العلم، وحجّة الأولين أنهم يعلّمون وهم يمشون كيما يرتاض البدن مع النفس، ورأى الثانين للتفرّغ والتخصص، وكلا الطريقتين خير.

وفي زمن الإسلام درج العلماء على رغبات نفوسهم، التي يكون منها رشح العلم وثمر الفائدة، ودرج معهم الطلبة على التبنّي لهم، والقيام بخدمتهم. ففي ترجمة الطبيب (جورجيس بن يختيشوع) أن الخليفة المنصور لما استقدمه إلى بغداد من «جنديسابور» وتمّ علاجه على يده، قال له يوماً: من يخدمك ههنا؟ قال: تلامذتي، فوجّه إليه خوادم فردّهن «ابن القفطي»، وكذلك كان الطلبة كالطير يسقط حيث ينتثر الحبّ، فقد تدخل الجامع فترى حلقة واسعة يضيق بها، وبجوارها حلقة لا ترى بجنبها، من أثر الخِيرة للطلبة يحضرون على من يشاؤون، وفي تاريخ بغداد أن الإمام الشافعي لما دخل بغداد وفي الجامع ما يقرب من خمسين حلقة. فما زال يقعد في حلقة حلقة، يقول لهم: قال الله وقال الرسول، وهم يقولون: قال أصحابنا: حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره[1].

ومن أثر هذه الحريّة تقرأ في كثير من تراجم العلماء أنهم تركوا مذاهبهم التي نشأوا عليها، أو عدلوا آراءهم التي قالوا بها، أو برعوا في فنون علّقوها وكان الظنّ ألّا يكونوا من رجالها. ومن هذا الميدان الفسيح برز السبّاق العظام، وحفل تاريخ العلماء بكواكب كالدراريّ تضيء في سماء الإسلام وتعشى عين كلّ جبّار أشر. وتُري المغرورين بهيأة الغرب الآن أنّها هيأة كانت عندنا إلى زمن قريب، وسنة خططناها وسلكناها وأنتجت نتاج الخير الذي نعيش فيه ونحيا في فخاره إلى أن يأذن الله للغائب أن يؤوب.

هذا الأزهر المعمور كان إلى زمن «والدي» بالصفة التي ذكرتها، مباءة حريّة، القيمة فيه للعلم لا غير، والتباهي فيه بالمعرفة فحسب، وما يزال الطالب يجدّ في طلبه وهو على سليقته وهوى طبيعته يطلب العلم الذي يشاء على الشيخ الذي يريد حتى يحسّ في نفسه أنه استوى، وأنّ له أن يجلس فيعلّم، فيمتحن نفسه في نفسه بشيوخه الذين تلقّى عنهم أو بإخوانه الذين زاملهم، فقد يجيزه الأوّلون ويقرّ له الآخرون، فيجلس إلى أسطوانة بعد أن يعلن عن ذلك،

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٦٠.

ويجتمع له الشيوخ والطلبة ويمتحنونه امتحاناً عاماً علنا، لا شفع له فيه إلا علمه الذي في صدره، ولسانه الذي يبين عنه، ومن ذلك اليوم المشهود يسلك في سلك المدرّسين ويجاز له أن يقعد للتدريس والتلقين، ومنهم من كان يفتن عن نفسه ويجلس قبل أوانه فيلقى من عزّه العلم ذلّا لا ينساه، أو يعود في المرّة الثانية وقد استعدّ واستكمل.

ومن العجب أن طريقة الأزهر تلك التي انصرف عنها، هي التي جاءتنا اليوم من أوروبا، نحسبها حديثة وهي عندنا من القديم، ولكن التقليد كما يقول: «ابن خلدون» من شأن الضعيف ـ هذه الحرية في الدرس وفي الشيخ وفي الحضور من نظام الجامعات، وهو نظام الأزهر ـ وهذا الأسلوب الذي يأخذون به الشهادات هو «التعيين» الذي كان عندنا، وقد أدركت امتحان الأزهر للعالية، كان بأن يعطي التلميذ موضوعات في العلوم يذاكرها في أيام محدودة، ويجيء يوم الامتحان يناقشه فيها الممتحنون، وقبل هذه الطريقة كانت الطريقة التي رويتها قبل قانون الشيخ المهدي وهي الطريقة العلنيّة الجامعيّة، ومن لطيف اللغة العربية أن تؤدي الكلمة معنيين فكذلك قولي هنا: «الجامعية» يصحّ أن يكون منسوباً إلى الجامع وإلى الجامعة وكلا المعنيين أردت بل لقد مشى الأزهر على تلك الطريقة «التيز» نفسها ولا تزال رسائل العلماء الذين أجيزوا منه بها تتداول مطبوعة في سوق الورّاقين ـ كذلك تلك الفراريج والشارات التي شنّت الغارة فيها زماناً على مرتديها من الأزهريين، هي التي نرى طلبة الجامعة وأستاذيها يرتدونها ويتمازون بها، ولا ضير أن يكون قماشها أو زيّها على نمط جديد فالإشارة واحدة ـ وهذا التخصيص والتفرغ للعلم الواحد أو الفنّ الواحد، كذلك كان الحال في أزهرنا المعمور الذي أخرج الفحول وعلّم الوادي، فلما التبس النظر على ذوي النظر أغفلوا هذا النظام المستوي واستبدلوا به نظاماً لما ينضج فارتحل حمام المسجد من الأزهر إلى وادٍ غير ذي زرع أو به زرع عزّ ظلّه، ولكن لا حبّ فيه ولا ثمر، وحسب الناس أن هذه الزخارف من الكراسي والكرّاسات وكشف الحضور وكشف الغياب وتسمية العلوم ووسم الطلاب تغني من العلم شيئاً، وتبني من الهباء بيتاً، وتصوغ الطالب الفارغ صوغ العالم النافع

فكانت النتائج تابعة للمقدمات ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

لقد ذرّ قرن الألف في رأس الأزهر، واشتعل بهامته شيب التجارب، وقد جلّت حتى تكاد ترى تحت كل شعرة منها تجربة، بقي الأصلح منها فيه فاستقام به وقام له، وانقضت حقب على جدرانه وهو راسي القواعد مستطيل الأعالي، فسايرته ستُ دول وسايرها سير الهادي بهداية الخرّيت، وسجّل التاريخ له مننأ علقت بأعناق الأجيال من أبناء القرون العشرة، فاليوم لا نرى معهداً في الدنيا له فخار الأزهر أو مجد الأزهر، ومنّة الأزهر، إلى ما قبل الاحتلال، وهو ذلك الطود الأشم الذي ينشد له مهيار في أهله بصدق:

قومي استولوا على الدهر فتى ... ومشوا فوق رؤوس الحقب

سمع هذه الكلمة تقال وتردّد، وتلتّ وتعجن، كلمة «إصلاح الأزهر» و«النهضة بالأزهر» إلخ كأنما كان هذا الجامع النافع في ألف سنة إلا خمسين عاماً، يعوزه في الخمسين الباقية ما فاته في ألف إلا خمسين، ولا أغاني إن قالت أن التجنّي بلغ عليه حتى كاد يراد بهذا الشيخ الأشمط أن يصفّف شعره ويزجّج حواجبه ويمنطق خاصرته، غاشية سكّرت العيون من فتنة المدنية الواغلة، فأخذوا يفصّلون للأزهر ثياباً وتفاصيل، ويعدّون له صوراً وتهاويل، ويبرقشون ويزخرفون، ما يخشى أن يكون القصد منه طمسه، أو الغرض فيه نقضه، ولكن الله غالب على أمره، والذي حفظه ألفاً يحفظه ألفين، عصمة لدينه ووقاية لشرعه وهداية لعباده، ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره، فقد بدا شعاع الأمل يشعّ، وريح الفرج يهبّ، ورأى أبناء الحداثة لما انكشفت لهم الغاشية، أن هذه الإصلاح المنشود له، كان فيه وبه، وأن طريقته التي سار عليها هي طريق من جاء بها، وقد ظنّها طريفة فإذا بها تليدة، واستعظم في رفده تمره، فإذا به ينقله إلى «هجر»، ولو جمع ما كتب في أصلاح الأزهر، لملأ مجلدات تملأ صحنه، لو كان ما فيها كلّه صدق لقضى بحقّ على ألف جامع وجامعة، ولكنّه كلام كان معناه في بطن القائل، وكلامٌ أكثره كان لغير وجه الله، فردّه الله على مكثره، ويوشك الزبد أن يجفأ ويبقى ما ينفع الناس، فجلال هذا الجامع أولى به حفظه، وأفضل له رعايته، وأن يبقى في المسلمين بقيّة ما ترك آل محمد،

تحمله الملائكة وقد حفظته أرواح الأطهار الأبرار، الذين ورثناه عنهم في بينانه، وتقضي الأمانة أن يبقى على ميراثه في عنوانه، وإن شئنا له زدنا رعاية لا تبديلًا، ووقاية لا تغييراً، فالأزهر إنما هو أزهر بطريقته، وأزهر بهدايته، وأزهر بمكانته، فلا على المصلح أن يستبدل ببلاطه خشب الأبنوس، ويحصره بسط الديباج، وبخزائنه العود والصندل، ثم لا عليه أن يفيض على بنيه ما آتاه الله، وعلى علومه ما هدى الله، ويبقى البيت بذلك معموراً، وبالمسجد نوراً، وقدهم من كان قبلنا في زمن قريب هذه الهمّة فبدأها ولم يتمّها، وكان أن رعى له حرمته فاسترقد من أغصانه المتهدلة فروعاً نماها، وصنع فيها ما أراده بحكم الزمن فبقي الأزهر لذلك عالياً فوق حكم الزمن يطلّ على بني الدنيا بوجهه الأبيض باقياً على الأبد، ونحن ننشد في جنباته نشيد الافتخار به، واعتزاز بجانبه، صائحين بقول شاعر الحماسة:

لنا جبل يحتلُّه من نُجيره منيعٌ يردُّ الطرف وهو كليل

أمّا التلعب بابن الألف، والهدجان حول هذا الصرح، نبغي له الجلاجل والخلاخل، ونريد منه ما يراد من الأحداث والعيايل، ونرومه على أن يطأطىء رأسه العالي، لنقلد عنقه قلائد الزخرف والبهرجة وأطواق الصنعة والتعمّل، فقد سبق لشيخنا المرحوم الشيخ حسونة النواوي أن صرخ في مريدي ذلك بكلمته المدوّية حين رأوا أنّ من إصلاحه تسمية الجامع بالجامعة، قال الشيخ: إنّ الجامع مذكّر والجامعة مؤنّثة أفمن الإصلاح هذا التأنيث؟؟ وهذا قول يغني عن التعليق، وسيظل الأزهر على عظمه وضخامته، كلما جيء له بما يسمّى إصلاحاً لا يلائمه، وهو أبو الإصلاح الطبيعي، ينشد قول جرير:

وابن اللبون إذا ما لزّ في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

ولا يحسب القارىء أنّي جامد أو عدوّ للإصلاح، لا ولكن أقول إنّ هذا الأزهر كائن حيّ، حياته قويّة وعمره ومديد، وقد ثبتت قوّة حياته ببقائه طوال هذا العمر، وهو في أطواره كلّها يحيا بقوّة التطوّر، فقدرته التي تصلحه يجب أن تكون منه لا وافدة عليه، نتيجة إحساس داخلي لا فيضاً من أثر خارجي، وهو بإصلاحه هذا النفسي، يتطوّر إلى ما ينبغي، وينشىء ما يحفظه وببقية شأن

الكائنات الحيّة، فإن إفرازها الذي يحفظها نابع من غدد مخلوقة فيها، وإنّما يضمن البقاء باستمرار الغذاء، فيجب أن يغذّي الأزهر بما من شأنه أن يتغذّى به، ثم هو بطبعه وقوّته وبوظيفته يعمل على البقاء وعلى بقاء الأصلح، وإنّ مؤسسة لها ألف سنة ضربت جذورها في أساس الحياة القومية ليست كالمؤسسات الحديثات، التي تحوطها النظرة العجلاء، وتحتوشها اليد القابضة، بل في هذا المعهد قُوى هائلة وكثيرة، ظاهرة وخافية، لها عوامل متعددة تعمل له وتضمن بقاءه، والخير كل الخير في التباعد عن وضع العقبات لها، وأقامة الحواجز في طريقها، وإنّما تُلامس ملامسة الحكمة، وتواتي على بصيرة يراعى فيها طبيعة ما يزاد مزجه، وحاصيّة ما يرى إدخاله، مراعاة دقيقة تدرس فيها خواصّ العناصر متفرقة، وخواصّها بعد مزجها من حتى تعرف النتيجة من المقدّمة ويدرك الشيء قبل وقوعه، ويكون من خطا للغاية قد قدرّ لرجله قبل الخطو موضعها وعرف لسيره قبل المشي طريقه، إذ ذاك يطّرد السير، وتضمن ثمرة الأزهر التي أسس من أجلها، وحفظ لنوالها، وسيبقى إن شاء الله مؤاتياً أكله كل حين بأذن ربّه - وأني أروي هنا عن المرحوم الشيخ علي يوسف، وقد سمعته يتكلّم في مثل هذا الشأن قال: إنّ السبب في أن ما يوضع للأزهر من إصلاح، لا يثمر فيه، هو أنّ الواضعين له فريقان، فريق يعرف الأزهر ولا يعرف الإصلاح، وفريق يعرف الإصلاح ولا يعرف الأزهر، ومع اجتماعهما فإنّ كلّا من الفريقين لا يعرف أن ينتفع بما عند صاحبه في وضع ما يراد وضعه، فلهذا يجيء الإصلاح على غير المطلوب، وتكون النتيجة على خلاف ما أمّل.

وحدثني كثير ممن طلب العلم في إنجلترا، أنّ بها جامعات قديمة يعنى القوم بالمحافظة عليها ورعاية قديمها في بنائها وفي تقاليدها وفي التزام طريقها حتى لقد رُوِيَ لي أنّ لها أمكنة متهدّمة لا يزيلونها وإنّما يرمّمونها، وأنّ فيها تقاليد من أحكام العصر الأول لم يغيّروها ولا تغيّروا من قيامهم بها، وأنّهم مع هذه المحافظة عليها لا يأبون أن يأخذوا من الجديد ما يلائمها، ويتناولوا من المستحدث ما يشدّ أزرها من غير أن يطغى عليها، فلذلك بقيت بطابعها الأول تحمل فضل القديم من غير أن ننسى ميزة الحديث، وهكذا لكل مؤسسة يراد

لها البقاء والدوام طريق تسلكه، لتؤدي مهمتها في الحياة من غير أن يضطرب عليها السير فضلّ بين الطرق، أو تنتقل إلى حل لا مقام لها به وتضطلع بوظيفة لا تغني فيها أو لها ندّ يقوم بغنائها، فتضيع بين القديم والجديد.

ولقد امتدّت الغاشية فأظلّت معارف الحكومة فهي تدير مدارس الحكومة وأبناء الأمة فيها كما تدير «ماكينة» المصنع آلاته لتخرج أشياءها مصنوعة صنع المدير كما شاءت إرادته، لا كما يشاء العلم ومن أجله أنشئت.

إنّ كل أمّة صالحة من أمم «المدينة الفاضلة» ترسي قواعدها في التعليم على أجوبتها الصحيحة لهذه الأسئلة الثلاثة التي تحصر الفائدة من العلم، ولا فائدة به ومنه إلا بصحة الجواب وكمال الأجوبة.

والأسئلة هي (أولاً) لماذا نتعلم؟ (ثانياً) كيف نتعلّم؟ (ثالثاً) متى نتعلّم؟ ولعلّ القارىء لمح من كتابي أجوبة أسلافنا على أسئلة العلم، وعرف صحتها وأدرك أنّ أمم الحضارة اليوم تسير في تعليمها على مذهبها وأن النتيجة في كلا الفريقين هي ذلك التقدّم الذي تقدّمناه فيما مضى، والرقيّ الذي يشاهد اليوم في فريق تلك الأمم.

وأجوبة أسلافنا على الأسئلة هي عن السؤال الأول ـ نتعلّم لنعمل ـ وعن السؤال الثالث ـ نتعلّم مدى الحياة ـ وعن السؤال الثاني كان جوابهم مع الظروف والحالات في حدود الإرادة والاختبار، وهو ظاهرة من ظواهر اختلاف البيئة والطور، فلكل طور من الزمن كيفيّة، ولكل بيئة صلاحية أو كما يقول مثلهم (لكل شيخ طريقة) ـ والكيفيّة هي أهون الأجوبة ما دامت الغاية محدّدة، وما دام النصر وهو التعلم حاضراً غير محدّد ولا مقيّد.

وقد بقي سؤال رابع لم ندرجه في الأسئلة الأولى، وهو (ماذا نتعلم؟)، إذ أن هذا السؤال متفرّع من السؤال الأول، فإنا إذا علمنا جواب السؤال الأول، وهو أننا نتعلّم لنعمل، كان تعيين ما نتعلّمه متحتماً في العلم الذي نعمل به، أي أنّا إذا نصبنا الغاية التي نسعى لها عبّدنا السبيل الموصلة إليها، فالذين يطلبون سعادة الآخرة يتعلّمون علومها، والذين يطلبون سعادة الدنيا يتلقّون فنونها،

فنحن نتعلّم لنعمل بما نتعلم، أي لنعمل على حصول السعادة التي يبغيها طالب الحياة، وهي الحياة قد يقتصر صاحبها على حياته الدنيا، وقد يمدّها إلى حياته الثانية، فيكون الحاصل من هذا المقصود بالعمل إنما هو العمل والسعادة وهو مطلب العقل الأول، إذ لا يريد عاقل إلا أن يكون سعيداً، فالعلم سواء أكان علم الدنيا أم علم الآخرة غايته العمل به لتحصيل السعادة، فالسعادة هي غاية الغاية، وإن اختصرت فقل: إن الغاية من العلم تحصيل السعادة، ولما كان العلم هو إمام العمل فقد صلح أن نقول: إنا نتعلّم لنعمل، ونتيجة هذا لدى العاقل أن يفهم من العمل، العملَ للسعادة، وقد قصرنا غاية العلم على العمل لأن من يعلم قد يعلم لعمل لا يحصّل السعادة وهو عمل الشر وكثير ما هو، وصح لهذا أن نقول: الغاية الأولى من العلم العمل، ولذلك بقيت الحكمة في توجيه العلم وتوجيه العمل لتحصيل السعادة وما يلقّاها إلّا ذو حظّ عظيم، ولما كان الإسلام يدعو إلى سعادة الدارين، فإن علماءه جعلوا غايته العمل لتنويلها، فمزجوا في العمل الخلق الذين يعبّرون عنه بالورع، أو خشية الله، فالعالم العامل يعمل وهو بعمله يراعي الحصول على هذه السعادة، فيستقيم بعمله لينيله عمله المستقيم مرامه، والعلم عندهم علم عبادات، الغاية منه أداؤها على وجهها، وعلم معاملات الغاية منه السير في الدنيا على وفق أحكامها، وعلوم أخرى يجعلونها فرض كفاية، الغاية منها العمل لإصلاح المجتمع، والعامل بها يكون ناظراً إلى نيل سعادة الدارين أيضاً، وعلوم الدنيا الصرف، القصد منها أن يعمل بها عالمها للعيش في دنياه، ممسكاً بأسباب الحياة ليستعين بها على أن يحصّل سعادة ما يسمّيه علماؤهم بالأخلاق، وهذه الأخلاق سداها ولحمتها الخير الذي يجعله من لا يعتقد الإسلام دينه ويطلبه، وهو في النهاية يلتقي مع غاية الإسلام وإن تعددت الأسماء فالمسمّى في الحقيقة واحد، والملتقي جميعاً في رحاب الحقّ تعالى، الذي وسعت رحمته كل شيء وجعل العلم بفضله مفتاح بابها وجواز الدخول إلى نعيمها، لا إله إلا هو كتب على نفسه الرحمة.

فنحن نتعلم لنعمل، وكل علم لا ينتج العمل فعقيم وأعقم منه العلم الذي لا يؤهل للعمل، ونحن نعمل لنسعد، وكل عمل لا يوصل إلى السعادة فشقاء،

ولذلك قال ﷺ: **«إن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه»** وخلاصة هذا بعبارة عربية مأخوذة من الأحاديث النبوية: أن الغاية من العلم النفع، وقد استعاذ ﷺ بالله (من علم لا ينفع) أي أن الإنسان يتعلم ليكون نافعاً، والنفع هنا مطلق يعم نفع نفسه ونفع المجموع، ويعم نفع الدنيا ونفع الآخرة، فهذا النفع هو الذي نتعلم له، وعلى ريح النفع يجب على ربّان سفينة العلم أن يوجّه دفّتها، وأن يتأكد من ركابها أنهم ما استقلّوها إلا لتوصيلهم إلى برّه، فإن قصّر بهم عن طلبتهم فقد أساءهم، وأساء إلى العلم الذي نصب نفسه لخدمته، والواجب على الربّان بعد هذا أن يكون مقدار النفع الذي يناله طالب العلم موزوناً بمقدار جهده في تحصيله، أي أن يكون لكل مرحلة من مراحل العلم نصيب يحصل عليه الطالب لا يحال به، ولا يماطل فيه، وهذا النصيب يتضاعف بتضاعف جهده حتى يحسّ العامل أنه يجني ثمرة عمله فيزيد ويطّرد في الصعود، وفي هذا تحصيل أكبر نفع لأكبر عدد، مّا يرفع المجتمع على جناحين من حضيض الأرض إلى يافوخ السماء.

وبهذا الميزان الحقيقي، ميزان النفع، يجب أن توزن المعلومات التي تقدّم للمتعلمين ميزاناً محرّراً، منظوراً فيه إلى أسنانهم وبيئاتهم وأطوار زمنهم والظروف المحيطة بهم، وفي هذا كلّه تبين حكمه متولّي أمور العلم الذين أقامهم الله نظّاراً على المتعلمين، كما قد تركت لحكمتهم كيفية التعليم أي كيف ينقل العلم إلى عقل الطالب ليحوزه من أسهل طريق في أقرب زمن، وفي هذا المجال يبين فضل الإنسان على الإنسان وتظهر آية القلم وبه علّم الربّ الأكرم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وبدون هذا فالتعليم مهزلة أو ضياع أو وبال. ومن المدهش أن يكون القصد من العلم بديهياً وهو النفع فلا يتردّد إنسان في أنه يتعلّم لينتفع، وشاع لهذا قولنا: (العلم نافع) حتى اتخذ مثالاً في الدروس على القضايا البديهية ثم يجيء المتحذلقون إن هذه البديهيّة فيضعونها تحت النظر ولا يزالون يلتّون ففيها ويعجنون حتى يحرق الخبز ويطير الرغيف، ونصبح فنرى أنفسنا أمام مشكلة من المشكلات يتعثر في حلّها فريق من الأمم، وصدق الإمام علي كرم الله وجهه حيث يقول: «العلم نقطة كثّرها الجهال».

فالغاشية التي لحقت بالمعارف عندنا عمّت من خلط الأمر على أولي الأمر في آخر الأمر حتى جلّ الخطب وزاد الكرب، فإن الزمن لا يقف والأرحام لا تتوقّف، فطبقات المدارس تتخرّج وتتراكم وهي نبات ذلك النظام الفاسد فلا ريب يعظم الفساد، ولقد كان بُناة هذه المدارس الحديثة ينصبون لها غاية محدودة، وهي إخراج أفراد يدبرون دولاب الحكومة، فلذلك هيأوا من الوسائل على قدر حاجتهم من الغاية، فلما تولى غيرهم في العهد الأخير تركوا الغاية على تحديدها، لم يغيروها ولم يوسّعوها، وانصرفوا إلى الوسائل فأكثروها وزادوها، فبنوا المدارس، وأكثروا من طلّابها، فخرجت طبقاتها أفواجاً يجيئون إلى الغاية فيرونها أضيق من أن ينفسخ بابها لجموعهم، فهم على عتبته عاكفون ولانفراج مصاريعه منتظرون، والمدارس من خلفهم تلقي عليهم طبقات جدد يتكدّس اللاحق بها على السابق حتى استفحل الخطر وعزّ الفرج، وقصار النظر ينسبون هذه المصيبة للعلم والعلم بريء منها، ما جنى ولكن جنى المتصدرون للقيامة عليه والتحدّث في أمر التعليم، إن العلم مجاله في مسعًى معروف بين الصفا والمروة، صفاه الخلُق ومرواه العمل، ولا يمكن للعلم الذي هو علم أن يسعى في غير هذا المحال، والساعي في غيره هو غير العلم الذي يعرفه العلماء، ويتّصف به رب الأرض والسماء باسم عظيم هو «العليم» إذاً فاسلكوا علمنا الحاضر في سلك آخر، ومدارسنا، القائمة سمّوها باسم مخترع، واعذروا متخرجيها إن ضاق الحال بهم، فقد خدعوا وخدع آباؤهم في استدراجهم إلى هذا المصير الذي وقف مِصْر اليوم موقف النعامة بين الأمم، إن قيل لها طيري تباعرت أو شيلي تطايرت، فأبناؤها إن أريدوا على خلق أهل الشرق وآدابهم، قالوا: إنا غربيون فإذا طلب منهم أن يعملوا عمل أهل الغرب ويمشوا على سننه قالوا: إنا شرقيون. . . ؟!

لقد حفي قلمي من سنين وأنا أكتب منذراً بهذا الخطر أدعو قومي أن يتأسوا بأهل الغرب في النظر إلى العلم والقصد من التعلم إن كانوا يعافون أن يقال لهم اقتدوا بآبائكم الشرقيين، فإن أهل الغرب لم يتعيّروا أن يلتمسوا الحكمة أنّى وجدوها، فبنوا مدارسهم ووضعوا لوائحها على قاعدتي العلم

الصحيح وهما الخلق والعمل، بل لقد أدلفت أمة إيطاليا أخيراً إلى ثنية الصفا فألغت اسم «وزارة المعارف» عندها وأسمتها «وزارة التربية» وكذلك الحال عند بقية الأمم، كلها نظر إلى الغاية والوسيلة زلفى لها.

ومن اللطيف أن أرى اليوم في جريدة الأهرام صورة لشيخ ياباني في الثانية والثمانين من عمره يندرج في سلك «جامعة» عندهم وهو من أمّة اليابان التي هي شرقيّة أيضاً، ولكنها أحست فعرفت، فطلبت فأدركت، فأقامت بنهضتها الحجّة على أن من جد وجد، إذ لم تقعد بها شرقياً الجغرافية أن تشرق كأزهى أمم الغرب في سماء الحضارة والمدنية، وهي آية ما أرى، ودعوة العلم إلى الناس كافّة، إذ كان العلم يوقد مصباحه من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربيّة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار.

أفترى الشيخ الياباني عرف في سنّه هذه جواب الحسن البصري فاتّبعه بإحسان؟ فقد سئل الحسن رضي الله عنه عن الرجل له ثمانون سنة أيحسن به أن يطلب العلم؟ قال: إن كان به العيش. وقيل لبعض العلماء: متى يحسن بالمرء أن يتعلّم؟ قال: ما حسنت به الحياة. وقال أحمد بن حنبل: إنّما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر. وقا عبد الله بن بشر الطالقاني: أرجو أن يأتيني أمر الله والمحبرة بين يديّ، ولم يفارقني العلم والمحبرة. وكذلك قال ابن المبارك وقد آخذه قوم وقالوا: إلى متى تسمع؟ قال: إلى الممات، وهذه السنّة هي التي شرعها النبي ﷺ المعلّم الأكرم في قوله: **«لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة»** (رواه الترمذي). قال ابن القيم: فقد جعل النبي ﷺ الهمة في العلم وعدم الشبع منه من لوازم الإيمان وأوصاف المؤمنين. وأخبر أن هذا لا يزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنّة»[1].

فهذه قاعدة إسلامية حدّتها اليوم قوانين المدارس النيّئة، وهي لقوانين التي جعلت من المدارس ثكنات يدخلها الجند المحاربون، فهم يستكشفون عن

(١) الفوائد البهية، ص ١١٨.

الطلبة كشفا طبياً كأنما يساقون إلى الرماية والنزال لا يقبلون إلا نظراً محدّداً وجسماً ممدّداً. والعقل عندهم وهو موضوع المدرسة مهمل من هذا الكشف، وقد جانبوا حكم العقل في هذا، إذ المعقول ألا يبعد المخفوق ولا ضعيف البصر ولا قليل البنية، وإنما يكتفي بأبعاد أرباب العاهات المُعدية، وكذلك هم عن المجامع مبعدون، كما جعلت همّها من العلوم التي تلقّنها لطلبتها، الكلام والنظر، وكان همّهم فيما مضى وهمّ الراقين فيما حضر إنما هو العمل. قال هشام صاحب الدستوائي: «كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليحدّث به، ولا يطلبه ليعمل به؟» ولمّا كان لبّ العمل الورع فإنّهم أدخلوه في التعلّم، قال الضحاك ابن مزاحم: «أدركتهم وما يتعلّم بعضهم من بعض إلّا الورع»، ثم انتقد طريقة الكلام والنظريات فقال: وهم اليوم ما يتعلّمون إلّا الكلام؟، وقال يحيى بن كثير: «العالم من خشيء الله، وخشية الله الورع». وقال الحسن: إن كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وبصره ولسانه ويده، فتراهم في نظرهم إلى العمل، لفّوه في ثوب الخلق، واستقطروا منه خشية الله التي بها قوام الخير لهذا العالم، بل لقد سبق أن روينا عنهم قولهم الذي يقولون فيه: إنّ العالم لا يكون عالماً حتى يرى بالعلم عاملاً، كأنهم يربطون النتيجة بالمقدّمة، ولا يرون للمقدّمة قيمة حتى تحصل لهم النتيجة، وزنْ نتيجة التعليم عندنا بهذا الميزان لترى عمل المتعلمين وخلقهم. . . !

وأعجب معي أن تكون العناية مصروفة للكلام، والتعليم كأنه وقف على النظريّات وتحصيل ما لا يغني من العمل شيئاً، ولا يفيد في الحياة كثيراً، فعندنا في مصر ثلاث كليات اللغة العربيّة: كليّة الأزهر، وكليّة الجامعة، ومدرسة دار العلوم، وفوقها كليّة الحقوق، على حين أن مصر وهي بلد زراعي ليس بها إلّا مدرسة واحدة للزراعة العليا والمدرسة الحربيّة أغلقت بابها فيه ولم تقبل تلميذاً واحداً، وليس عندنا مدارس للصناعات الكيميائية، ولا معاهد لعمل الأسلحة والذخائر وصنع آلات الدفاع، ومدارس الصنائع يتخرّج المتخرّجون فيها وفي رأس كل متخرج منهم فكرة جامحة لكرسيّ في الديوان يتبنّك عليه، حتى دواوين العمل في الحكومة كسكة الحديد لا تحفل أن تمرّن في مصانعها أناساً

من بنينا، أو تعلم من عندها ما تحتاج إليه في إدارتها ليعملوا إذا علموا، بل ارتكن الجميع على أن ينزل لهم الرزق من السماء، أو يجيئهم العمّال من الخارج، فشغلوا عن النافع، إلى أن استقل بالنفع عالِم النافع ـ ولله في خلقه شؤون.

إن القصد من العلم إنما هو النفع، وليس القصد به التجمّل وإن جمال العلم بالعمل به، قال حبيب بن عبيد: تعلّموا العلم وانتفعوا به، ولا تعلّموه لتجملوا به، إنه يوشك إن طال بك العمر أن تتجمل بالعلم كما يتجمّل الرجل بثوبه ـ وهذا لعمري حال أكثر محصلي العلوم اللسانيّة وفيهم يقول ﷺ، من طلب العلم ليجاري به العلماء، ويماري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله النار ـ أما العلم الذي من شأنه أن يكون نافعاً ولو لم ينتفع به صاحبه، فليس هو ما تلقّنه تلك المعاهد الكثيرة وإنما شأن ما تلقنه هو الشقشقة الفارغة، والنظريّات التي لا طائل تحتها، والبحوث التي لا تزيد في الدنيا شيئاً، ولا تساوي في الوزن حبّة خردل، وقد روى جابر أنه سمع النبي ﷺ يقول: اللهم إني أسألك علماً نافعاً، وأعوذ بك من علم لا ينفع، فالنبي ﷺ يسأل العلم النافع ويستعيذ من علم لا ينفع، وهو العلم الذي لا نفع فيه كما يستعيذ به من علم شأنه النفع ثم لا ينتفع به متلقّيه.

وقبل ذلك انظر معي إلى المهيمنين على إدارة التربية والتعليم لتعرف تصريفهم ولتحكم على نظرهم، فترى أنهم يصرفون في الأزهر والجامعة والمعارف تسعة وتسعين جزءاً من مجهودهم في الظُرف، وجزءاً واحداً في المظروف ـ والحكومة تصرف لهؤلاء وهؤلاء بضعة ملايين من الجنيهات في السنة الواحدة، لو أنك عمدت إلى نتيجتهم التي تصرف بها هذه الملايين فقوّمتها في سوق النفع، ما قامت في الحق بعشر معشار ما تشتري به، بل ربما كان إثمها أكبر من نفعها بما ترى من أثرها في بنينا خلقاً وعملاً، بل روحاً وجسداً، فقد بقيت إدارة التعليم عندنا تبغي سيرها عوجاً وتمشي ببنينا مشية العرْضني ذاهبة بهم في طريق الحياة من إفريز إلى إفريز، لا تقيمهم إلى الأمام نصّاً، ولا تدفعهم إلى المستقبل قدماً، بل خلطت أساليبها فيهم حتى لقد رأينا

من زمن قريب أن تقدّم طلبة البكالوريا مرّة للامتحان وهم على ثلاثة نظم مختلفة لكثرة ما نال البرامج من محو وتغير! لهذا نشأ الجيل متأثراً بهذه الطريقة السيئة التي زرعت فيه التردّد والترجحن، وكادت تقلع منه العزم والإقدام فوق ما بها في الأصل من بعد عن الغاية وعوق عن القصد من العلم والتعليم، إذ كان همُّ المدرسة من طلبتها، أن تحشو أمخاخ الأولاد بلفائف من نظريات ومسائل، يقولون إنها علم، وهي في لواقع حشو فارغ، لا نفع في أكثره للتلميذ، حتى لقد حدَّثني أحد وزراء المعارف السابقين نه وقد أخذ ينظر في البرامج، رأى فيما رأى من كتب الجغرافيا التي تدرس في المدارس الثانوية، ذكر الرياح الموسمية وعددها وجهات مهابّها وأوقات هبوبها وهي اثنتا عشرة ريحاً في الدنيا، قال: فسألت من يشرف عليها وكان من مؤلفي الكتاب، فلم يذكرها، وطلبتُ إليه بيان الفائدة التي تعود على التلميذ منها فلم يبينها، وكذلك قل في أكثر ما يدرس، حتى إن وزيراً أسبق استطاع أن يختصر عدد العلوم في المدارس الابتدائية إلى قريب من النصف ويوشك غيره أن يزيدها اختصاراً وأن يهصر العلوم التي فوقها، وهكذا في السنين الأخيرة رأينا مدارس مصر أشبه بحقل للتجارب التي لم تنجح منها للآن واحدة، وسبب هذا في الغالب أن خطتهم إنما هي تخطيط لرسم يقلّب المقلبون فيه خطوطه وأوضاعه قبل أن يعرفوا حقيقة ما رسم له، ولم رسم، أو قبل أن يحدِّدوا المطلب الذي يرسم له، ولأجله يخطط.

ولقد تناول الناظرون موضوع التعليم في مصر بالرأي والاقتراح، ومضوا ومضى ما كتبوا حبراً على ورق، وأخطر من هذا في نظري، أن يكون التعليم في مصر سبباً لشقاء بنيها، فحالة المتعلمين بها لا تسرّ وهي نتيجة ما ذكرنا، ولكن تشقيق الأمة بالتعليم أفدح خطباً وأنكى جرحاً، فإن طريقتهم لا تسير في «التعليم الأول» كما سارت رواقي الأمم، وعندها يكون التعليم واحداً ينشىء الجيل كله نشأة متحدة، يتعلم أفراده سواسية معلومات واحدة على طريقة واحدة فتشقى هذه الأغصان في منابتها بماء واحد من عين واحدة، فإذا انتهت هذه المرحلة، عرج كل فريق إلى ما يبغي، وسلك من طرق ما ينفع، ولكن مصر

ينشأ أبناؤها من صغرهم متفرقين، بعضهم يلزم مدارس التعليم الإلزامي أو الأولي، وبعضهم يلحق برياض الأطفال، ويفترق هؤلاء وهؤلاء من الصغر إلى طريق المدارس الابتدائية أو طريق التعليم الذي يسمونه بالديني. يتشعَّب كل فرع بأهله شعباً وأفناناً فلا تجيء سنّ الحداثة والشباب، حتى ترى أصحابه طرائق قدداً وفرقاً متعدّدة، وهم من قبل لم ينشئوا على أمر جامع، ولا شبّوا على وتيرة واحدة فتراهم من الصغر قد درجوا وبينهم «تفاريق العصا»، فلا عجب أن يشبّوا متفرّقين، ويعيشوا كما قال المرحوم جمال الدين: اتّفق المصريّون على ألّا يتفقوا.

والواجب لمن يرى الخير في العلم، وينبغي الخير بالتعليم، أن يوحّد «التّعليم الأول» لأبناء الأمّة جميعاً، وأن يجعل صقال التربية للنشء الصغار صقالًا واحداً، يصقل به الولد من حيث إنّه ابن الأمّة، لا فرق بين غنيّ وفقير وخفير ووزير، حتى يضمن لنتاج هذه الأمّة وحدة الميل والتفكير، ويحسّ أبناؤها مهما لقوا ولاقوا فيما بعد الطور الأول أنهم جميعاً إخوة، من طينة مشتركة، استوى نباتها في تربته وفي غذائه وكانوا جميعاً في مدرسة العلم، والعلم رحم كما يقولون.

أفيعجبك أن ترى الأرحام قد دفعت فلذات الأكباد إلى رحاب هذا الوادي المصري، فإذا شمّوا نسيه ودرجوا على أديمه، انقسموا إلى ثلاث شيع: بعضهم يذهب إلى المزرع، وبعضهم يذهب إلى المصنع، وبعضهم يذهب إلى المدرسة، ثم من يذهبون إلى المدرسة ينقسمون إلى ثلاث شيع أخرى، بعضهم يتعلّم في المدرسة الإلزامية، وبعضهم يلحق بمدارس التعليم الأولى، وبعضهم يذهب إلى رياض الأطفال؟!! فهذه هي أقسام ستّة هي تفريق لمجموع العناصر المقبلة على تكوين الأمة، لا يلتقي أحد أقسامه بقسيمه في مرحلة من مراحل حياته؟ ويطلبون من بعد ذلك أن يتّحدوا ويتّفقوا؟ وهذا والدستور يلزم أولى الأمر بتعليم الجيل فيتفلّتون من هذا الإلزام الذي قصد به في الوقع توحيد النشأة إلى الأخذ بظاهر لفظه وإطلاق إلزاتمه تفلّتاً يضيع الحكمة من العلم، ويعطل حكم الدستور، وتجني الأمّة من ورائه جنا التفرقة الذي طالما حرقت بنارها،

وغصّت بمرارتها. وإنّه لا علاج لهذا إلّا باتباع ما أراه من وجوب تنشيء، الجيل كلّه على أمر جامع، وإدخال طبقة الصغار قاطبة في المدارس العامة التي أقول بتوحيد التعليم فيها، وأن تقوم بخير التربية لقاصديها.

ولست ألوم ولاة التعليم على ما يبذلونه من جهد في تنظيم المدارس وتأثيثها، وعنايتهم برجالها وقوّامها، فهذا أمر لازم وعمل واجب، إنما لومي أوجّهه لاستغراق هذا العمل مجهودهم، وذهابه بالغالب الأكثر من وقتهم، فما يشغلون به أنفسهم إنما هو ظرف يعدّ ويهيّأ للمظروف الذي أعدّ الولاة والموالي لخدمته. وجعلت هذه الأمور كلها وسائل لإنتاجه والحصول عليه، ألا وهو ـ التعليم ـ فالتعليم هو المخدوم وما عداه الخادم، والنتيجة لهذا أن يكون هو الأولى والأحق بالعناية والنظر وبالجهد والتضحية. ولقد مضت علينا بضعة عشر عاماً رأينا فيها السيد المخدوم يقلّب على جنبيه، وينكس رأسه فيشيل رجليه، ويعتدي على حدوده ومعالمه فيغيرها المعتدي، يزيدها تارة في الطور الأول، ومرّة في المرحلة الثانية، وأخرى في الدرجة العالية، ولوائحه ومناهجه بين يدي نظر المتولّي الواحد، يختلفد عليها نظره باختلاف شخصه محواً وإثباتاً، وتغييراً وتبديلًا، وإدخالًا وإخراجاً، وزيادة ونقصاناً، كأن من يعطي أمر التعليم في مصر واقف له في كتابه الشروط العشرة. إن شاء استعملها أو شاء أهملها؟ وكأنما هذه الملايين من أرباب العقول اللدنة، الذين يعطيهم آباؤهم لمدارسه، كأنما هم عجينة ينكفؤها بيده؟ لم يوضع لهم إلى اليوم نهج ولم تنصب لمستقبلهم راية، ولا عرف الآباء ولا الأبناء إلى أيّ طريق هم مسوقون. والعلم الذي امتنّ الله به على عباده، لم يجعل منزلته بينهم هذه المنزلة التي له في مصر، ولا هو في طبعه تليق له هذه الفوضى ويصحّ فيه ذلك التشويش، فالعقل هو أكرم ما خلق الله، وهو الذي جلّاه لنفسه بعد خلقه، وعرضه على عينه، ثم أقسم أنه لم يخلق أعزّ عليه منه، إذ كان به يأخذ وبه يعطي فهذا الحوْز الكريم، يجب أن يكون العلم الذي يُودع فيه، من الكرامة بهذه المرتبة شكلًا وموضوعاً وعصفاً ولباباً، وإلا نكون قد عملنا على إهدار أغلى جواهر الآدمية، وأعز العناصر الكونية.

كذلك ألوم انقسام ولاة التعليم في مصر، فلكلّ منهم ناحية قائمة، وميزانيّة محدّدة، وهيأة خاصّة، كأنما هم ملوك الطوائف في القرون الوسطى! وهي قسمة، ينال مصر منها بعض ما ألممنا به، وهو ما يشاهده قاطنوها. والواجب أن يكون جميع ولاة التعليم في قصر مجتمعين على أمر واحد، يقتسمون بينهم ذلك التراث الإلهي مسمة فيها الحظّ والمصلحة للمقسوم، أكثر مما يراعى فيها القاسم، فيختصّ كلّ فريق، فمنهم بتعليم الفرع الذي يحسّنه، ويتولّى قسمه خاصة له، لا يدخل عليه قسيمه، فترتفع بذلك الفوضى التي تعمّ مصر اليوم، إذ نرى المعاهد الثلاثة تعلّم كلّها علماً واحداً لطلبة متفرّقين، وكان أولى وأصلح لو تفرّغ كلّ للقسم الذي ينظره حتى يخلص كل قاسم لعمله، فتكثر العلوم بكثرة الأقسام، وتزيد الفائدة من تعدّد أنواع العلوم، ويأخذ التخصيص في كلّ مكان منها حظّه من التمكّن حتى يثمر الثمرة التي جناها أباؤنا عزّاً وعلاء[١] ونجني بذلها حيرة وتردّدا.

ثم يكون لمجلس هؤلاء الولاة النظر المشرف على سير العلم عامة وعلى إنتاجه النفع للمتعلّمين وبالمتعلّمين، ومطالعة أهله بما يزوّده ويكمّله، ويلائم به تطوّر الوقت وحاجة المجتمع، ويحيط نظراً بالمناهج التي تخطّ وبالمعلومات التي تصحّ، وبالمقدار الذي ينبغي إفراغه منها في أمخاخ الطلبة، كل سنّ بالقدر الذي يطيق، وكل فريق بالفنّ الذي يفيد، حتى يكون مجمع الولاة هؤلاء هو منتدى التعليم، وما يراه هو دستوره، ونظره مطلق في جميع الأنحاء، أنحاء العلوم والفنون والمعلمين والمتعلمين - إذاً بهذا يأمن البلد الشطط، ويستقرّ التعليم في قرار مكين، ويضمن الإصلاح اطراده في السير إلى نجعة الفائدة.

أما الذي يجري الآن قائماً هو محاولات يقوم بها بعض ذوي الهمم، ونزعات ينزع إليها نفر من أرباب العزائم والفطن، ولكنها تدور في مدار القديم حول التصليح والترقيع، والفساد قد استشرى في البيت كله، بحيث أصبح لا يفيده تصليح ولا يغني به ترقيع.

---

(١) تاريخ بغداد، ج ٦، ص ٨٤.

والواجب على من قدر من مربدي الخير لمصر وما شاكلها، أن يشيد صرح العلم على أساس واحد قويّ يبعث في النشء الساكنيه روحاً واحداً قوياً هو روح العمل من حيث هو عمل، فإذا رفع فوق الأساس غرفاً وحجرات وشرع له غُرفاً وشرفات، فإن من يجيئها ليتعلم فيها علماً خاصاً لعمل خاص، ينبغي أن يتخرج فيه بروحه الخاصّ غير تارك روحه الأول، بل يجعله كالجذع لفرعه الثاني حتى إذا لم يغنِ الفرع بقي الأصل، فالطبيب المتخرّج في ذلك الصرح إن لم يجد بعد إجازته من يعالجهم، أو لم يسعفه ظرفه بالانتفاع بطبّه فلا يوقعه حاله هذا في ورطة، بل ينبعث بروحه الأصيل إلى تطلّب العمل في جمع جهات العمل، ليعيش وينفع وينتفع، وهذه فضيلة العلم الحق، لا يفتق الحيلة وينير أمام طالبه كلّ وسيلة، وهذه هي التربية الاستقلالية التي تجيّش من الفرد جمعاً، وتقيم في نفس الواحد أمّة، وتفتح أبواب الحياة كلّها لقويّ الحياة من أبنائها، وشعب يتكوّن من مثل هذا الفرد، يسود ويعزّ، إذ هو يرتفع على كواهل أفراده فيعلو، ولا يثقل بالعالة منهم فيهبط ، وهذه رسالة العلم في العالم، إنّه نور نزاع إلى العلاء، شعّاع بالضياء، فكذلك من يمسسه يكنه، نوراً يضيء ونجماً يلمع، أمّا ما عداه من حمم القدر، فهو فحم لا علم، هو وحامله وقود النار، أو زبد السيل لا يلبث أن يذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال للناس.

والمثل عندنا طالب متخرّج في مدارسنا، وهي كما قلنا إنما تعلّم للتوظّف، أي أنها حدّدت النفع المطلق من العلم، وهو غايته، لهذا النفع الخاص، فجعلت المتعلم المصري نافعاً في الوظيفة أو نافعاً بالوظيفة، وهي مع تأهيله لهذا النفع الخاص، لم تزوّده بمؤهلات النفع العام، أي لم تودع في نفسه الخميرة التي بمقتضاها إذا سُدّ في وجهه باب النفع الخاص ينتفع باستعداده وما أعدّ به في أيّ عمل ومن أيّ جهة، فهو لهذا إن لم يجد ما أعدّ له الإعداد الخاصّ، تبّ وانكبّ، وهوى وخار، وهذه هي المصيبة العامة المنتشرة في مصرد جنتها من التعليم الفاسد الذي تضجّ منه ويريد المصلحون رفع فساده وتوجيهه للإصلاح، ومثل هذا الطالب في الواقع، مثل من يروض

نفسه على ركوب الدرجة الأولى، فإن جاءه القطار يوماً وليس به مركبتها، أو لم يكن معه ثمن تذكرتها، تقبّضت نفسه وانحبست، وترك القطار يفوته، إذ ليس عنده الاستعداد لأصل الركوب وأن يكون تمييز الدرجات بعد الركوب خصوصية للراكب، وإنما استعداده كله انحصر واقتصر على ركوب خاص في مركبة خاصة، فمن أجل هذا فاته القطار والقطار هنا قطار الحياة يا أولي الألباب! أما مثل المتعلّم الصحيح في المدرسة الصحيحة، فهاأنذا أرويه عن التلغرافات الأخيرة في ترجمة الكولونيل لورنس، والكولونيل ليس هو الوحيد في تربيته وإنما هو ثمرة كبقيّة الثمار التي جادت بها تربية القوم المتحضرين ونراها منتشرة في بنيها ملء السمع والبصر، نشرت صحيفة التايمز للكابتن ليدج هاردر، من أكبر النقاد الحربيين في بريطانيا، رسالة رثى فيها الكولونيل لورنس فنوّه برحلاته الأولى في مصر وبلدان الشرق الأدنى كسينا وفلسطين، وخدمته بعد ذلك في إدارة مخابرات الجيش البريطاني وما أداه من الخدم لأمته، وقال: حدث في بعض رحلاته أن تخلّف عن مواصلة السفر فلم يعجزه ذلك، وجمع في أثناء تخلّفه من المال ما مكّنه من دفع أجرة السفر إلى إنجلترا إذا قام بخدمات متنوعة كسوق الجمال، والعمل في الحصاد، ونقل الفحم إلى البواخر، فهذا الكولونيل راعى الجمال وناقل الفحم كان قد تلقى علومه في جامعة «أكسفورد» ونال الدرجة الأولى في التاريخ الحديث، لما أعيق عن السفر بنفاد المال منه لم يقف مكتوفاً يستدرّ علمه في التاريخ، أو يلعن جامعة أكسفورد التي خرّجته، ولكن استعان بالمدد المبثوث في نفسه من تربية العمل فأعانه، حتى جمع ما دفعه في تذكرة السفر، وهكذا التربية الصحيحة أداة تفرّج بها الكرب وتحل المشكلات، بعكس التربية الفاسدة فإنها تضيّق الواسع وربما عقّدت المحلولات(١).

وأرى أن إصلاح التعليم في مصر إنما يكون بضربه كلّه على سكة تشمل أبوابه وأقسامه وأنواعه، بحيث يؤلّف سفراً جامعاً يكون دستوراً له يشمل الولد

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٩، ص ١٤.

من سنّه الأولى إلى سنّه العالية، تربية وتعليماً وتنشيئاً وتكويناً، هذا العمل هو وحده أوّل واجب يعلق بعنق كل ذي أمر ويجب عليه وجوباً عينياً، وبهذا وحده تخط السكة السلطانية التي تصل بسالكها إلى سعادة الحياة، فإذا تم هذا الدستور وجمع أحكام التربية والتعليم قام في الأمة مقام المنار يهديها وتسترشد به ويعرف السائرون والمدلجون طريقهم على هدايته، ويكون من التمكّن في النفوس والعلوق بالأرواح بحيث يعز على فرد واحد مهما أوتي من القوة أن يتعتعه أو يقلقله.

و«البرلمان» الذي ينشأ لهذا الدستور ليسير به ويسيّره، ويراعيه ويرعاه، هو المجلس الذي تحدّثنا عنه وهو مجموع مجالس الأزهر ومجالس الجامعة ورجال الفن في الوزارة، فمن هؤلاء جميعا يكوّن مجلس التعليم، لا يبتّ في التعليم إلا بقوله، ولا يحاول ذو شأن محاولة فيه إلا بإمضائه، وهو المجلس الذي يتلقى أبناءَ الأمة أمانة عنده من ربهم ومن آبائهم، يربّيهم للخير وعلى الخير، ويقوّمهم بالنفع وعلى النفع، ويبني منهم مستقبل البلاد أحسن بناء وأعزّ مستقبل. بهذا وحده ينال دستوره وبرلمانه فيحيا بهما الحياة اللائقة بالعلم وبأهله وبطلبته، ويحصل منه الخير الذي أراده الله من العلم وخلق العلم لأجله، وبذلك يأمن الناس ألّا يسطو مستبدّ، ولا تفشو فوضى، ولا يعقم العلم الذي نراه في مصر، وبه يقطع دابر الفساد المنتشر. ونخلص من ما تقدم إلى:

أ ـ أنّنا ننعي على العلم في مصر أنّه لم يؤدّ ظيفته على ما ينبغي، فقد قصّر بطلبته فلم يفِ لهم بالوعد الذي قصدوه من أجله، ولا وسعتهم غايته التي سعوا في تحصيله لبلوغها، ومن قبل هذا شقق الأمّة في منبتها، وتفرّع بالجيل من مولده، فلا هو حصّل السعادة للطالبين، ولا هو أبقى الوحدة بين أبناء الأمّة أجمعين.

(ب) وننعي عليه أنّه ملأ نفوس الطلّاب غروراً بقشوره، ونقلهم من طبعهم الطيّب الساذج، إلى طبعه المتنمّر المختلط، وعلق بهم علوق الجرب بالجلد وعلوق السلّ بالصدر، لا هم يشفون من دائه فيعودوا إلى أصلهم، ولا هو ينقلهم إلى بيئته فتطيب لهم، وبقي بحامله في منزله «إنْ» المعلّقة، لا هي

عاملة، ولا هي قادرة على العمل، وما هكذا يفعل العلم بالمتعلّمين.

(جـ) وجاء الأزهريون، وهم طلبة الشرع، بعلوم الفرع، أناخت عليهم بكلكلها فثقلوا بها، فلم يستوعبوها، ولا تفرّغوا لعلومهم، فلم يبرعوها، وطلّاب الجامعة ملأهم كلاماً، وأوسعهم نظراً، وسحّ عليهم من شآبيبه بما لا يفيد في عمل الدنيا، ولا خلا لهم وجه مصر حتى يفيدوا في سوادها، فهم نسخ من إخوانهم الأوّلين تكدّست بالجميع مكتبة الوادي، والوادي صار يعوزه المصنع والمعمل. بعد أن غصّ بمجلدات المكتبة.

(د) وترى أثر هذا الذي يقال له علم، وتنفق عليه الحكومة ملايين الجنيهات، غير ما ينفقه الأهالي على الطلبة، ترى أثره أسوأ الأثر في نفوس حملته، نفوس ملئت يأساً وسأماً، ونفوس لم يعمرها الدين ولا صبغها الخلق، ونفوس لم تخلق للعمل الحرّ ولا مرنت على حبّ العمل، فخرجت من هذا وهذا إلى حريّة في المظهر يبدو لك في الشباب، وهم على ما تقول إداراتهم «شباب العلم»، ولكن شباب العلم حليته في الدرس وتكميل النفس، أما شبابنا فحليته في الثوب فاخراً، وفي اللسان متشدّقاً، وفي الفكر نافراً، وفي الأمل طائراً، يحسبون ما علموه نافعاً، حتى إذا جاءوه لم يجدوه شيئاً، ووجدوا الحقّ عنده فوفّاهم حسابهم، وهم خاسرون متحسّرون.

(هـ) وزاد هذا الحال حتى كدنا ننكر أنفسنا إذا ما فتحنا مجلّة من المجلّات التي تخصّصت للكتابة في المدارسد سواء منها مدارس البنين أم مدارس البنات، فمن يسمع يخل، ومن يتصفّحها يخيّل إليه أنّها تكتب في مجالس ومنتديات ومجامع عموميّات، وهي تصرّح بأسماء الذكور وأسماء البنات، وتروي عن هؤلاء الأغصان ما إن كان حقيقة لوجب أن تصفّي إدارة التعليم في مصر حسابها وتغلق أبوابها، وإن كان كذباً واختلافاً فإهمال الإدارة لها، وتركُ هذه الفحشاء تشيع بين أبنائها إهمال أحقّ بالنقد، وترك أولى بالتقريع والتأنيب.

(و) وننعي على التعليم في مصر، أنّه لم يجعل التربية حَكمته، فالدين لا

ريح له في مدارسه، والأخلاق إن ورد ذكرها ففي الكتاب رسمها، أما في الواقع وفي العمل فطلبة المدارس قد تُركوا في شأن دينهم، وأهملوا في تربية أخلاقهم، والدين والخلق عمل وقدوة، لا برنامج وكتاب. هذه الصلاة التي يؤمر بها الولد لسبع ويضرب عليها لعشر، أين هي في مدارسنا؟ والعبادة إنما هي تعوّد وعادة، وأعجب من هذا في شهر الصيام يقدّم الطعام لمن يحبّ من أبناء الإسلام؟ ويقولون هي الحريّة؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم، فأمّة لا دين لها ولا تُربّي على الدين، لا بقاء لها ولا عزّ ولا سؤدد، وعندن مدارس الأمم الراقية تقرّر الدين وترسمه، وتحمل طلبتها عليه، وخرّيجوها لهذا أحسن وأفضل أقدر، وأجول في معترك الحياة وكسب سعادتها، فلا الدنيا حصّلها علم اليوم، ولا الآخرة ينيلها لطلبته...؟؟

(ز) هذا إلى ما نعينا من تفرّق إداراته. وطلب كلّ منها الاستقلال والانحياز ـ وضيق غاينه وكثرة الوسائل المخرّجة لطلّابهم أضعاف ما يكفيها ـ وعجز خطّته عن بثّ روح الحياة العمليّة في نفوس مختطّيها ـ ووترك النظر في الخطط والبرامج والمناهج لفرد واحد، يوقعها أو يقبلها، ويعدّلها أو يبدلها، منه الأمر وإليه يصدر الأمر ويعود في جيل بأكمله، ومستقبل يشكّله، إن شاء للشقاء أو للسعود، وشاهد الحال ما جرى في السنين الأخيرة من محو وإثبات وتغيير وتبديل، في البرامج، وفي الدروس، وفي عدد السنين، وفي مستوى الشهادات، ما جعل المدارس وطلبتها حقولًا للتجارب لا مغارس للفائدة ولا مجاني للثمر!؟

(ح) وانتقدنا عملهم الذي عمدوا به إلى العلوم فجعلوا لها خلاخل ومناطق وأطواقاً، فتراهم يجيئون إلى طائفة من العلوم يعدون لكل علم منها خلخالًا، إذا استطاع الطالب أن يلبسه ساق العلم أعطوه شهادة يسمونها «الشهادة الابتدائية» فإن خنصره بنطاق أو قلدّ عنقه بطوق أجازوه بالشهادة الثانوية أو بالشهادة العالية، والإجازات لم تكن يوماً لأضغاثٍ مختلسة من مغارسها، إنّما الإجازة في العلم وضعت للعلم نفسه وتقسيمُ العلوم وضع من قديم للعلوم ذواتها، لا لطاقات من فنونها، ومدارس الفرنجة عندنا سارت على هذه السنّة،

فهي تجري بالعلم الواحد شوطاً واحداً، وتدرسه للطالب في طلق متسق، ومن سيّره طبعه في علم منها ساروا به، ومن غير أن يعوقه تخلف في علم آخر عن نيل الإجارة في العلم المصطلع به، ووجه النقد في طريقة التعليم عندنا، أنها طريقة تضادّ الفطرة الإنسانية، فهي تكلّف من لا يحسن الرياضة ويحسن العربية أن يحوزهما معاً، فإن أبت فطرته الخلقية الانقياد للرياضة والسلس فيها، أبوا عليه إحسانه في العربية ومنعوه أن ينطلق فيما يحسنه[1].

(ط) ومع أن الامتحان قد شجبه كثير من علماء التربية، ومن أجازه منهم قال: إنه ضرورة ملحّة، ومع أن الضرورات بالإجماع إنما تقدّر بقدرها، مع هذا فعندنا قد ساروا في هذه الضرورة على مادّة الضرر، فلا يهلّ الصيف من كل عام حتى كأن القيامة قد قامت ونفخ إسرافيل في الصور، فنصبت أسواقه بالمدائن والبنادر، وحشد لها رجال المعارف حشداً يقطع هوله أنفاس كل داخل فيها، ويزيد حذره ريب كل محشود ونصبت فيها الموازين مقلوبة، فالصغير الذي يطلب الشهادة الابتدائية يمتحن في علوم أربع سنين، والحدث فوقه إذا طلب الكفاءة امتحن في علوم ثلاث سنين، والكبير الأشدّ منهما يمتحن لنيل «البكالوريا» في علوم سنتين!! وهذا ترتيب مقلوب كمن يريد أن تقف القمة على قمته؟ فإنّ العقل كلما اتّسع حوزه صحّ أن يمتحن في كثرة المحوز، لا العكس، وكذلك نرى إدارة التعليم تجلب بخيلها ورجلها في أسواق هذه الشهادات الثلاث، فإن امتحن التلميذ بعدها في الأهم منها، كفّت يدها وتركته لمدرسته، نعم فالنقل من السنة الأولى للسنة الثانية الثانوية أهمُّ من امتحان السنة الرابعة الابتدائية، ومن السنة الثالثة الثانوية أهم من امتحان الكفاءة، وفي المدارس العالية أهم من البكالوريا، ولكن هكذا خلقت ـ ثم تراكم في حلبته على الطالب ركاماً لا يسبق في الخلاص منه إلا العقل الصناعي، ولا يجوز به إلا (خالط اللبن بالسمك بالتمر الهندي)، وفيه تضيق الحدود ويحجّر واسعه، ويوزن المرء بالدرجة ونصف الدرجة، ويكون القول في هذه الظروف المنفعلة

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٦٠.

ما قالت «حزام» لا نقض فيه ولا إبرام، ولا عود ولا إعادة! ما جعل النتيجة في كل عام رسوب أكثر المتقدمين، وتعويد هؤلاء الراسبين عادة الرسوب، فيعاقبون به عن التقدّم. والحياة كلها دفع وإقدام.

(ي) ـ وخلاصة الخلاصة في نقدنا ونعينا، ما صنعه التعليم فينا من قطع صلتنا بماضينا، فأبناؤنا المتعلّمون لا يتسلسلون من أجدادنا المتعلمين، وإنما هم صنعة مبتدأة وخلقة جديدة، إن متّت فإلي الغرب، أو نظرف فإلى أسلافها في علوم هذا التعليم، والعلم المنتج إنما هو شجرة غرسها الأجداد وتعهدها الأحفاظ فاستوت وأورقت وآتت أكلها في كل طور بإذن ربها، وأخذه الآخذون فانتفعوا منه بتجاربهم، ونفعوها منها بما يلقحون ويسمدون، فهو يمدّ ظلالها ويضرب بجذورها، ويخرج لها شطأ يؤازرها ويجعل لها وشيجة تنقل منها فسائلها، ومغرساً يوشك أن يكون بعد حقبة حديقة يانعة. أما حال التعليم العصري فعلى غير هذا، بل حال من شأنه أن ينقل أبناءه إلى آبائه هو وأن يخرجهم من شرق الأرض إلى مغربها غير ناظرين إلى تلك الكنوز التي خلّفها آباء النسب لهم ولا منتفعين بما كان فيها من جواهرهم، وقد جعلوا بينهم وبينها برزخاً وحجراً محجوراً، وبهذه النقلة يخسرون تراثهم، ولا يحصلون على ما عند القوم وقد سبقوهم بأجيال، فإذا آن الأوان لأن يفهموا، استعجموا ولا ساعة مندم. وأظهر ما ترى هذه الظاهرة في طبقتي الأطباء ورجال القانون، فأطباؤنا لا يعرفون أن العرب اشتغلوا بالطب، وإن أتاهم نبأ اشتغالهم به جهلوا ما عرفوه وكيف اشتغلوا به، فإن حدّثتهم عنه لوّوا وجوههم وزاغوا عنه. ورجال القانون غرقوا في بحيرته المستحدثة من قرن أو قرنين، فلا ينظرون البحارة الزاخرة التي بحرها لهم الآباء من بضعة عشر قرناً، وظلّ الأسلاف يوسعون فيها، ويصفّون من مائها، ويبنون على شواطئها، أو ينشئون في جزائرها حتى لكأنها دنيا قائمة لا يعرفونها أو يسمعون بها، فإن زلقت رجل أحدهم فنظر فرأى مثل ما يعلم، أو أنبل مما يعلم وأحكم وأدقّ، دهش، ولا يأخذه الدهش إلى لومة على ما فرط فيها، بل يملأه بالعجب فيدهش كيف كان لآبائه عقول أدركت مثل ما يدرك؟ وعرفت كما عرف أبناء هذه الحضارة

المستحدثة؟ وهذه أكبر جناية على قوميتنا جناها التعليم الحديث، وبها افتلذت أمّة بأسرها واقتلعت من تاريخها إلى حيث يشاء ناهجه، على حين يبعث الله من أوروبا من يستشرق فينقب فينشر مفتخراً على قومه بفخار قومنا وآيات ما بلغوا وأدركوا في العلم والمدنية.

هذه نظرة عاجلة لمواطن النقد في تعليمنا ومتعلمينا، ونقرّ معها منصفين بأن في مصر والحمد الله من تزهو بهم علماً وتربية، وبها أفذاذ بلغوا من السمو ما ضارعوا به من سما في غيرها، ولو آتاهم الله بالمدد لأتوها به، ولكنا إنما ننعي على المجموع لا على الجميع ونكتب في الطبقة من غير أن نجحد فضل الله جاد به على من شاء من أفرادها المخلصين، وأكبر الظن أن فضلهم جاءهم من العهد الأول أو من تربيتهم المنزلية، وكمالهم مما زوّدوا به أنفسهم خصوصية، من هنا نقدم بعض المقترحات التي تفيد مجتمعنا وأبناءه، وهي:

(أ) وضع دستور جامع، يتلقى الولد من الصغر إلى الكبر، وينقله في أطوار حياته بين منازل العلم النافع، صوّر العلم فيه كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، ذات أوراق وغصون، وذات فروع وأفنان، لكل فنن ثمرة، ولكل ورقة ظلّ، ولكل فرع فيها فائدة فهي في أصلها تعطي الظلّ والأكل، وهي في أفانينها تعطي الميزة والخصوصيّة، وما بها قائم على أصل الفن، ذاهب إلى غاية المنفعة - ويحوي هذا الدستور منهاج التعليم وبرنامجه، محكم الوضع في ترتيب أبوابه، وإتقان فصوله، وإحاطته بكل ما يحتاج إليه في هذا الإعداد الحيوي، بحيث يكون خميرة الحياة لبني الحياة، وغذاء الروح فيها، وقوام النفس والجسد، ولا يدع شاردة ولا واردة ما يفيد التعليم الصحيح وينتج التربية الحقّة ويكون من الثبات في النفوس، والعلوق بأنواط القلوب، بحيث لا يقدر فرد مهما أوتي أن يتلعّب به، أو يمضي فيه استبداد رأيه، إذ كان من العجب أن يوضع للقضاء لائحة تشرح إجراءاته وكتاب يحوي موضوعاته، بحيث يعرف القضاة والمتقاضون ما لهم وما عليهم، ولا يغيّر من اللائحة بند ولا في الكتاب موضوع إلّا بجهد وإجماع رأي، وكلّ هذه الخدمة العدل ومضاء القضاء به، ثمّ لا يصنع مثل هذا للعلم والتعليم وهو أبو العدل، ومنه وبأحكامه يسير.

(ب) ثم يكون لهذا الدستور منتدى يضمّ مجالس الأزهر والجامعة ورجال الفنّ في المعارف، جمعيّة برّ وتعاون على الخير والإفادة، هم الذين يتولّون أمر التعليم في مصر بحكم هذا الدستور، وهم الذين يرون في الدستور رأيهم الصالح لصلاح البلد، وهم وحدهم الذين يتحدّثون على التربية والتعليم ولا كلمة لغيرهم فيهما. وكلّ من أراد بهما أمراً فإنّه لا نفاذ له إلّا برأيهم وبتصديقهم.

(جـ) واقترحنا أن يوضع هذا الدستور على قاعدتي الخلق والعمل، وأن تنصب رايته على قمة النفع، كأنّه مثلّث متساوي الزوايا، رؤوسه هذه العظائم ـ فإذا تمّ وضع هذا الدستور، وقام بتنفيذه هذا المجلس، إذاً فلتنتظر للأمّة أن تنعم بنعمة العلم.

(د) ورأينا توحيد التعليم في المرحلة الأولى منه، وتعميمه ووضعه في نفوس الجيل وضعاً صحيحاً، يبثّ فيه حبّ العمل، ويعدُّه بعدّة العمل معتصماً بحبل الدين والخلق.

هذا ما رأينا أن نستدرّ به أخلاف العلم الصحيح والتربية الحقّة ليكون ما يخرج منها غذاء للحياة، ومدد البقاء فيها، على أسعد حالاتها وأهنأ العيش بها، وبه تحسم العلل الفاشية في التعليم الحاضر، الذاهبة بأبناء الجيل مذاهبهم التي عبناها، وبها أخذنا على من قاموا بهذا الشأن في مصر وما شاكلها من الأمصار.

وأنها لمقترحات مجملة يعني هذا القلم بتفصيلها، ويعوزه لشرحها العصبة أولو القوّة، في مجال لا محلّ له اليوم من هذا الكتاب، ثم إنّ تنفيذها يقتضي جهداً وبذلًا، ولكنه العلم، وللعلم نحيا وبالعلم نفوز، فكل ما صنع له سهل في جنب الفائدة منه، وما بذل فيه رخيص، قال الامبراطور نابليون: «إنّ الفوز الصحيح، الفوز الحقيقي الذي لا عمل فيه للأسف، هو الفوز على الجهل» وإنّها لكلمة حقّ أريد بها حقّ وتكاد تكون الحقّ كلّه، وقد صدقها صاحبها بفعاله، فهو الذي يروي عنه بعد أن انتصر في معركة مارنغو أنه جعل أوّل

شروطه في الصلح مع ملك «نابولي» إطلاق أسر العالم «دولوميه» الجيولوجي، وكان مقيماً بمصر، وفي عودته إلى فرنسا انكسرت سفينته فأسره مالك نابلي وسجنه.

نابليون هذا هو الذي سلّ من قلبه خيمة الحقد وجعل محلها صفاء العلم حينما وضع جائزته السنوية لمن يكشف أنفع كشف في الكهربائية الفلطائية، وقد أعطاها للعالم الإنجليزي «دايفي» سنة ١٨٠٨ وقدرها ثلاثة آلاف فرنك، لأنه كشف عنصري الصوديوم والبوتاسيوم بالكهربائية، وبذلك كسر حاجز ما بينه وبين انجلترا من العداوة القائمة في تلك الأيام. وكان نابليون بلغه أن «فولط» كشف العمود الكهربائي المعروف «بالفلطاي» فأمر بعقد جلسة خاصة حضرها بنفسه، وصنع للعالم المذكور وساماً من الذهب كتب عليه اسمه، وجعله عضواً في مجلس الشيوخ، ووهبه لقب كونت، وأعطاه مبلغاً طائلًا من المال وسيفاً رمز به لإكرامه[1]. وهو نابليون ربّ السيف ورافعه حتى ليكاد يخرط به عنقود الثريا أن صار رماداً في معركة «واترلو» وحينذاك آوى إلى ركن، العلم الذي يبقى ويفنى ما عداه، وقال كلمته الخالدة في فضل القلم على السيف، وتمجيد العلم وبيان قوته والاعتصام بعروته وأنها العروة المضمونة الباقية، وكان قد وضع قانونه المشهور بقانون نابليون، قال وهو في منفاه «ليس مجلي وفخري بانتصاري في أربعين معركة، فإن واترلو سوف تمحو ذكرى هذه الانتصارات، لكن الأثر الذي يبقى خالداً إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين هو قانوني المدني».

وصنع هذ العاهل العظيم إنما هو نسج على منوال العظماء الذين سبقوه من رؤوس العالم وحمله أثقاله، فهم جاهدوا في سبيل العلم وأدواته من الخدمات ما يكاد يعرق القربة حتى نالوا الإربة. وأمامي تاريخ العلم الإسلامي لا تكاد تقلب صفحة من صحائفه إلّا تشاهد لمعاً مع تقوم فيها ناشبة بين الجهل والعلم، ورجال العلم فيها شاكو السلاح باذلو النفس والنفيس في الانتصار على

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٦٨.

هذا العدو، وقد انقسم معسكرهم إلى جناحين اتفقا على مهاجمته جناح الأمراء وجناح العلماء.

ولقد لفت نظري في متابعة هذا التاريخ ظاهرة تلاحقه ولا تفارقه بدا في هذين الجناحين داء يلمسه القارىء وتظهر للساهي فيسلمه ظاهرها ويبين له خافيها، رأيتُ في أكثر ما قرأته من تراجم العلماء أن أكثر ما تركوه من آثارهم العلمية وما قاموا به لخدمة العلم إنما صدر منهم في أوقات شدتهم وعلى حين كانوا مبتلين في أنفسهم بمصائب هذه الدنيا، وقد مر بك في هذا الكتاب ما لاقاه العلماء من شظف العيش، وما اهتصرته أنت من شظفهم ذاك جنى يانعاً وثماراً ناضجة أبقوها للعالم غذاء لروحه ولجسده وقوة يعدو بها في حياته ليستكمل بها أسباب الخير والسعادة. وقد رأينا أن «السرخسي» أملى كتابه المبسوط وهو في قاع السجن وتلاميذه يحضرون ويسمعون، ومثله كثير جداً واقرأ إن شئت تراجم ابن سينا وابن رشد وابن تيمية وابن القيم. فقد كتبوا كثيراً وهم في السجون، فرسالة «حيّ بن يقظان» الشهيرة لابن سينا هي فيض من قلعة «فردجان» وكان قد حبس فيها كاتبها، وبها ألف كتاب «القولنج» وكتاب «الهداية» أيضاً، وكتابه «الشفاء» المشهور ألفه وهو متنقل في البلاد، فإذا كان متوارياً في دار بهمذان كتب قسماً منه، ثم اشتغل بقسم آخر في إصفهان، وأتمه في سنة أخرى في أثناء طريقه إلى «سابور خوست»، وهكذا من أمثال هذه الأخبار ما يكاد يكون ظاهرة عامة في العلماء والمؤلفين. أما ظاهرة الملوك معهم فهي ظاهرة تشرّف الحكومة الإسلامية وتدلّ على مبلغ الروح القويّ التي تقمّصه فبعثها إلى سوْق العلم وإلى حدائه، فأمراء الإسلام فوق ما بذلوه في العلم والعلماء مّا لا تتسع له مجلدات، كانوا إذا اختلفوا مع عالم لم يقعوا في عقوبة خلافه على علمه، بل يقصرونها على هيكل الجسد مع بقاء العلم حراً طليقاً بل مع تسهيل سبل انتشاره وألا تقف العقوبة الجسدية حائلًا دونه، وإنه من الطبيعي أن يقع الخلاق بين الأمراء والعلماء، ومن الطبيعي أيضاً أن يعمل الأمراء للمحافظة على ملكهم بصدّ مخالفيهم وحبسهم ولكنها طبيعة الكرم وفّقوا بمقتضاها بين محافظتهم على أنفسهم وبين إكرامهم للعلم وإطلاقهم الحرية له،

فالعلماء الذين حبسوهم كانوا يدعونهم يؤلفون ويكتبون لا يحولون بينهم وبين طلاب العلم أنى شاءوا، حتى روى أن أحمد بن طولون لما اختلف مع قاضيه بكار بن قتيبة على مسألة سياسية تتعلق بشأن ولاية العهد في الخلافة وأراد حبسه، استأجر له داراً حبسه فيها، وكان فيها طلق يجلس يتحدث فيها ويكتب عنه وهو في السجن. قال: «لما طال حبس بكّار، طلب أصحاب الحديث إلى ابن طولون أن يأذن في السماع منه، فأذن لهم فكانوا يحضرون ويحدثهم» ومما يدل على أن الجهود التي بذلتها الحكومات والعلماء في خدمة العلم حتى وصلنا منه ما وصلنا، تنادى بضآلة ما نراه في عصرنا هذا الحاضر في مصر، فلا ريب كان ما ندعو إليه واجباً ليس بالكثير ولا هو فوق الطاقة، بل يكاد لا يعدّ شيئاً مذكوراً إذا قيس بجهود الأولين، أو جهود الأمم الراقية حوالينا حتى بلغت ما بلغت مما هو نتيجة حتمية لاستثمار العلم وخدمته.

وأظهر من هذا ما بدا في روح الإسلام عموماً، أن سما بوصف العلم على الفروق والميزات، فإذا يذكر العلم، لا نرى إلّا وصف العالم، وما عاده من مميّزات فنسيٌ منسيٌ، فالعلماء تسرد أسماؤهم وتذكر مجالسهم وتكتب نواريخهم ويحضرون ويغيبون ويتنقّلون ويسمعون ويسمع عنهم، وميزانهم في هذه الأحوال كلّها إنما هو ميزان العلم، به يوفّون حقوقهم، وبه ينالون درجاتهم، لا فرق بين مسلم وغيره، بل لا فرق بين حرّ ورقيق، وهذه ظاهرة بشرق بها تاريخ العلم الإسلامي إشراقاً لامعاً يطوي في ضوئه كل ضوء آخر، وبها استنار الإسلام وزخرت مكاتبه، وضخمت علومه، وخلّف تراثاً ليس كمثله عند أمّة من الأمم، وكفى بهذه الظاهرة أعظم قربان قدّمه المسلمون لربّ العلم.

ولا يغترّ القارىء بالقشور اللامعة في هذا الوقت، فقد وقفناه على حقيقتها، ويكاد الوادي لا يخرج بها من الشبر الأوّل من أشبار الشعبي، وقد سقنا كلمته من قبل. وهو الشبر الذي لا تريش فيه الأمّة ولا تبرى، بل إنه ليخيّل إليّ رغم من هذه البوارق أنّ مصر التي بدأت تجدّد نهضتها العلميّة من زمن «محمد علي» قد رجعت فيها القهقرى أو على الأقلّ لم تواصل تلك

البداءة الحسنة بما يزيدها حسناً وإجادة، فأمامي سفر ضخم وضعه العالم الجليل الأمير عمر طوسون في «البعثات العلميّة في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد» أثبت فيه أسماء الأقمار الذي بعثهم هؤلاء الولاة الثلاثة إلى أوروبا ليتعلّموا فيها. وكانوا قد أوتوا من العلم هنا ما ازدادوا به هناك علماً ومعرفة، فلمّا علموا عادوا فانتشروا في البلاد أقماراً وشموساً بزغوا في سمائها فأضاؤها، ثم طواهم الردى فبقيت مطالعهم خالية لم يخلفوا فيها، وكان الظنّ باطراد النهضة أن يزيد الخلف عن السلف، وأن يتكشّف أديم السماء في كلّ صبح ومساء عن شمس جديدة قمر جديد، والأمل في الحقّ قويّ أن يصحّح الظنون، وأن تضطلع مصر بأعباء العلم والتعليم اضطلاعاً يصحّح لها دعوى زعامتها على الشرق، وقيادتها لبنيه بالبرهان والدليل.

وكذلك أنا لا أنكر على الجوامع والجامعات ملابس طلبتها وأستاذيها، ولا أذم تخصص العلماء بما يعرفون به أو ينفردون، ولكني أكره ما يتعلّق به بعض ذوي الظاهر بالمظاهر، وجنوح بعض النفوس إلى وضعه في مكان التقديس، فإن هذه الشارات والإشارات إن هي إلّا علامة إن لم يكن لها مدلول فرغت وإشارة مهما جلّت فلا تصل إلى رتبة المشار إليه، والمعول في الحقيقة عليه وهو القصد الأجل، وأمامي وأنا أكتب هذا، مشهد تاريخي قام بأرض القادسيّة في بدء الإسلام يوم التقى الفرس والعرب، فخرج الأولون على العرب، بزينتهم، وطلع العرب لهم بميزتهم، فكانت الغلبة للنفوس على الطقوس، وتمّ الظفر للحق الواقع بالزيف المبهرج.

ومن أظرف ما رويته في الاغترار بالثوب يخطىء الدلالة على لابسه ما حكاه الأصمعي قال: كان الفرزدق الشاعر و «أبو شفقل» راويته في المسجد، فدخلت امرأة فسألت عن مسألة وتوسمته فرأت هيئة أبي شفقل فسألته عن مسألتها، فقال الفرزدق:

أبو شفقل شيخ عن الحق جائر   بباب الهدى والرشد غير بصير

فقالت المرأة: سبحان الله، تقول هذا لمثل هذا الشيخ؟ فقال أبو شفقل:

دعيه فهو أعلم بي[١].

ونروي قصّة داود الظاهري إمام أهل الظاهر الذي قيل إنه كان يحضر مجلسه كل يوم أربعمائة صاحب طيلسان أخضر، قال داود: حضر مجلسي يوماً أبو يعقوب الشريطي وكان من أهل البصرة وعليه خرقتان، فتصدّر لنفسه من غير أن يرفعه أحد، وجلس إلى جانبي، وقال لي: سل يا فتى عما بدا لك، فكأني غضبت منه، فقلت له مستهزئاً أسألك عن الحجامة، فبرك أبو يعقوب، ثم روى طريق (أفطر الحاجم والمحجوم) ومن أرسله، ومن أسنده، ومن وقفه، ومن ذهب إليه من الفقهاء، وروى اختلاف طريق (احتجام رسول الله ﷺ وإعطاء الحجام أجره، ولو كان حراماً لم يعطه) ثم روى طرق (أن النبي ﷺ احتجم بقرن) وذكر أحاديث صحيحة في الحجامة ثم ذكر الأحاديث المتوسطة مثل: **«ما مررت بملأ من الملائكة»** ومثل: **«شفاء أمتي في ثلاث»** وما أشبه ذلك، وذكر الأحاديث الضعيفة مثل قوله عليه السلام: **«لا تحتجموا يوم كذا ولا ساعة كذا»** ثم ذكر ما ذهب إليه أهل الطبّ من الحجامة في كل زمان وما ذكروه فيها، ثم ختم كلامه بأن قال: وأول ما خرجت الحجامة من أصبهان، فقلت له: والله لا حقرت بعدك أحداً أبداً[٢].

---

(١) ابن القيّم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج ١، ص ٨٧.

(٢) من شواهد ما أقول فوق ما رويناه في كتابنا، ما جاء في كتاب «الصيدنة في الطب» لأبي الريحان محمد البيروني من حكماء القرن الرابع وهو كتاب خصّصه للصيدنة وهي علم بحث الأدوية وجمعها واختيار الأجود من أنواعها الخ. فإنه يروي من عجائب علم الطب في زمنه أن الأطباء عندهم بعد أن يستكملوا آلات الطبّ ويدرسوا فروعه كانوا يتخصّصون في جزء خاص من الفرع الواحد، أي يدقّون بالتخصص إلى درجة بعيدة ويصرفف الفرد منهم همته في هذا الجزء بعد أن يكون محيطاً بعموم الطب، فيتخرّج في فنّه، ويتخصص، يجزئه حتى كان عندهم أخصائيون في الكحل ويسمى المتخصص فيه كحالاً، وفي الفصد ويسمى فصاداً الخ قال: (وكذلك يذكر في كتب الهند أن في طبقات أطبائهم طبقة يعرفون بالمداوين بالسموم) وقد ساق البيروني قصة طبيب من هؤلاء عالج أحد أعيان أهل «كرديز» مني بعلة البواسير ولم يفلح فيه علاج، فعالجه هذا المداوي بطريقته فانحسمت عنه ولم تعاوده إلى آخر عمره وقد امتد طويلاً.

والظاهر أن أبا يعقوب هذا هو «الشهيدي» قد عاصر داود. وهو إسحاق بن إبراهيم بن حبيب الشهيدي كان من البصرة وتوفي سنة ٢٥٧ ووفاة داود سنة ٢٧٠، ولعلّ القارىء لحظ لذعة «الشهيدي» لداود في كلمته الأخيرة: أول ما خرجت الحجامة من أصبهان، فإن داود أصله من أصبهان، والظاهر أن هذه اللذعة أثرت في نفس داود وقد استحقها باستهتاره، فآلى ألا يحقر أحداً بعده، وألا يكون الثوب عنده عنوانه لابسه.

فالحاصل أن القصد من هذا كله إنما هو الإخلاص والعمل للوصول إليه والتحلّي به والحصول على جوهره، والإخلاص خلق وفّي، عطوف على مريده، مرشد أمين لا يفارق طالبه حتى يهديه، فهو ماثل أمامه في كل عمل يعمله، منصوب الرّاية واضح النهج، يقرئه ويبين له، ويسأله ويجيب عنه، حتى ما ترى مخلصاً من تبعة عملها لتخرج منها نقية صافية صفاء جوهر الإخلاص، وإنه لأكسير الحياة ونور الوجود وقوت القلوب، حتى في الخير ليسأل المخلص لماذا لم أزد؟ بل لماذا لم آت بالأفضل مما عملت؟ بل قد يشكك في الخير هل ينتج له الخير؟ وهذا منتهى الغاية في حبّ الإخلاص، والحبّ إذا اشتد وصدق تشرب الظن في الحبيب ألا يكون بلغ غاية المطلوب للحبيب، روى عن الحسن مرسلًا: ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة، ما أردت بها؟ فكان مالك بن دينار إذا حدّث بهذا بكى، ثم يقول: أتحسبون أن عيني تقرّ بكلامي عليكم وأنا أعلم أن الله سائلي عنه يوم القيامة، يقول ما أردت به؟ فأقول: أنت الشهيد على قلبي، لو لم أعلم أنه أحبّ إليك لم أقرأ على اثنين أبداً[(١)]. فهذا مالك بن دينار يبكي من عمل الخير ولا يقدّم على إخلاصه إلا قلبه وشهادة ربه عليه، والله خير شاهداً وهو أرحم الراحمين.

ولهذا ورد في بعض الآثار منسوباً للنبي ﷺ شهادة في أبي بكر رضي الله عنه قال: «ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسرّ وقر في صدره»، وقد كرر الغزالي الكلام في هذا الأثر مرتين في كتابه

(١) جريدة المقطّم تاريخ ٣٠/ ٥/ ١٩٣٥.

الإحياء(١). وقال: فليكن حرصك في طلب ذلك السرّ، فهو الجوهر النفيس والدر المكنون، ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها، فلقد قبض رسول الله ﷺ عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم كلهم علماء بالله أثنى عليهم رسول الله ولم يكن منهم أحد يحسن صنعة الكلام، ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد إلا بضعة عشر رجلًا... ولما مات عمر رضي الله قال ابن مسعود: مات تسعة أعشار العلم، فقيل له أتقول ذلك وفينا جلّة الصحابة؟ فقال: لم أرد علم الفتيا والأحكام إنما أريد العلم بالله تعالى، قال الغزالي: أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل؟ فما بالك لا تحرص على معرفة ذلك العلم الذي مات بموت عمر تسعة أعشاره، وهو الذي سدّ باب الكلام والجدل وضرب «صبيغا» بالدرّة لما أورد عليه سؤالًا في تعارض آيتين في كتاب الله وهجره وأمر الناس بهجره؟

وهذه الرتبة التي يبلغها العالم العامل المخلص وصفها «ابن القيم» وقد أظهرها في أحد أبنائها وأعجبني إحكامه فيها قال: أبو عبيد القاسم بن سلّام، كان جبلًا نفخ فيه الروح علماً وجلالة ونبلًا وأدباً، وأنها لآثار كريمة تلتئم مع كرم المصدر، وكذلك الإخلاص، أثر ومؤثر والمخلص بينهما كريم الجوهر، ويظهر أن وصف القاسم بهذا الوصف قد سُبق ابن القيم فيه، أو تواطأ في المعنى عليه فكذلك قال فيه الحافظ أبو بكر في تاريخ بغداد: كان أبو عبيد كأنه جبل نفخ فيه الروح، يتكلم في كل صنف من العلم، ونريد أن نجلّي هذا الجبل الروحاني مثلًا للقارىء من أمثلة العالم العامل يتأسى به في بلوغ العلم

(١) يقول الشيخ السيوطي في ترجمته لنفسه وقد ذكر ما حازه من العلوم والفنون ودرجات تحصيله فيها وأنّه كملت بها آلات الاجتهاد عنده يقول: وأما علم الحساب فهو أعسر شيء عليّ وأبعده عن ذهني، وإذا نصرت في مسألة تتعلق به فكأني أحاول جبلاً أنقله. أفتري هذا الشيخ وقد رزق التبحر في خمسة عشر علماً من الحديث إلى التصريف إلى الطب الخ لو تقدّم لنيل شهادة عندنا فسقط في امتحان الحساب، ومثله كثير من فطاحل العلماء حملوا الجبال في علوم وناؤوا بحباب الرمال في أخرى، أفترى إدارة التعليم عندنا تسقطهم عندها وتبقى هي عالية!

لصاحبه. وهو عالم من غمار علماء الإسلام عرضته المصادفة لنا لنعرضه على قارئنا عرضاً موجزاً وفيه كل بلاغة عن بيان ما يبلغ العلم بصاحبه، فهو من رجال القرن الثالث توفي سنة ٢٢٤هـ (عن سبع وستين سنة)، كان أبوه عبداً رومياً لرجل من أهل هراة يتولى قبيلة الأزد، علم وعمل فكان معلماً ببغداد يؤدب الغلمان، ثم اتّصل بثابت بن نصر الخزاعي يؤدب له ولده، فلما ولى ثابت «طرسوس» ولّى القاسم قضاءها فبقيا بها ثمانية عشر عاماً، وكان طاهر بن الحسين نزل بمرو، وهو ماض إلى خراسان فطلب رجلًا يحدثه، فقيل ما ههنا إلّا رجل مؤدّب، فأدخل عليه القاسم بن سلام، فوجده أعلم الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقه، فقال له: من المظالم تركك أنت بهذا البلد، ودفع إليه ألف دينار وقال أنا متوجه إلى خراسان في حرب ولست أحبّ استصحابك شفقة عليك، فأنفق هذا حتى أعود، فألف أبو عبيد كتابه «غريب الحديث» إلى أن عاد طاهر ومن ذلك الوقت ظل متصلًا بآل طاهر بن الحسين.

هذا العالم ابن العبد الرومي مولى الأزديين بلغ به علمه أن كان أحد ثلاثة يقول فيهم إبراهيم الحربي: أدركت ثلاثة لن يرى مثلهم أبداً، تعجز النساء أن يلدن مثلهم، رأيت أبا عبيد القاسم بن سلام ما مثّلهم إلا بجبل نفخ فيه روح، ورأيت بشر بن الحارث فما شبهته إلا برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلًا، ورأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله جمع له علم الأولين من كل صنف يقول ما شاء ويمسك ما يساء. ويقول الهلال بن العلاء الرقيّ: منّ الله على هذه الأمة بأربعة في زمانهم، بالشافعي تفقه في حديث رسول الله ﷺ. وبأحمد بن حنبل ثبت في المحنة لولا ذلك كفر الناس. وبيحيى بن معين نفى الكذب عن حديث رسول الله، وبأبي عبيد القاسم بن سلام فسّر الغريب من حديث رسول الله لولا ذلك لاقتحم الناس في الخطأ. وقال ابن الأنباري: كان أبو عبيد يقسم الليل أثلاثاً فيصلي ثلثه وينام ثلثه ويضع الكتب ثلثه، وكتابه هذا «كتاب غريب الحديث» ظل في تصنيفه أربعين سنة ويقول: ربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال فأضعها في موضعها من الكتاب فأبيت ساهراً فرحاً منّي بتلك الفائدة. ثم يعقب القول في هذا الجهد بانتقاد من يريد أن يطير بالعلم أو يطير

به العلم فيقول: وأحدكم يجيئني فيقيم عندي أربعة أشهر أو خمسة أشهر ويقول قد أقمت الكثير. وهو كتاب شهر بأنه أول ما عمل في هذا الفن «تفسير غريب الحديث وشرح كلماته»، ومع أنه قد سبق في هذا، إلا أنه جمع روايات من سبقوه في كتابه، وبوَّبه أبواباً فأحسن تأليفه، ولما عرضه على عبد الله بن طاهر استحسنه، وقال: إن عقلًا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يحوج إلى طلب المعاش، وأجرى له في كل شهر راتباً جيداً وقد اعتزّ القاسم بهذا الكتاب عزّة العلم، وبقي به في بغداد مكرماً، قيل إن طاهر بن عبد الله طمع في سماعه من صاحبه، وطمع أن يجيئه به في منزله، فأبى القاسم حتى كان هذا يجيئه، بينما هو يحمله إلى العالمين على ابن المديني وعباس العنبري وكانا قد قدما بغداد وأراد أن يسمعناه فكان يجيئهما به كل يوم إلى منزلهما فيحدّثهما فيه. وما يدلّ على عظمة هذا الرجل ما حدّث به الفسطاطي قال: كان أبو عبيد مع ابن طاهر، فوجّه إليه «أبو دلف» يستهديه أبا عبيد مدّة شهرين، فأنفذ أبا عبيد إليه فأقام شهرين، فلمّا أراد الانصراف وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم، فلم يقبلها وقال: أنا في جنبة رجل ما يحوجني إلى صلة غيره، ولا آخذ ما فيه عليّ نقص، فلما عاد إلى طاهر وصله بثلاثين ألف دينار بدل ما وصله أبو دلف. فقال له: أيّها الأمير قد قبلتها ولكن قد أغنيتني بمعروفك وبرّك وكفايتك عنها، وقد رأيت أن أشتري بها سلاحاً وخيلًا، وأتوجّه بها إلى الثغر ليكون الثواب متوفّراً على الأمير ففعل» ومع إقبال الناس على كتاب القاسم، وتمنّى العلماء سماعه وأخذه عن صاحبه حتى قعد المأمون لقراءته عليه، ومع توارد الشهادات لهذا العالم، حتى ليقول الحنظلي فيه: أبو عبيد أوسعنا علماً، وأكثرنا أدباً، وأجمعنا جمعاً، إنا نحتاج إلى أبي عبيد وأبو عبيد لا يحتاج إلينا، مع هذا فإن القاسم وقد انصرف من الصلاة فمرّ بدار إسحاق الموصلي، فقالوا له: يا أبا عبيد، صاحب هذه الدار يقول: إنّ في كتابك «غريب المصنف» ألف حرف خطأ، فقال أبو عبيد: كتاب فيه أكثر من مائة ألف يقع فيه ألف ليس بكثير، ولعل إسحاق عنده رواية وعندنا رواية فلم يعلم فخطأنا والروايتان صواب، ولعله أخطأ في حروف وأخطأنا في حروف فيبقي الخطأ شيئاً يسيراً.

وإسحاق الموصلي راسخ قدمه في هذا العلم، وعرف لهذا أدب العلماء في تراذهم، وفي لطف تخلّص القاسم بن سلام وأدبه وتوقيره لغيره مع التسليم للحقّ وقصد الحقّ. فهذا القاسم مثل صادق في قول الحقّ، وقد صدّق لهذا العالم إخلاصه، فإنّه لما قضى حجّه وعزم على الانصراف إلى العراق رأى في منامه ما يدلّ على الرغبة النبويّة في بقائه بدار بعثته، فلما أصبح ثنى عزمه وبقي بمكة حتى مات. وفي هذه السيرة المختصرة مثل من تحقيق أمانينا في الاستجابة إلى دعوة العلم، فقد مثّلها هذا العالم مزيجاً قائماً من عناصر هذه الدعوة إلى مزج العلم بالعلم بالخلق، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

وهذه المرتبة إنّما يبلغها بالعلم النافع والعمل الصالح ـ وقد مرّ عليك في فاتحة الكتاب كثير ممّا يفيد، ويستشهد به لهذا الباب، كما يقول أبو الدرداء: مثل العلماء في الناس كمثل النجوم في السماء يهتدي بها، فقد يهتدي بنور النجم والنجم في جرمه فحم، ولذلك روى الطبراني عنه ﷺ: **«إنّ ناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار، فيقولون بماذا دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلاّ بما تعلّمنا منكم؟ فيقولون، إنّا كنّا نقول ولا نفعل»**، وفي حديث آخر رواه الطبراني بسند حسن، في تشبيه هذا العالم الذي يقول ولا يفعل، قال ﷺ: **«مثل الذي يعلّم الخير وينسى نفسه كمثل السراج، ورواية البزّاز أوضح، مثل الفتيلة يضيء للناس ويحرق نفسه»**.

وأسفل من هذا دركاً في نار جهنم، العالم الذي يفعل ضد ما يقول، وهو الذي خاف منه المصطفى ﷺ، فيما رواه الطبراني والبزّار برجال محتجّ بهم في الصحيح، إذ يقول عليه السلام: **«إنّ أخوف ما أخاف عليكم بعدي كلّ منافق عليم اللسان»** وفي رواية أخرى أنّه عليه السلام لم يتخوّف على أمّته مثل خوفه منه في قوله: **«إنّي لا أتخوّف على أمّتي مؤمناً ولا مشركاً، أمّا المؤمن فيحجزه إيمانه وأمّا المشرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوّف عليهم منافقاً عالم اللسان يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكروه»**.

وفي هذا العالم الفاجر، ورد حديث الصحيحين عن أسامة ابن زيد قال: سمعت يقول: **«يؤتي بالرجل يوم القيامة فيلقي في النار فتندلق أقتاب بطنه،**

(تخرج أمعاؤه) فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه».

وفي رواية لمسلم عن أسامة أيضاً يقول، وإني سمعته يعني النبي ﷺ يقول: **«مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض بمقاريض من نار، قلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون»** وفي رواية ابن أبي الدنيا والبيهقي وابن حبّان في صحيحه واللفظ له، قال: **«خطباء أمّتك الذين يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم وعم يتلون الكتاب أفلا يعقلون»**، وزاد ابن أبي الدنيا في رواية: **«كلما قرضت عادت»**، وفي أخرى للبيهقي: **«ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به»**[1].

فالعامل العالم كما رأيت ينفع نفسه وينفع الناس، والذي يعلم ولا يعمل قد ينفع الناس ولا ينفع نفسه، والعالم الفاجر شرّ الشرور ومنبع الآثام، وبقي من تمام التقسيم العامل الجاهل، وهذا قد استعاذ منه سفيان الثوري في استعاذته من العالم الفاجر حيث يقول: نعوذ بالله من فتنة العابد الجاهل وفتنة العالم الفاجر فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون.

ومن أشبه الأمثال لهؤلاء ما نقله القرطبي في مقدمة تفسيره قال: وروى مسلم عن أبي مسلم قال، قال رسول الله ﷺ: **«مثلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُترُجّة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر. ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مرّ»**، وفي رواية: مثل الفاجر بدل المنافق.

فالعالِم محور العالم، إذ العلم الذي به الخير قد يدار سكّانه للشرّ. هذا الطب للبقاء ربما استعمل للفناء، والفقه موضوع لسعادة الآخرة قد تأكل الدنيا به سحتاً ويؤجج بطن الفقيه ناراً، والفلك والتنجيم وبقية العلوم كلها إن لم

---

(١) انظر: جريدة المقطّم تاريخ ١٩/٥/١٩٤٥.

يحذر صاحبها هلك وأهلك، وما يروي عجباً في هذا الباب ـ وإن كان بوضعه لا عجب فيه ـ أن صاحب جائزة السلام في هذه الأيام هو نوبل الأسوجي مخترع المفرقعات التي تخرق الركام وتمزق الأجسام ما يطلب فيه عون القادر على كل شيء ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد نقل الجاحظ: قيل يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: اجتناب المحارم، ولا يزال فوك رطباً من ذكر الله. وقيل له، أي الأصحاب أفضل؟ فقال: «**الذي إذا ذكرت أعانك، وإذا نسيت ذكّرك**». وقيل له: أي الناس شر، قال: «**العلماء إذا فسدوا**»[1].

وفي ترجمة أبي حنيفة أنه رأى غلاماً يستحمّ في النهر، فقال له: احذر يا غلام أن تسقط فقال له: احذر أنت أيها الإمام فإن في سقطة العالِم سقوط العالَم.

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ١٩، ص ١٦.

دار الصداقة العربية
بيروت

دار الصداقة العربية - بيروت لبنان
للطباعة والنشر
Printing - Publishing

هاتف ٤٩٠٧٩٩ / ٠٣ - ٦٥٧٥٧٢ / ٠١ - فاكس ٣٠٧٧٠٧ - ص.ب ٤١٨ / ١٠٠